الكتب

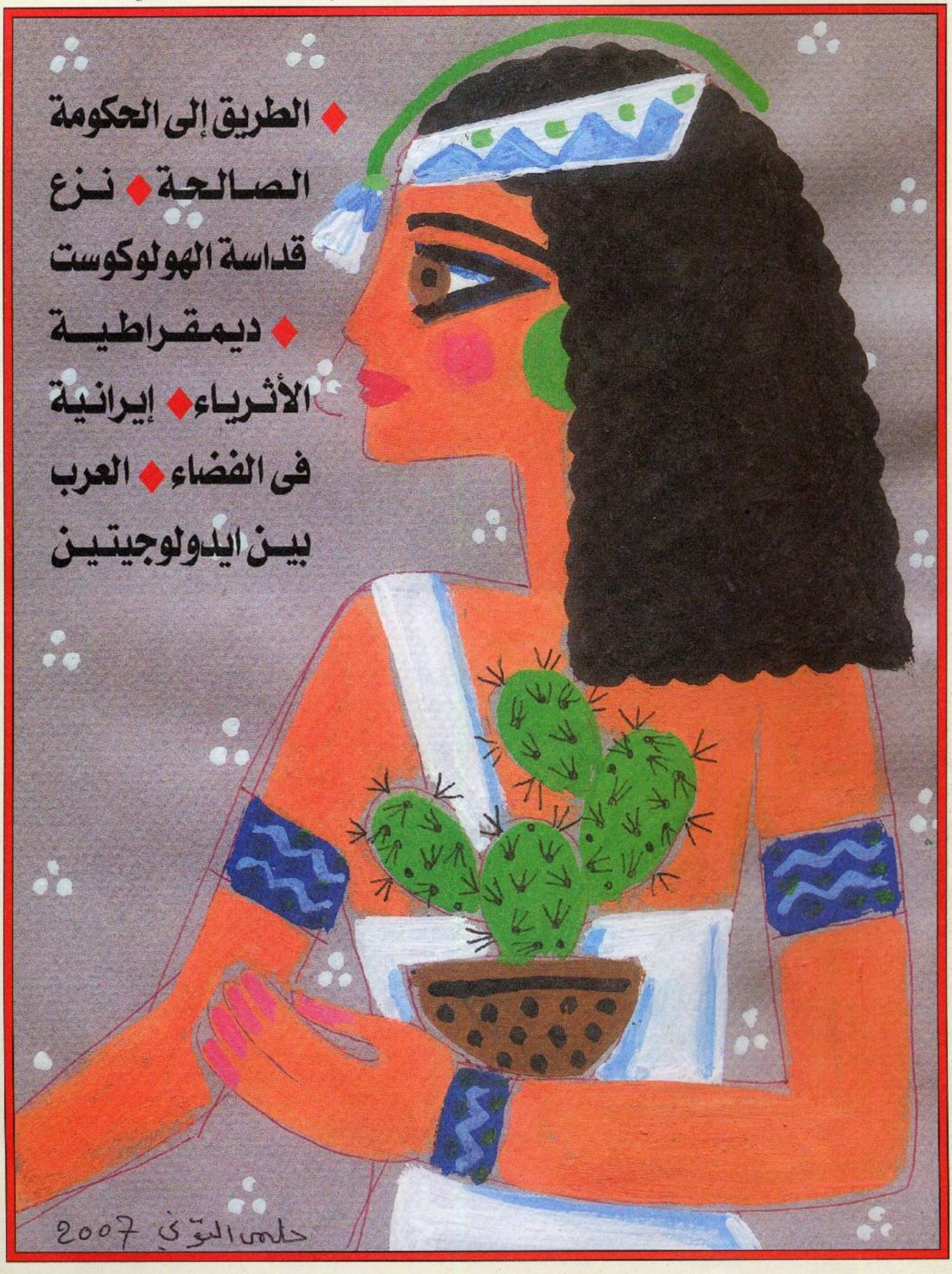
وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد المائة وأربعة . السنة التاسعة . سبتمبر ٢٠٠٧ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 9 - Issue 104 - September 2007

◆ الطريق إلى الحكومة الصالحة ◆ نزع قداسة الهولوكوست ◆ ديمقراطية الأثرياء ◆ إيرانية فى الفضاء ◆ العرب بين ايدولوجيتين

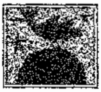


السنة التاسعة
العدد المائة وأربعة
سبتمبر ٢٠٠٧

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربي والدولي



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفني
حلمي التوني
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- إبراهيم سعيد البيضاني.. مدير مركز الدراسات الاستراتيجية ببغداد.
- أنوشة الأنصاري.. سيدة أعمال أمريكية من أصل إيراني وتعد أول سائحة فضاء امرأة.
- حجاج أبوجبر.. باحث في معهد الأعراق البشرية الأوروبي بجامعة هامبولدت الألمانية.
- خليل العناني.. باحث مصري متخصص في شئون الإسلام السياسي.
- رافايل ج. بينادو سانتايا.. جامعة غرناطة.
- رشدي سعيد.. أستاذ جيولوجيا مصري مقيم في الولايات المتحدة.
- شريف دلاور.. خبير اقتصادي مصري.
- شيرين أبوالنجا.. أستاذ مساعد بكلية الآداب - جامعة القاهرة.
- صلاح الدين إبراهيم.. استشاري الطب النفسي.
- طاهر حمدي كنعان.. نائب رئيس وزراء أردني سابق وعضو منتدى الفكر العربي.
- عبد الوهاب المسيري.. أستاذ الأدب الإنجليزي غير المتفرغ بجامعة عين شمس.
- محمد سليم العوا.. رئيس جمعية مصر للثقافة والحوار.
- محمد عمارة.. كاتب ومفكر إسلامي.
- محمد يوسف عدس.. باحث في التاريخ والشئون السياسية مقيم في إنجلترا.
- محمود الورداني.. صحفي وروائي مصري.

رسوم العدد للفنانين

محمد حجي - سعد الدين شحاته

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠ / ٢٣٩٣٠٤٩٢ / ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولاراً أمريكياً - أوروبا وإفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكياً - أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكياً - باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠١٨٥٢٦ - subscription@wegatnazar.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ١٥ درهماً - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالاً - سلطنة عمان ١,٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهماً - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

الطريق إلى الحكومة الصالحة

رشدى سعيد

الديمقراطية نظام للحكم يختلف الناس فى طريقة تطبيقه اختلافاً كبيراً. ويُقصد به فى المجتمعات الغربية الحديثة حق الناس فى أن يحكموا على أداء الحكومة على فترات تتراوح بين ثلاث وسبع سنوات فيثبتونها فى مكانها أو يغيرونها. وفى هذا النظام يكون لكل مواطن صوت واحد يدلى به لا يجوز منعه من استخدامه بالقوة أو التزوير أو بغير ذلك من الطرق. وتتولى الحكومة التى اختارها المواطنون الحكم وتقوم بتنفيذ برامجها دون أن تضطر إلى استخدام العنف كما أنها تلتزم بألا تفسد أو تعطل بأى شكل العملية الديمقراطية التى جاءت إلى السلطة عن طريقها.

ويحمل هذا التعريف البسيط، الذى لا أتصور أن أحداً يمكن أن يختلف عليه، شروطاً عدة لنجاح هذا النظام لعل أولها وأهمها هو أن يكون المجتمع قابلاً لنظام التعدد ومتيحاً الحرية الكاملة لأفراده للتجمع فى أحزاب أو هيئات دون قيد أو شرط تكون لها حرية التجمع والدعوة إلى أفكارها فى مختلف وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية دون حائل. ولا يكتمل النظام الديمقراطى إلا إذا كانت هذه التجمعات طوعية يدخلها الفرد باختياره وليس بسبب انتماءاته الأسرية أو القبلية أو الطائفية - أو العرقية أو الدينية - وهذا أمر لا يتيسر إلا فى الدول ذات التقاليد العريقة فى تنظيم الأحزاب السياسية والنقابات المهنية والتعاونيات والجمعيات الحرفية وغير ذلك من منظمات المجتمع المدنى. وفى مثل هذه التجمعات ينتمى الفرد بناءً على معرفة عقلانية إلى حزب أو نقابة أو جمعية يرى أن أفرادها قد يكونون أقرب إليه من أفراد أسرته أو قريته أو قبيلته أو طائفته أو مذهبه الدينى.

ولا تتهيأ الظروف التى تفرز مثل هذه التجمعات إلا فى دول معينة تنتمى فى أغلبها إلى عالم الدول الصناعية وفى أقلها إلى بعض دول العالم النامى مثل مصر والهند اللتين أتيحت لهما قيادة متقدمة فى بداية القرن العشرين مع نشوء حزب المؤتمر فى الهند وحزب الوفد فى مصر والعديد من الأحزاب الأخرى والتى انضمّ تحت لوائها جموع الناس بكامل إرادتهم ليكونوا من أوائل التنظيمات المدنية التى أدخلت هذين البلدين فى العالم الحديث. وقبل ظهور هذه الأحزاب وعلى طول العصور لم يكن بالهند أو بمصر تنظيم طوعى يمكن أن ينضم الناس إليه باختيارهم. فقد كانت انتماءاتهم تعود إلى البلدة أو القبيلة أو الدين الذى ولدوا فيه والذى لم يكن لهم فيه اختيار. وكان الناس فى هذا النظام القديم يولون ولاءهم لبلدياتهم أو عصبياتهم أو لإخوانهم فى الدين وينظرون إلى الآخر بعين الريبة. وعندما جاء تنظيم الأحزاب انفتح الباب أمام كل الناس وبغض النظر عن انتماءاتهم للدخول فيها بكامل إرادتهم والتأمت تحت لوائها هذه التجمعات المتفرقة لكى يتكوّن المجتمع المدنى الحديث الذى أعطى لمفهوم الوطن أو المواطنة بعداً جديداً: فقد أصبح الهنود والمصريون بفضل هذه الأحزاب مواطنين متساوين يجمعهم لواء الوطن بعد أن كانوا رعايا شيخ القبيلة أو حاكم البلاد أو أتباعاً لرجل الدين.

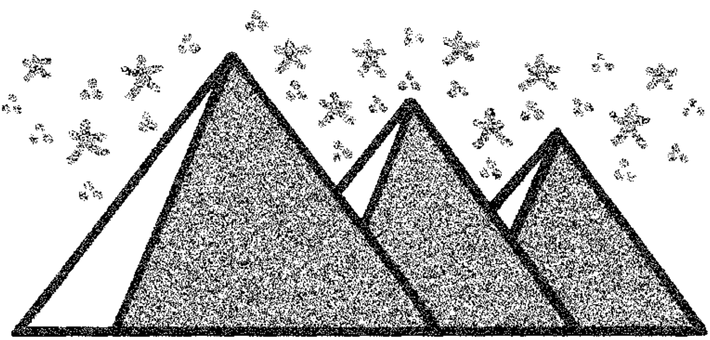
ولعلّ عملية الانسلاخ من قبضة رجال الدين هى من أصعب عمليات بناء الديمقراطية التى هى فى حقيقتها أحد مظاهر المجتمع المدنى الذى يسود فيه القانون الوضعى. أمّا فى تلك المجتمعات التى يسود فيها القانون العرفى أو الإلهى والتى يزعم حكامها أنهم يستمدّون سلطتهم من موقعهم القبلى أو من مصدر إلهى فهؤلاء الحكام لا يمكن أن يقبلوا أن يصبح أداؤهم محل حكم جموع البشر. وليس من الغريب أن جاء ظهور المؤسسات الديمقراطية فى أوروبا بعد أن لفظت أوروبا الحق الإلهى لملوكها وبعد أن قرّرت شعوبها ألا تكون المرجعية فى قوانينها إلى كتاب مقدس بعينه بل إلى حاجاتها الدنيوية. وقد صاحب هذا التحوّل فى أوروبا فصل المؤسسات الدينية عن الدولة تماماً أو تقليصها إلى موقع رمزى فى الوقت نفسه الذى أعطى فيه الحق للجميع من مواطنى الدولة لممارسة شعائرهم الدينية فى حرية تامة.

ويمكن الجزم بأن الحكومة المدنية الديمقراطية هى أكثر الحكومات احتراماً للدين بل لعلها الوحيدة من بين جميع الحكومات التى عرفها الإنسان التى تسمح لجميع مواطنيها بممارسة شعائرهم الدينية بحرية ودون تمييز ودون خوف من اضطهاد: كما أنها الوحيدة التى تسمح للناس بالاجتهاد فى تفسير دياناتهم دون أن يتّهمهم أحد بالارتداد أو يصيبهم غضب المؤسسة الدينية.

ومن العوامل الأساسية التى تؤدى إلى ازدهار الديمقراطية وجود طبقة متوسطة كبيرة العدد متماسكة وواثقة من نفسها ومؤثرة فى الحياة السياسية لمجتمعاتها. وفى الحقيقة فإن ظهور الديمقراطية فى أوروبا جاء مع ظهور الطبقة المتوسطة. فقد رأت هذه الطبقة الجديدة أن النظام الديمقراطى هو خير طريق يكفل لها المشاركة فى الحكم الذى كانت تحتكره طبقة الإقطاعيين بمساندة المؤسسات الدينية. وقد جاءت هذه المشاركة سلمياً ودون إراقة دماء فى بعض البلاد وبالثورة والعنف فى بلاد أخرى. وفى كلتا الحالتين تمّ تغيير نظام وفلسفة الدولة فصفّيت أعمدة النظام القديم وفصلت المؤسسة الدينية عن الدولة وتأسّست حكومات نيابية مسؤولة أمام الناس.

وقد تطوّر النظام الديمقراطى منذ ذلك الوقت فأصبح نظاماً يقوم بالتوفيق بين المصالح المختلفة للطبقة الوسطى. ومن الوجهة التاريخية فإن هذا النظام كان فى أوج نجاحه عندما كان المجتمع مستقراً. ففى هذه الحالة يتفق أغلب الناخبين على مبادئ عامة تتخذها الأحزاب السياسية أساساً لبرامجها المختلفة، ويتفاوت المدى الذى تختلف فيه هذه البرامج من مجتمع إلى آخر: فهو كبير عندما يكون المجتمع مستقراً تماماً وآمناً، وضيقاً عندما يكون المجتمع أقل استقراراً ومشوباً

والديمقراطية.. والانتماء



جميع الدول العربية لا تتبع نظام التعدد ولا تسمح بقيام الأحزاب السياسية أو تسمح بها فى حدود ضيقة

بالقلق. وتشجع معظم بلاد أوروبا الغربية الحديثة تمثيل جميع الأحزاب، بما فيها تلك التى تقف على هامش الفكر السياسى فى العملية الديمقراطية.

ولا يوجد فى النظام الديمقراطى من الوجهة النظرية على الأقل ما يمنع الناخبين من اختيار حكومة تدعو إلى تغيير جذرى فى النظام الاقتصادى أو الاجتماعى للدولة ولا تنتمى إلى أى من التيارات السياسية الأساسية فى البلاد. إلا أن هذا الأمر لم يحدث أبداً من الوجهة العملية حتى فى أعرق البلاد الديمقراطية. ففى الحالات التى رفض فيها الناخبون نظام الدولة الأساسى واختاروا نظاماً مغايراً، ألغيت نتائج الانتخابات وأوقفت الحياة الديمقراطية. ويمتلئ تاريخ أوروبا القرن العشرين بأمثلة كثيرة ليس آخرها ما حدث فى روسيا فى شهر أكتوبر سنة ١٩٩٣، وكثيراً ما صرف النظر عن نتيجة الانتخاب عندما اختار الناخبون حكومة شيوعية فى أوروبا الغربية أو حكومة رأسمالية فى أوروبا الشرقية خلال سنى الحرب الباردة. ففى كلتا الحالتين ألغيت الانتخابات التى رأتها النخبة الحاكمة ضارة على البلاد أو على النظام الديمقراطى ذاته. ويعود ظهور الفاشية والنظم القمعية الأخرى فى أوروبا القرن العشرين إلى عدم قبول النخب الحاكمة لنتائج الانتخابات. ويمكن القول لذلك أن الديمقراطية هى نظام لا يزدهر إلا عندما تكون المجتمعات مستقرة وعندما يسود جو من الثقة بين الناخبين ويؤمنون بأن المبادئ الأساسية التى تنبنى عليها برامج الأحزاب هى مبادئ تصلح أساساً لتقدمهم ورفاهيتهم وأنها قادرة على إصلاح مسار أى خطأ قد ينجم عن تطبيقها.

الديمقراطية فى العالم العربى

والآن، وبعد هذه المقدمة الطويلة عن نشأة الديمقراطية ومقوماتها، ماذا عن العالم العربى وأحوال النظم الديمقراطية التى تدعى كل دولة (باستثناء المملكة العربية السعودية) أنها تسير على نهجها وتحكم بآلياتها. أول ما نلاحظه على هذا النهج الديمقراطى فى مختلف صوره المتبعة فى الدول العربية هو أنه لا يستوفى الشرط الأساسى الذى جاء فى تعريفنا للنظام الديمقراطى فى أول هذه المداخلة وهو ضرورة القبول بمبدأ التعدد. وإذا استثنينا الحالة الخاصة للبنان، فإن جميع الدول العربية وبلا استثناء لا تتبع نظام التعدد ولا تسمح بقيام الأحزاب السياسية على وجه الإطلاق أو تسمح بها فى حدود ضيقة وخانقة تمنعها من التجمع أو إيصال رسالتها عبر وسائل الإعلام المرئية على وجه الخصوص كما هو الحال فى كل من مصر وسوريا. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الكثير من المجتمعات العربية لم تتم بعد لتعبر جسر العلاقات الأسرية أو القبلية أو الدينية ولم يتم إدماج طوائفها ومللها المختلفة فى بوتقة المجتمع المتناسق. ولعل أبرز مثال على تلك الحالة هو حال لبنان التى تتكون من موزاييك فريد استطاعت مكوناته وطوائفه أن تتعايش بعد الاستقلال عن طريق قبولها بمعادلة التمثيل النسبى لكل طائفة. وكان من المنتظر أن تكون هذه المعادلة مؤقتة لحين إيجاد معادلة أخرى يتم فيها الاندماج الكامل لكل الطوائف فى نسيج واحد. ولكن هذا الاندماج لم يحدث بل وعلى العكس من ذلك فقد أصبح الانقسام الطائفى أكثر وضوحاً عن ذى قبل.

أما فى مصر التى كانت من أوائل الدول العربية التى اندمجت طوائفها لتكون المجتمع المتماسك والحديث، فقد تراجعت عمليات الاندماج فى الخمسين سنة الأخيرة من القرن العشرين عندما ألغيت الأحزاب ثم أعيدت بعد سنوات طوال بقيود وتحت إشراف سلطوى، ومنعت من حرية الاجتماع العام والوصول الحر للرأى العام. وفى هذه السنوات تم تقييد الحركة النقابية حتى كاد الكثير منها أن ينقلب إلى مؤسسات حكومية. وفيها ظهر قانون ينظم تكوين الجمعيات الأهلية يكاد أن يضع كل أمورها تحت رقابة الحكومة.

وفى هذه السنوات تم تكديس توريث المهن فأصبح من الشائع أن يرث الابن عن أبيه مهنته وأصبحت وظائف أساتذة الجامعات والقضاء والجيش والبوليس والسلك الدبلوماسى حكراً على الأبناء.

ولم يعد من المثير للدهشة أن نرى جميع أعضاء السلك الدبلوماسى فى إحدى السفارات بدءاً من السفير ونهاية بأصغر ملحق فيها من أبناء السفراء السابقين. كما لم يعد مثيراً للغضب أن يكثر الكلام فى الصحف عن البلديات والعصبيات، بل إن رئيساً سابقاً لمصر كان كثير الكلام عن القرية التى نشأ فيها والتى كان يختار أقرب معاونيه من بين أبنائها. كما أصبحت انتخابات مجلس الشعب تدور حول العصبيات والانتماءات القبلية والدينية. وهكذا تشرذمت مصر وتفرق أهلها ولم يعد من الممكن على سبيل المثال أن ينجح قبطى فى الانتخابات العامة بعد أن كان الكثير منهم ينجحون فى دوائر لم يكن بها وجود قبطى يذكر. كما لم يعد الدخول فى مختلف المهن مفتوحاً كما كان بل عاد الناس إلى أحوال العصر الوسيط يرثون مهن آبائهم حتى وإن لم يكونوا مهيئين لها.

وإذا أردنا أن نعرف ماذا يمكن أن يأتى به تآكل المجتمع المدنى فما، علينا إلا أن نرى ما أتى القضاء عليه وتكريس نظام الطوائف من كوارث نراها فى العراق والسودان والصومال التى تفتتت وعادت إلى النظم القديمة فى الحكم والتى كان الولاء فيها إلى القبيلة التى نشأ الفرد فيها أو الدين الذى ولد عليه. ويبدو أن الكثير من الدول العربية تسير فى الطريق نفسه فما لم تسارع بلاد مثل اليمن والسعودية ودول الخليج العربى والجزائر وسوريا فى بناء المجتمع المدنى وكسر نظام الطوائف ومعالجة مشاكل أقلياتها

التى بدأت تتململ من طول الحكم السلطوى للأكثرية الغالبة فلن يكون المستقبل مأموناً.

ويسير نظام الطوائف يداً بيد مع تصاعد دور الدين في الحياة العامة في كافة البلاد العربية، فقد أصبح رافداً هاماً في حياتها السياسية وزادت المطالبة بجعله نظاماً للحكم يسترد قوانينه من شرائعه. وفى مثل هذا الجو الذى يتحكم فيه المطلق والقانون الإلهى فمن غير المتصور أن تزدهر العملية الديمقراطية كما بينا فى بداية هذه المداخلة. ومن الملاحظ أن كل البلاد العربية وبلا استثناء واحد وبما فى ذلك البلاد التى تحرم خلط الدين مع السياسة مثل مصر قد تصاعد فيها هذا الفكر الذى وجدت الحكومات أن فى تشجيعه فائدة لها كفزاعة لتحصل على تأييد نخبها والحكومات الغربية التى تسعى هذه النخبة للحصول على صداقتها وتأييدها.

ولعل أكبر معوق لبناء الحكم الديمقراطى فى البلاد العربية هو فى غياب الحكومة الصالحة التى تسودها الشفافية والاستقامة فهى الوحيدة التى يمكن أن ينمو فى ظلّها المجتمع المهيأ للعيش فى نظام ديمقراطى. كما أنها الوحيدة التى يمكن أن تجرى الانتخابات فى نزاهة كاملة وحياد تام تتيح لمجتمع التعدد بأحزابه وهيئاته حرية الاجتماع والفرص المتساوية لعرض برامجها فى وسائل الإعلام على اختلافها وإدارة عملية الانتخاب فى شفافية ودون تزوير. ومثل هذه الحكومات الصالحة هى الأساس الحقيقى لقيام نظام ديمقراطى فعال ودون وجودها يكون الحديث عن الديمقراطية هو العبث بعينه. فقد أثبتت التجربة عدم جدوى المجالس النيابية التى أفرزتها الحكومات الرديئة التى تحكم العالم العربى اليوم حتى ليمكن القول بأن هذه المجالس تشكل فى الوقت الحاضر عبئاً على البلاد. فهى بحكم تركيبها ونوعية أعضائها غير صالحة بأى شكل من الأشكال للقيام بأعمال التشريع أو الرقابة حتى ليمكن القول بأنه لو أقفلت كل هذه المجالس أبوابها لما حدث هناك أى شىء يمكن أن يؤثر على البلاد.

وفى نظرى فإن القضية الأولى التى يجب أن تشغل الرأى العام فى الوقت الحاضر والتى ينبغى أن تجند لها كل قوى التقدم فى البلاد العربية هى الدعوة إلى إيجاد هذه الحكومات الصالحة التى يمكن أن تمهد الأرض لبناء المقومات الأساسية لبناء المجتمع الديمقراطى. وهنا قد يقول قائل بأن الطريق إلى الحكومة الصالحة هو فى تطبيق النظام الديمقراطى الذى ينبغى أن ندعو إليه. وهنا أذكر القائل بأن التجربة العملية أثبتت خطل هذا الرأى فها نحن نرى نتيجة ما تقوم به الحكومات الرديئة القائمة من هدم لكل المقومات اللازمة لبناء النظام الديمقراطى.

وعلينا أن نتذكر أن قيام الحكومة الصالحة هو رهن بقيام المجتمع المدنى الذى يعتمد اقتصاده فى المقام الأول على الإنتاج لأن مثل هذا المجتمع هو الكفيل بإخراج قيادات لها مصلحة حقيقية فى بناء أجهزة ومؤسسات الدولة التى تعمل فى كفاءة وشفافية ونزاهة خالصة. فالمنتج هو صاحب العمل الذى يهمه أن يكون ببلاده مؤسسات ذات كفاءة وعلى درجة كبيرة من الاستقامة يرى أن لها فائدة كبرى تيسر له العمل وتفتح أمامه النجاح. المنتج هو الذى يريد أن يرى ببلاده مؤسسات عالية الكفاءة للقضاء والأمن والجمارك والضرائب والتعليم وغيرها لأن فى نجاحها واستقامتها مصلحة مؤكدة. ومن الملاحظ أن كافة الدول العربية أصبحت دولاً غير منتجة فكلها وباستثناءات قليلة تعتمد فى اقتصادها على تصدير الخامات الأولية وتقديم التسهيلات التجارية والخدمات السياحية والاتجار فى الأموال والأراضى والعقارات والكثير منها يعيش على المعونات الأجنبية التى تأتيه من كل صوب، ومثل هذا النشاط الاقتصادى يولد الفساد فهو فى حقيقته نشاط اقتصادى مبنى فى الأساس على عمليات غسيل الأموال.

وفى ختام هذه المداخلة، فإنى أتوجه بالنداء إلى كافة القوى الوطنية فى العالم العربى لبدء حملة مكثفة للدعوة لمحاربة الفساد وبناء الحكومة الصالحة والمجتمعات المنتجة، فمثل هذه الدعوة ستكون البدء الحقيقى لبناء الديمقراطية فى ظل الأحوال الحاضرة فى العالم العربى. ※

ثقافة

※※ التغيير سُنّة من سنن الحياة، فليس هناك شىء يبقى على حاله بصورة دائمة، ولذلك صحت العبارة العربية التى تذهب مذهب المثل على السنة الخاصة والعامة «سبحان من يُغيِّر ولا يَتغيَّر» يَعنُون بها أن الثبات المطلق فى الصفات والقدرات هو لله تعالى وحده، وأن كل ما سواه يلحقه التغيير.

وعندما نقرأ فى الأدبيات الإسلامية والعربية المعاصرة عبارات مثل «الثوابت» و«المتغيرات» ومثل «الأصول» و«الفروع» فإننا لا نفهم منها إلا أن هناك أفكاراً أو ضوابط أو قواعد يُرجَع إليها بصورة متكررة، وتستدعى لبناء التصورات المتباينة فى العصور المتوالية، وليس هذا، فى حقيقته، إلا تغييراً لفهمنا لهذه «الثوابت» وتلك «الأصول» على الرغم من هاتين التسميتين اللتين توحيان بعدم قبولهما للتغيير.

وفى مسيرة الفكر الإسلامى لم يكن التغيير مترتباً على تغير العصور والأحوال فقط، بل كان التغاير (وهو اختلاف يؤدى إلى تغيير الحكم على أمر أو شىء أو تصرف ما) فى فهم النصوص القرآنية والنبوية، نفسها، قائماً بين العلماء والفقهاء والمحدثين واللغويين والمتكلمين والصوفية جميعاً فى المجتمع الواحد وفى الزمان الواحد. وهذا التغاير هو الذى أنتج ظاهرة التعدد المذهبى الفقهى والكلامى، والتعدد المدرسى اللغوى، والتعدد الطرقى الصوفى، وهى ظاهرة دلت، ولا تزال تدل، على ثراء الفكر العربى الإسلامى وتعدد تجلياته تبعاً لتعدد المصادر التى استقى منها المعبرون عنه والمشاركون فيه.

ولم يضق المجتمع العربى الإسلامى بهذا التعدد فى المجالات الفكرية والثقافية والدينية كافة بل اعتبره ظاهرة طبيعية، واستعملت فى تسويغه والتدليل على قبوله عبارات نبوية أو قرآنية مثل «كلٌ ميسرٌ لما خلق له» و«كل يعمل على شاكلته» فى إشارة لا يخطئها العقل إلى أن هذه التعددية الفكرية من معالم الفطرة التى فطر الله الناس عليها.

وتَبعَ هذه التعددية توالى التغيير فى مختلف أمصار الإسلام وأقطار العروبة فلم يبق الناس فى أى مصر أو قطر على فهم واحد أو فكرة واحدة وإنما تغيرت المذاهب المتبوعة والأفكار السائدة من وقت إلى وقت آخر بحسب قدرة المعبرين عنها على الإقناع وكسب الأتباع.

وهذا الواقع كان يستند إلى موروث ثقافى لا ينكره أحد مؤداه أن الإسلام نفسه لم يكن سوى حركة تغييرية كبرى فى العقائد السائدة والعادات والتقاليد المتبعة والأعراف المهيمنة على حياة الناس وقت البعثة النبوية.

فالدعوة الإسلامية إلى توحيد الله بالعبودية كان هدفها القضاء على الوثنيات التى سادت جزيرة العرب عند بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، وتصحيح التصورات الخاطئة التى تسربت إلى الدينين السماويين السابقين على الإسلام: اليهودية والمسيحية.

والتشريعات الإسلامية فى العبادة كان هدفها تغيير العبادة الفاسدة، التى وصفها القرآن الكريم بقوله: {وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} (الأنفال:٣٥)، إلى العبادة الصحيحة التى يستحقها الله تعالى وحده، ولا يقبلها إلا كما شرعها على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

والتشريع الإسلامى فى مجال المعاملات كان يرمى إلى تحقيق مصالح الناس ودرء المفاسد التى كانت غالبة على تعاملاتهم قبل الإسلام. ولذلك لم يلغ الإسلام كل ما كان معروفاً من صور العقود والتعامل قبله وإنما ألغى بعضها وأبقى بعضها. ألغى ما فيه ضرر محض، وأكل للمال بالباطل، وظلم يقع من القوى على الضعيف، ونحو ذلك من المنكرات وأبقى ما ليس كذلك من معاملاتهم.

وأقر التشريع الإسلامى الأعراف الصالحة، مع حملته القوية على الأعراف الفاسدة. فأبقى للقبيلة كيانها وتعاونها ورايتها التى تقاتل تحتها. ونصت الوثيقة النبوية المعروفة بـ «دستور المدينة» بعد ذكر القبائل المختلفة فى المدينة المنورة على أنهم «على ربعتهم يتعاقلون بينهم، ويتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف» (رَبعتهم هى حالهم التى كانوا عليها قبل الإسلام؛ والمعاقل هى الديات؛ ومعاقلهم الأولى أى المقادير المتعارفة بينهم لكل اعتداء؛ والعانى هو الأسير؛ والمعروف هو العرف)[1].

وهكذا لا يستطيع أحد أن ينكر على الإسلام نفسه أنه كان حركة تغييرية إنسانية كبرى، وجّه الوحى خطوها نحو تحقيق مصلحة الناس؛ وسار الأئمة من أهل الفقه والفكر والنظر على هدى هذه

التغيير.. وجهة نظر إسلامية

محمد سليم العوا

السنة الإسلامية في التغيير والتصويب في كل أرض دخلها الإسلام وفي كل جيل من أجياله. وليس جيلنا، ولا أقطارنا الإسلامية والعربية المعاصرة بدعاً من الأجيال والأعصار، فنحن نحتاج إلى التغيير في كثير من نواحي حياتنا السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية أيضا، وهو تغيير تفرضه حالنا التي لم تعد ترضي أحدا، وعلاقتنا بالعالم من حولنا الذي أصبح يهيمن على حياتنا بصناعته وتقنيته وثقافته دون أن تكون لنا في ذلك كله مساهمة تذكر.

القرآن الكريم وقضية التغيير:

يتناول القرآن الكريم قضية تغيير حال الناس في عدد من الآيات الكريمة يرد فيها لفظان هما: «التغيير» و«التبديل».

فأما التغيير فقد جاء في آيتين اثنتين في قول الله تعالى: (بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم) (الأنفال:٥٣)؛ وفي قوله تعالى: (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال) (الرعد:١١).

وأما لفظ التبديل فقد جاء في عدد من آيات القرآن الكريم منها قوله تعالى: (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون) (البقرة: ٥٩)؛ وقوله تعالى: (سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب) (البقرة: ٢١١).

وقوله سبحانه: (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار) (إبراهيم: ٢٨). وأهل العلم بالقرآن يقولون إن التبديل والتغيير بمعنى واحد[2].

ويرد اللفظان للانتقال من حال حسن إلى حال سيئ، أو من حال سيئ إلى حال حسن. فقوله تعالى: (بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم) صريح في أن التغيير هنا من حال حسنة إلى حال سيئة بينما قوله تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم يحتمل التغيير من الحسن إلى السيئ والتغيير من السيئ إلى الحسن[3].

ونستطيع أن نقول مثل ذلك في قوله تعالى: (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون) (الأعراف:٩٥). فهذه الآية تدل على التبديل من السيئ إلى الحسن ثم من الحسن إلى السيئ، بينما قول الله تبارك وتعالى: (ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب) (البقرة: ٢١١)؛ وقوله: (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار) يدلان على التبديل من الحال الحسنة إلى الحال السيئة. وقول الله تعالى: (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما) (الفرقان: ٧٠)؛ وقوله: (وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) (النور:٥٥) يدلان على تبديل الأحوال السيئة بأحوال حسنة.

والتغيير والتبديل في الآيات كلها نتيجة مترتبة على فعل الناس بأنفسهم «فقد قضت مشيئة الله وجرت سنته أن تترتب مشيئة الله بالبشر على تصرف هؤلاء البشر وأن تنفذ فيهم سنته بناء على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم. والنص... دليل التكريم لهذا المخلوق الذي اقتضت مشيئة الله أن يكون هو بعمله أداة التنفيذ لمشيئة الله فيه»[4].

وإرادة الإنسان وحركته في التصور الإسلامي عامل مهم في حركة تاريخه وفي تفسير هذا التاريخ. والقرآن الكريم عندما يعرض لمثل قضية التغيير لا يروي حادثة بعينها إنما يكشف عن سنة كونية مستمرة مؤداها أن ما يقع بالناس من خير أو شر مرده ومآله إلى ما يصنعه الناس أنفسهم بسلوكهم ومواقفهم[5].

وورود هذه السنة في القرآن الكريم، مكررة في المواضع كلها التي يتناول القرآن فيها مسألة التغيير أو التبديل، تقرير لعدل الله في معاملة العباد؛ فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم ويبدلوا سلوكهم ويقلبوا أوضاعهم، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه، للابتلاء والاختبار من نعمة لم يقدروها ولم يشكروها. ومن الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق أكبر تكريم حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجري عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله[6] والنص القرآني بذلك يلقي تبعة على الإنسان



الذي يملك تغيير مصيره بما يصنعه بنفسه في حياته؛ فهو العنصر الإيجابي في صياغة هذا المصير لا سواه. وهذا الفهم قديم عند أهل النظر في القرآن الكريم فقد نص عليه الطبري في تفسير قوله تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)[7]؛ والقرطبي في تفسير الآية نفسها[8]؛ وابن عطية في تفسير قول الله تعالى: (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم)[9].

والحاصل أن القرآن الكريم يجعل تغيير أحوال الناس، إصلاحا وإفسادا، منوطا بعملهم هم، لا يقع خبط عشواء، ولا يتم بإرادة سواهم من خلق الله.

فالذين ينظرون اليوم إلى الأحوال الموجبة للتغيير في أوطان العرب والمسلمين كافة، ويتطلعون إلى تغييرها طلبا للإصلاح، وحرصا على مستقبل الأمة، وأملا في استعادة ما كان لها في غابر الزمن من مكانة بين الأمم، عليهم أن يسألوا أنفسهم ماذا صنعوا؟ وماذا قدموا لكي يقع التغيير الذي يطلبونه؟ وهم من ناحية أخرى لا يجوز لهم أن ينتظروا قيام فئة أو طبقة أو ملك أو زعيم بإجراء التغيير من تلقاء نفسه. فإن مصالح هؤلاء، في زعمهم، إنما تتحقق ببقاء الحال على ما هو عليه: استدامة للسلطان والنفوذ، باحتكار الثروات، وإهمال حقوق الإنسان، إن لم أقل العدوان عليها، ومصادرة حق الأمة في المشاركة في صنع حاضرها ومستقبلها تحت دعاوى الاستقرار والمحافظة عليه. أو انتظار حل مشكلاتنا الكبرى مثل مشكلة العدوان الصهيوني على فلسطين والعدوان الأمريكي البريطاني على العراق، كما لو أن تحرير فلسطين والعراق يتطلب استمرار الفساد والتعذيب والاستبداد وتعطيل الديمقراطية وسيادة القانون وحقوق الإنسان في العالم العربي[10].

ومنهج القرآن في التغيير كما يجعله موقوفا على صنع الناس يجعله متوقفا على إرادة الله تبارك وتعالى. ويجعل الأمرين مقترنين. بل يجعل وقوع التغيير القدري مبنيا أصلا على وقوع التغيير البشري. فالركون إلى الأقدار وانتظار تحركها لتحقق ذلك الإصلاح، الذي لم يسع الناس إلى تحقيقه بأنفسهم، فساد في التصور وجهل بالسنن الربانية التي تدل عليها النصوص القرآنية. وهو جهل شائع بدرجة كبيرة، للأسف الشديد، بما يسوغ التنبيه إليه والتحذير من الوقوع فيه، وضرورة مواجهة الذين يتسترون بنشره في الناس سكوتهم على المظالم، ورضاهم بالفساد، وقعودهم عن العمل لمصلحة القوى المهيمنة في هذا القطر أو ذاك.

أولويات التغيير الضروري:

قد يختلف الناس اختلافا واسعا حول أولويات التغيير، ولا يسع أحدا أن ينكر حق الباحثين والمفكرين والزعماء السياسيين -أيضا- في تصور ترتيب الأولويات، وفي وضع خطط تنفيذ الإصلاحات التي يجب إجراؤها في عالمنا العربي. وليس في وسع باحث إلا أن يقرر لنفسه ما يراد في شأن الأولويات ووسائل الإصلاح، وأن يعرض ذلك على المعنيين بالشأن الإصلاحي، فإن قبلوا منه فذلك ما كان يبغي، وإن أبوا عليه فهم إما أن يدلوه على خير من رأيه أو يزيدوه إدراكا لصوابه وفي الحالين، يكون عملهم، مضافا إلى عمله،

ليس لأحد حجة فى إبعاد النساء عن العمل العام بسبب أنهن نساء، ولا فى حرمان الأمة من جهد المرأة لأنها امرأة

نوعاً من أنواع التعاون على البر والتواصى بالمعروف وهما واجبان شرعاً وعقلاً!

الإصلاح السياسى أولاً:

والرأى عندى أن الإصلاح الضرورى يبدأ، أول ما يبدأ، بالإصلاح السياسى. فمشكلتنا الرئيسية فى العالم الإسلامى كله هى فساد نظم الحكم المترتب على خلودها وأبديتها! والخلود والأبدية جعلا لحكامنا سلطة مطلقة لا تعلوها سلطة، ولا تنال منها مساءلة، ولا يتصور عليها قيد ولا حد.

وقد ورثنا هذه الخصيصة - أعنى خصيصة الخلود الأبدية - من تراثنا الثقافى الإسلامى الذى يقرر ويكرر أن الحاكم، سواء أكان مختاراً من الأمة (منتخباً) أم كان متغلباً عليها، يبقى فى منصبه إلى أن يأتيه أجل الله، أو يقوم متغلب آخر يقدر عليه فيستولى منه على سلطان حكمه؛ ونضيف، بعد ما حدث مؤخراً فى أفغانستان والعراق، احتمالاً ثالثاً لزوال سلطان الحكام هو أن يقع غزو أجنبى لبلد ما فيسقط نظامه وتحل محله فوضى عارمة أو نظام يعمل لحساب المستعمر ويأتمر بأمره (!)

وفكرة تأبيد سلطة الحكام جاءت من التقليد الذى كانت تسير عليه الدول كلها فى العصر الذى نشأت فيه الدولة الإسلامية الأولى، فلم يكن آنذاك ثمة تداول للسلطة ولا تأقيت لمدة الحاكم فى أى مكان فى العالم. وجاءت كذلك نتيجة خوف الفقهاء والمفكرين السياسيين الإسلاميين من حلول الفوضى ووقوع المظالم. ففى مروياتهم التى تكاد أن تكون مسلمة بينهم أن: «ظلم سنة خير من فتنة ساعة». فمدار هذا الرأى كله وأساسه الذى ليس له سواه أن «درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة». وهذه القاعدة صحيحة، كما أن العبارة الخاصة بتفضيل الجور لمدى طويل على الفتنة التى يهلك فيها البرءاء وتستحل فيها الدماء المعصومة، عبارة صحيحة أيضاً. لكن الإشكال ينشأ - وإن شئت قلت نشأ واستمر - من تحويل الحكم الفقهى المؤقت (منع الفتنة) و(درء المفسدة) إلى حكم دائم يجعل الاستيلاء على السلطة بالقوة (حكومة المتغلب) مشروعاً، والظلم المستمر جائزاً، ومصادرة الحقوق، واحتكار الثروات، والتفرد بالسلطان كله، عن غير شورى من المسلمين، أموراً مباحة.

وبغير التخلص من هذا الفكر، وما ترتب عليه فى حياتنا السياسية من جمود وفساد فإن أى إصلاح آخر، فى أى مجال كان، لا جدوى منه ولن يكون له أثر.

وإذا كان اجتهاد الفقهاء الأقدمين مبنياً على قاعدة درء المفاسد وتقديمه على جلب المصالح، وعلى قاعدة أن الضرورات تبيح المحظورات، باعتبار المحظور هو الاستيلاء على الحكم بالقوة والبقاء فيه إلى الأبد، والضرورة التى أباحته هى خشية الفتنة والهرج[11].

والضرورة فى صحيح الفقه الإسلامى، وفى صريح العقل أيضاً، تقدر بقدرها، ولا يجوز التوسع فى تفسيرها، ولا تحويلها من حال عارضة طارئة مؤقتة إلى حال دائمة لا تزول ولا تنتهى بل تتجدد مع تولية كل حاكم جديد، وتتسع فتشمل الأقطار كلها على اختلاف ظروفها وأحوالها. والبقاء على القول القديم الذى بينت أساسه وسنده يؤدى بالأمة إلى أن تبقى فى حال التخلف والقعود الذى هى فيه.

مضمون الإصلاح السياسى:

والبدء بالإصلاح السياسى يعنى تمكين الأمة من اختيار حكامها، وتحديد مدة ولايتهم، وتحديد سلطاتهم وصلاحياتهم، وصنع المؤسسات التى تراقب عملهم، ووضع الأساليب والوسائل التى تتخذها هذه المؤسسات فى أداء واجب الرقابة.

وتحديد مدة الولاية يترتب عليه تقرير أن الحق فى تجديد الاختيار، أو القيام باختيار جديد، حق للأمة لا يجوز عند ممارسته أن تزيف إرادتها أو تزور الأصوات التى يدلى الناخبون بها.

وأنا أستعمل كلمات (الأصوات) و(الإرادة) و(الناخبين) عامداً غير مخطئ، لأننى أدعو إلى اتخاذ الوسيلة المعروفة فى العالم الحديث باسم الديمقراطية وسيلة وحيدة لتنظيم العلاقة بين الحاكمين والمحكومين، فليس فيما أدركته البشرية وسيلة أفضل من الديمقراطية، باعتبارها سبيلاً لاختيار الحكام وعزلهم وتقرير مسؤوليتهم. وهذه الديمقراطية يمارسها العالم بصور متفاوتة من حيث التنظيم ولكنها متفقة من حيث النتيجة التى تؤدى إليها، أعنى من حيث تمكينها الناس من إدارة شؤونهم بأنفسهم، باختيار من يديرونها نيابة عنهم، وعزلهم، ومحاسبتهم عما قدموا فى أثناء توليهم مناصبهم.

وإذا كانت الشورى قد تقررت فى القرآن الكريم بآيتين اثنتين هما قول الله تبارك وتعالى: (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) (الشورى:٣٨)؛ وقوله سبحانه: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران: ١٥٩).

فإن هاتين الآيتين تقرران مبدأ الشورى دون أن تتعرض أيهما لتفاصيله ولا لكيفية ممارسته، وهو منهج إسلامى أصيل يقوم على تفصيل ما لا يتغير بتغير الزمان من الأحكام وإجمال ما يتغير. ولأن الشأن السياسى كله ليس مما يثبت على حال فقد أجمل فيه القرآن الكريم هذا الإجمال الشديد ليترك للأمة الإسلامية تنظيم حياتها السياسية بما يحقق مصالحها فى الأزمنة المتوالية والأمكنة المتعددة[12].

والأصل فى الشورى، على الأصح من أقوال العلماء، أنها واجبة ابتداء ملزمة انتهاء حتى قال بعض العلماء: «إن من تركها من الحكام فعزله واجب بلا خلاف»[13].

وليس المقصود بالشورى فى المفهوم الإسلامى حل صراع مفترض بين الحاكمين والمحكومين. فهم، فى التصور الإسلامى للدولة والمجتمع، أسرة واحدة لا فضل فيها لأحد على أحد إلا بالتقوى. وصاحب الولاية العامة ليس إلا واحداً من الناس جعله الله أثقلهم حملاً. والرقابة الشعبية التى تقيمها نظم الحكم الديمقراطية المعاصرة هدفها منع الاستبداد ومقاومة الظلم؛ والاستبداد والظلم محرمان شرعاً، ومنعهما واجب على الأمة كلها لأن هذا المنع داخل فى واجب النهى عن المنكر.

ولا يجوز الاستغناء عن الرقابة الشعبية التى توفرها النظم الديمقراطية، فى عصرنا هذا، بالركون إلى مفهوم أهل الحل والعقد الذى يروج له أهل التقليد من الكتاب المعاصرين فى الشأن السياسى الإسلامى. فإن مفهوم أهل الحل والعقد مفهوم تاريخى نشأ فى صدر الإسلام نتيجة ظروف الهجرة النبوية وتأسيس الدولة الإسلامية، وحركة الفتح الإسلامى التى صبغت بصبغتها أكثر الآراء السياسية فى عصر الاجتهاد والتدوين. وهذه الظروف تغيرت فى العصور الإسلامية المتوالية، وهى - يقيناً - غير قائمة فى العصر الإسلامى الذى نعيش فيه. فماذا نفعل فى هذا المفهوم، وما رتبه الفقه عليه من نتائج وآثار؟ إن الواجب أن يكون فى الدولة الإسلامية قادرون أكفاء يقومون بما كان يقوم به أهل الحل والعقد فى الزمان الأول، وهم اليوم - عندى - أعضاء المجالس النيابية المنتخبون انتخاباً حراً ليمثلوا الأمة تمثيلاً صحيحاً. ولا يجوز أن يدين هؤلاء بطاعة أو ولاء إلا للأمة كلها، ويجب أن تنظم علاقتهم بها على نحو يضمن قيامهم بحراسة مصالح الأمة والذود عنها دون أن يستميلهم أو ينحرف بهم ترغيب أو ترهيب[14] وهؤلاء إن أحسنوا كسبوا ثقة الناس، فى مقبل الأيام، وإن أساءوا وجدوا جزاء الإساءة القانونى والمعنوى على السواء!

التعددية السياسية حق للناس:

ولا يتصور إصلاح سياسى فى مجتمعنا العربى المعاصر دون التسليم بالحق فى التعددية السياسية الذى هو نتيجة طبيعية للاختلاف الفطرى الذى جعله الله تبارك وتعالى لازماً من لوازم الوجود الإنسانى كما قال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) (هود: ١١٨-١١٩)، قال العلماء أى وللاختلاف خلقهم[15] ووهبهم حرية الاختيار وحملهم تبعاته[16] والتسليم بالتعددية السياسية تبعاً لحق الاختلاف وحرية الاختيار أمر لا يحتمل المراء ولا الشك[17].

ولم تعرف البشرية ظلماً أشد ولا

لم تعرف البشرية ظلماً أشد من الظلم المستند إلى نظرة دينية يساء فيها استخدام نصوص الدين الصحيحة

طغياناً أقسى من الظلم والطغيان اللذين استندا إلى نظرة دينية يساء فيها استخدام نصوص الدين الصحيحة بتأويلها على وفق أهواء الظالمين، أو يدس فيها ما ليس منه تحقيقاً لنزواتهم أو تمكيناً لها من القضاء على خصومهم، ولذلك فإن الدعوة إلى التعددية السياسية وضمانها باعتبار حق الاختلاف حقاً إنسانياً أصيلاً تعد اليوم من ضرورات الإصلاح السياسي في الوطن العربي والإسلامي كله. وإذا كان فقه القواعد الأصولية الإسلامية يقوم، من بين ما يقوم عليه، على قاعدة «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» فإن النظام السياسي الضامن لحقوق الناس لا يمكن أن يقوم وحق الناس في التعبير عن رأيهم منكور عليهم بدعوى أن وحدة الأمة واجب ديني[18].

إصلاح أوضاع المرأة:

ويلي الإصلاح السياسي في ضرورته لمجتمعاتنا العربية والإسلامية المعاصرة الاعتراف بحق المرأة في العمل العام.

وهذا الحق مستمد مباشرة من القرآن الكريم الذي يقرر صراحة المساواة بين الرجال والنساء في الأصل الذي يقوم عليه كل عمل عام وهو مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:71).

ومع هذا النص القرآني الصريح فلا مجال للمماحكة والمجادلة في حق المرأة في ممارسة العمل العام وأنه كحق الرجل سواء بسواء.

وقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك في قوله: «إنما النساء شقائق الرجال»[19]. وفي قوله صلى الله عليه وسلم: «الدين النصيحة» قلنا لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[20]. فالسنة والقرآن إذن متفقان على المساواة بين الرجال والنساء في الشأن العام الذي لا يخرج عن أن يكون «نصيحة» سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم «الدين»! ومن جميل فهم العلماء لحديث النبي صلى الله عليه وسلم «إنما النساء شقائق الرجال» أن معناه أنهما نظيران. كأن النساء شققن من الرجال، أو العكس «فما ثبت للرجال من الأحكام يثبت للنساء إلا ما قام عليه دليل الخصوصية»[21].

وليس لأحد حجة في إبعاد النساء عن العمل العام بسبب أنهن نساء. ولا في حرمان الأمة من جهد المرأة لأنها امرأة. وهذا هو ما تؤكده السوابق الإسلامية الثابتة منذ عهد النبوة لمشاركة المرأة في العمل السياسي والعسكري بصوره كافة[22].

التغيير واجب والتدخل الخارجي مرفوض:

إن الأمراض التي تعاني منها شعوبنا ودولنا كافة ليست حصيلة عهود قريبة وإنما هي آثار قهر سياسي واجتماعي طال مداه حتى أنتج ركام المشكلات التي نعاني منها في أقطارنا كلها، ولم تزل الإرادة السياسية متخلفة عن الإرادة الشعبية في العمل لتحقيق الإصلاح ووضع خططه موضع التنفيذ حتى ظهرت في الأفق الدعاوى الغربية، وبوجه خاص الأمريكية، لإصلاح أوضاع الدول العربية والإسلامية فيما عرف بمشروع الشرق الأوسط الكبير أو الشرق الأوسط الواسع، أو الجديد، أو مبادرة إرساء الاستقرار في الشرق الأوسط.

وفي كل هذه المبادرات اختلط السم بالدسم، وتحقيق الخير في بعض الجوانب لأمتنا وشعوبنا مع تحقيق المصلحة الخالصة في الجوانب كلها لأصحاب هذه المشروعات على تعددها وتباينها.

وكثير ممن يتناولون موضوع الإصلاح في صحفنا ووسائل إعلامنا يؤيدون هذه الخطط الأجنبية، إما يأساً من إمكان تنفيذ إصلاح داخلي ذاتي وإما طمعاً في حظوة عند أصحاب المشروعات الأجنبية تمكنهم على أيديهم مما لم يتمكنوا منه في ظل الأوضاع الحالية لأوطانهم وبلدانهم.

والإصلاح مطلب شعبي شامل للأقطار الإسلامية والعربية كافة، ومن أبرز أمثلته نشوء الحركة المصرية من أجل التغيير، والدعوات الإصلاحية النظيرة لها، في كل قطر عربي آخر. وأصحاب هذه الدعوات يؤمنون بضرورة الإصلاح وضرورة البدء فيه فوراً، ويحددون مناهجهم، ويتحدثون عن أولوياته وخطواته، ويختلفون في ذلك كله دون أن يخطِّئ بعضهم بعضاً، أو يلوم أحد منهم أحداً. لكنهم يجمعون بلا خلاف بينهم على رفض خطط الإصلاح الأجنبية لما تؤدي إليه من استمرار الاستتباع والهيمنة لقوى الخارج على قوى الداخل. والنظرة الوطنية التي تقبلها جماهير أمتنا هي التي تدعو إلى استقلال قرارنا السياسي والاقتصادي الذي لا يكون إلا بإصلاح يلبي الآمال والمطامح المشروعة ويصون للأوطان استقلالها ويحفظ لها كرامتها ويحول بينها وبين أن ترتهن من جديد للقوة الواحدة المهيمنة اليوم، أو تقتسم غداً بين قوى تتنازع الهيمنة على العالم والسيطرة على دوله وشعوبه.

وشعار هؤلاء الإصلاحيين الوطنيين هو قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود:88).

والحمد لله رب العالمين. ■

هوامش:

1. العلامة الشيخ محمد مصطفى شلبي، الفقه الإسلامي بين المثالية والواقعية، الإسكندرية، 1960 ص 68-72؛ وأبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأموال، القاهرة، 1969، ج2 ص 296؛ والسهيلي، الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام، ج2 ص17؛ ومحمد حميد الله الحيدر أبادي، الوثائق السياسية ص 39-47.
2. الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، دار القلم والدار الشامية، ط الثانية 2002، بتحقيق صفوان داوودي، ص111 و619؛ الفيروز أبادي، بصائر ذوي التمييز، وزارة الأوقاف المصرية، ط الثانية 1986، بتحقيق محمد علي النجار، ج2 ص216.
3. سيد قطب، في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1971، ج13 ص 78.
4. سيد قطب، المصدر السابق.
5. سيد قطب، المصدر السابق، ج9 ص583.
6. سيد قطب، المصدر السابق، ج10 ص 36-37.
7. محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، ط بولاق 1328هـ، ج13 ص 81.
8. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر (مصورة عن ط دار الكتب) 1967، ج9 ص294.
9. ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط وزارة الأوقاف المغربية 1981، ج8 ص93.
10. بيان صادر من 34 منظمة غير حكومية في 14 دولة عربية بتاريخ 2004/5/26 بعنوان «القمة العربية تصوت لصالح الإصلاح من الخارج»، وزعه في مصر مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان.
11. الهرج كثرة القتل، كما في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج، قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟ قال: «القتل القتل». وهو في البخاري، ط دار السلام، الرياض 1997، برقم (7037) وفي مسلم، ط بيت الأفكار الدولية، الرياض 1998، برقم 2888.
12. محمد سليم العوا، في النظام السياسي للدولة الإسلامية، ط الثامنة، دار الشروق 2006، ص 177 وما بعدها.
13. تفسير القرطبي، المصدر السابق، ج4 ص249-251؛ والفخر الرازي، مفاتيح الغيب، القاهرة (د.ت)، ج3 ص 120-122؛ محمد سليم العوا، الفقه الإسلامي في طريق التجديد، ط الثالثة، سفير الدولية للنشر 2007، ص 121 و126.
14. في تفصيل هذا المعنى وتأصيله انظر: محمد سليم العوا، المصدر السابق، ص 126-128.
15. القرطبي، المصدر السابق، ج9 ص115
16. سيد قطب، المصدر السابق، ج12 ص633.
17. برهان غليون ومحمد سليم العوا، النظام السياسي في الإسلام، دار الفكر بدمشق 2004، ص 109.
18. برهان غليون ومحمد سليم العوا، المصدر السابق.
19. رواه أبو داود والترمذي عن عائشة رضي الله عنها، وهو في صحيح سنن أبي داود للألباني برقم 236؛ وفي صحيح الترمذي برقم 113، وقال الإمام الخطابي في شرحه إن «فيه من الفقه إلحاق حكم النظير بالنظير».
20. الحديث متفق عليه واللفظ هنا لمسلم، ج2 ص 37، من الطبعة المصرية بشرح النووي.
21. العلامة محمد شمس الحق العظيم آبادي، عون المعبود بشرح سنن أبي داوود، دار الكتب العلمية بيروت 1990، ج1 ص 275؛ والعلامة الشيخ محمود خطاب السبكي، المنهل العذب المورود، ط الأولى 1351هـ، القاهرة، ج2 ص 233.
22. محمد سليم العوا، الإسلاميون والمرأة، دار الوفاء 2000، فصل المرأة وممارسة العمل السياسي وفصل المشاركة في العمل العام، ص 26-43. وراجع الجزءين الثاني والثالث من كتاب الأستاذ عبد الحليم أبو شقة رحمه الله، تحرير المرأة في عصر الرسالة، دار القلم بالقاهرة، ط الرابعة، 1995. واقرأ بوجه خاص كتاب الدكتور محمد هيثم الخياط، المرأة المسلمة وقضايا العصر، دار سفير الدولية للنشر 2007 فصل: التمييز ضد المرأة، وفصل: دائرة العمل العام.



ميشيل عفلق



عبد الناصر

■■ مثلي مثل كثرة من القراء الذين تجاوزوا سناً معينة شهود حضروا النكبتين الأولى (١٩٤٨) والثانية (١٩٦٧)، ومنذ ذلك الحين عاصرنا ردود الفعل في تفسير كل من النكبتين والصدمات التي أحدثتها كل منهما. وهي تفسيرات متشابهة لكلتا النكبتين. فبعد النكبة الأولى في ١٩٤٨ : صدر كتاب المرحوم قدري طوقان «بعد النكبة»، وصدر لقسطنطين زريق كتاب «معنى النكبة»، وصل به بعد نكبة ١٩٦٧ كتابه «بعد النكبة مجدداً». وفي ١٩٦٧ صدر كتاب لوليد قمحاوي بعنوان «النكبة والبناء»، وخلاصة تفسير النكبتين أو النكبة الأولى على الأقل في تلك الأدبيات تركز على غياب الحداثة وعلى الفجوة العلمية والثقافية والتكنولوجية بين العرب وإسرائيل، وعلى التفرق العربي - فقد قيل في النكبة الأولى أن السبع دول عربية هزمت لأنها سبع دول عربية فلو كانت دولة واحدة لما كانت انهزمت.

وفي ١٩٦٧ بقيت هذه التفسيرات صحيحة بل ازدادت إسهابا وأضيف إليها بعد التحليل الاجتماعي. فخرجت كتابات أذكر منها «نقد الفكر الديني» للدكتور صادق جلال العظم الذي تضمن نقداً اجتماعياً لظواهر الاعتقاد والخرافات ولعيوب أخلاقية مسلكية اعتمد في وصفها على دراسات عالم الاجتماع المصري حامد عمار التي تناولت بالتحليل مثلاً ظاهرة «الفهلوة»، وذلك حين يحاول الشخص تحقيق نتائج والحصول على عوائد أو مكافآت دون بذل الجهد اللازم لتحقيقها. واستمر هذا المنحى النقدي للبعد الاجتماعي إلى أن اتصل بتأملات هشام شرابي في المجتمع العربي وتحليله ظاهرة الأبوية أو الأبوية الحديثة. من إسهامات هشام شرابي أيضاً تناوله «لعيوب التربية الأسرية» خصوصا لمرحلة ما قبل المدرسة الطفولة المبكرة، فكان أول من لفت النظر إلى ضرورة الاهتمام بها لخطورة أثرها على تكوين شخصية المواطن أو المواطنة وبالتالي على بناء المجتمع والأمة.

واستمر أيضاً إلقاء اللوم على التفرق والتبعثر العربي الذي ثابر على منحاه المتدني بل المعن في الانحدار إلى أسفل بعد فشل الوحدة المصرية السورية، والتي تم إثرها تجيير الفشل في ١٩٦٧ إلى إدانة فكرة القومية العربية والاهتمام ببناء الدولة القطرية.

من جهة المفاهيم المتعلقة بالقومية العربية، تميل بعد التجربة الطويلة إلى الظن بأن نظرة الدول العربية المحافظة في هذا الموضوع، لولا الشك في إخلاصها، كانت أكثر صوابا من نظرة الحركات التقدمية والدول التقدمية، إذ أن مفاهيمها ركزت على بناء الدولة القطرية والنظر للبعد العربي من منطلق التعاضد والتعاون وليس التوحد، على الأقل مرحلياً. لكن أنظمة الدولة القطرية بحكم غياب الديمقراطية فيها تصدت للفكرة القومية لأن هذه الأنظمة لم تنبثق عن إرادة الجماهير المعبرة عن مصالحها المصيرية القومية بطبيعتها.

من جهة أخرى، فإن نصيباً من اللوم في غياب الديمقراطية يقع على الأحزاب والحركات السياسية الداعية للفكرة القومية ذاتها. فبرامج تلك الأحزاب والحركات وتنظيرها للفكرة القومية شملت أبعاداً عديدة وحرصت على شعارات شتى، ولكن ليس منها الحرص على المكون والمركب الديمقراطي، لا فيما يتعلق بالمجتمع ولا حتى فيما يتعلق بالأنظمة الداخلية لتلك الأحزاب والحركات.

في المناخ المذكور بقيت الأنظمة القطرية تجد مصالحها في العلاقات العمودية مع دول المركز الصناعي في أوروبا وأمريكا والتي تعود في نشأتها إلى عهد التبعية الكولونيالية. هكذا كان تكوين الدولة القطرية. ولقد شهد جيلنا نشأة الحركات القومية التي تصدت للدولة القطرية، لكن هذه الحركات القومية، افتقرت إلى النضج والحكمة في عملها السياسي، فكان كل ما فعلته هو

العرب.. بين أيد



حسن نصر الله



حسن البنا

أنها شككت وطعنت في شرعية الأنظمة القطرية دون أن يكون لها القدرة على تغيير هذه الأنظمة ودون أن تخطط لبناء هذه القدرة، فكان كل ما نجحت فيه هو بعث الحساسية الأمنية لدى الأنظمة ضد حركات التغيير. تأسست هذه النظرة غير الناضجة مع تبني مصر الناصرية للحركة القومية العربية وسعيها إلى نصرة هذه الفكرة والسعي إلى الوحدة العربية عن طريق التصدي للدول القطرية بأساليب المجابهة والصدام وتشجيع الانقلابات بدلاً من انتهاج طرق الإقناع والعمل الدبلوماسي المستند إلى وزن مصر المعنوي القائم ليس فقط على موقع مصر الجغرافي المركزي من الوطن العربي، وليس فقط على مساحتها وحجمها السكاني، بل أساساً على مكانتها الحضارية الإنسانية والعربية ونفوذها التربوي والثقافي والفني والإعلامي..إلخ - فبدلاً من أن تبني سياساتها الخارجية وتعاملها الدبلوماسي مع الأقطار العربية على هذه المكانة وعلى ذلك الوزن المعنوي اختارت أن تقيمها على أساليب الهيمنة. ولم يكن ذلك بغريب، لأن تلك الأساليب في سياساتها الخارجية كانت من جنس الأساليب القمعية التي سادت ممارساتها الداخلية وهي ذاتها التي نخرت في مناعتها ضد عدوان ١٩٦٧ .

لم تقتصر أسباب فشل الفكر والحركات القومية العربية على غياب الحذق والاحتراف في عملها السياسي بل شملت ضعف أو غياب المكوّن الديمقراطي في مفاهيمها وممارستها، هذا المكوّن كان مستبعداً في الدولة القطرية ومستبعداً من الفكرة القومية العربية على حدٍّ سواء. وترسخ ذلك من خلال انخراط العسكر في السياسة والحكم. وكان من أسباب الفشل أيضا ضعف المكوّن الأخلاقي والمناقبي الذي تميزت به حركات سياسية أخرى منافسة للحركات القومية العربية وإن لم تكن متناقضة معها، وهي بعض الحركات الإسلامية من جهة وحركة القوميين الاجتماعيين من جهة أخرى. فقد تميزت الحركات الإسلامية أو معظمها، وكذلك الحزب القومي السوري أو القومي الاجتماعي بالاهتمام بالأخلاق الشخصية والمناقب لمنتسبيها بقدر اهتمامها بقدرة هؤلاء المنتسبين على ترديد الشعارات وتقديم الخدمات اللوجستية.

في المقابل، شهد المحيط العربي على المستوى الاقتصادي والاجتماعي تراكما كمياً هائلاً في مجالات الصحة والتعليم ومخرجاتها مما يهيئ مواد خاماً كثيرة للتحديث الحقيقي والفعل السياسي الحقيقي لولا أن ذلك التراكم الكمي لم يقابله أي جهد من أي جهة ولا من أي طرف قطري أو قومي أو حركات سياسية من أجل البناء الحقيقي للأمة، بما في ذلك بناء التماسك الاجتماعي والمواطنة.

في رواية شهيرة، هي رواية هربرت ج ويلز H. G. Wells آلة الزمان Time Machine (1866-1946)، حين يرتحل البطل إلى المستقبل راكباً آلة الزمان يجد أن البشرية قسمت إلى قسمين بعد حرب كارثية أصابت الكوكب الأرضي، قسم من البشر اتقى الحرب بالاختباء تحت الأرض وتنظيم حياته في ظلمات الأنفاق كمجتمع صناعي متقدم. واستمر هذا حالهم لأجيال عديدة فقدوا خلالها القدرة على احتمال ضوء النهار فلا يخرجون من الأنفاق إلا في الليل. وتحولوا إلى كائنات متوحشة ضمن مجتمع مستغل وظالم يعمل على استغلال البشر الذين بقوا فوق الأرض. وهم عبارة عن بشر في هيئاتهم الخارجية ولكنهم قطيع من الغنم في سلوكهم الاجتماعي سوى أنهم قادرون على النطق والكلام أثناء انصرافهم إلى حياة الدعة من أكل أو شرب أو مرح أو مجرد ممارسة الكسل في الحدائق الغناء التي أينعت بعد تلاشي آثار الحرب الكونية. إلى أن يدعوهم في المساء نفير في مراكز تجمع يمشون إليه كالمنومين حيث يفترسهم سكان الأنفاق

يولوجيتين !

طاهر حمدى كنعان

للموضوع المطروح جانبان: جانب قراءة الماضي، وجانب قراءة المستقبل. قد يكون المفتاح لهذه الكلمة هو حديث بعد حرب العبور جرى بين محمد حسنين هيكل وكيسنجر وكانا بصدد نقاش الوضع السياسي بمحاذاة حرب ١٩٦٧، فقال كيسنجر لهيكل: اسمع. تريد أن نتوصل إلى كلام منتج؟ إذن لا تحدثني عن الماضي ولا تقول البارحة أو في تلك السنة ١٩١٩ وتلك السنة ١٩٤٨، حدثني ما يتعلق بالآن وغداً، كذلك لا تحدثني عن بلد أو جهة غير مصر! هذه المبادلة الكلامية تلخص زبدة النظرة الإسرائيلية للقضية الفلسطينية.

للغذاء وربما للكساء أيضاً! وفي أحد مشاهد الرواية يحدث أن بطل الرواية المرتحل من الزمان الماضي يشاهد إحدى الفتيات من بشر «فوق الأرض» تزل قدمها فتسقط في النهر، ولدهشته البالغة يرى أن رفاقها، من كانت معهم تركض وتمرح منذ قليل، ينظرون إلى سقوطها وإشرافها على الغرق بكل عدم الاكتراث المتصور، وكأن شيئاً لم يحدث! وسرعان ما أدرك البطل أنه لا يوجد بين أفراد هذا «القطيع» من البشر أي رابط، فعندهم أشكال البشر دون أن تكون بينهم أي وشائج اجتماعية أو عاطفية تربط أي فرد منهم بأي فرد آخر، وبالتالي فهم منفردون ليكونوا صيداً سهلاً جداً للسكان الموجودين تحت الأرض الذين يخرجون في الليل ويصيدونهم ويذبحونهم مثل الغنم ويأكلونهم. على مثال ذلك في عصرنا الحاضر وظروفنا الراهنة نرى أن الرابط الاجتماعي أو التعاطف الإنساني الذي يجعل الفرد يضحي من أجل المجموع هو الغائب الأكبر في المجتمع الاستهلاكي الكومبرادوري الذي تبشر به عقيدة التخاصية الرائجة حالياً.

الواحات القليلة أو النادرة في صحراء الانحلال الخلقي الذي يعم معظم العالم العربي تكاد تقتصر على بعض الحركات الإسلامية ومنتسبيها، الذين بالإضافة إلى تميزهم عموماً بأخلاق كريمة ومناقب جيدة مستعدون للتضحية حتى بالحياة ذاتها في سبيل مثلهم العليا، وأهلهم هذا للانخراط في التيار المقاوم للاحتلال الإسرائيلي والهيمنة الأمريكية ولأن يصبحوا جزءاً حاسماً من الجماهير الشعبية لهذا التيار. فيما عدا هذه المزايا فإن هذه الحركات، باستثناء واحدة سنذكرها بعد قليل، تكاد تكون بمعزل ناء عن العصر الحديث ومقتضياته وأساليبه في العمل السياسي والنضالي المنفتح الناضج. لكني أسارع إلى القول أن اللوم ليس عليهم! اللوم على كل النخبة المثقفة التي اتصلت بالغرب واستحضرت أيديولوجيات الغرب المتنوعة من ماركسية وشيوعية ووجودية... إلخ، وشاذ الأيديولوجيات صارت هي التي تحرك الثقافات السياسية لمعظم الحركات السياسية بحيث يعرف منتسبوها عن ماركس وهيجل أكثر مما يعرفون عن الفروق بين ابن خلدون وابن تيمية أو بين ابن رشد وابن عربي أو أي من الرموز البارزة في التاريخ الإسلامي. تصرفت الحركات والأحزاب القومية واليسارية والتقدمية بعامة، وهي المعتلة للنخبة الناشطة سياسياً، دون اكتراث بالحركات الإسلامية إلا في نطاق اعتبارات المنافسة السياسية الضيقة، وكأنه لا يوجد ٢٠٠ مليون عربي لهم دين وتصلي الكثرة منهم خمس مرات في اليوم، ويؤمون المساجد، ويدينون بعقيدة اسمها الدين الإسلامي. وكأن ليس هناك قضية اسمها تصالح الدين مع العصر والحداثة مطلوب منهم التعامل معها. فبقوا في معزل وكأن هذا لا يعنيهم، فهذه النخبة التي اشتغلت بالسياسة لا يعنيها أن معظم الناس في هذا الوطن مسلمون.

الاستثناء في هذا الظلام الدامس هو حزب الله في لبنان، فعندما نتكلم عن حركات تحرر وطني نقول فيتنام وما فعلته فيها أمريكا، وما فعلت هي في أمريكا. ولكن هذا المثال مثال أجنبي غير قابل للتقليد عندنا. حركة تحرير فيتنام وحركات التحرير في أمريكا اللاتينية، رغم إعجابنا الشديد بها، لم تحدث أثراً يذكر على مسلكيات النخبة في أي قطر عربي كونها غريبة عنا وظروفها مختلفة عن ظروفنا.

ولكن فجأة، ينبثق في وطننا العربي، بل في جزء صغير، في لبنان هذا الجزء الصغير، وكما ينبلج الفجر وينفلق الإصباح، يأتي حزب الله، وهو من الخامة الشعبية ذاتها في كل قطر عربي، يأتي ليضرب المثال الهائل في كيفية التعامل مع العدو الإسرائيلي وردعه وصد عدوانه. وأستبق بعض من صادفتهم يبخسون هذا المثال بقولهم: صحيح، عمل حزب الله عملاً عظيماً ولكن بأي ثمن وبأية كلفة؟ هنا أعترف بذهولي الشديد حين أجابه بهذا السؤال. ما معنى السؤال عن «الثمن» يوجه لمن يضحون بحيواتهم ذاتها؟ إن من تؤرقه الكلفة ويسأل عن الثمن هو من لم يناضل ومن لم يساند المناضلين! من دفع الثمن ليس صاحب هذا السؤال، بل هو المقاوم الذي استشهد وترملت زوجته وتيتم من لم تقتله القنابل العنقودية من أبنائه، هو من انهدم بيته تحت القصف وتشردت عائلته، مواطن مقهور يضحي بحياته ولا يبالي بالثمن، وآخر يحسب أحجار الجسور المهدمة والنقود ويقول: ما فعلته المقاومة عظيم، ولكن كم كانت الكلفة؟ عقلية البازار هذه والمتصلة بنفسية الهزيمة هي التي جعلتنا، حين فوجئنا بهذا الاستثناء المتمرد على الهزيمة والخنوع، يصيبنا الهلع فنبادر إلى وضع هذا الاستثناء في «كرانتين» أو «عزل صحي» نقيم حوله ستاراً كثيفاً من التشويه والتجريح، ونحيطه بالحرب السنية الشيعية والمذهبية وجند الشام وفتح الإسلام وقصص لا ندري من أين جاءت ولا من أتى بها!

ولكن لماذا أصر على تسمية أداء حزب الله بالاستثناء؟ ذلك ببساطة بسبب مميزاته التالية:

- لأنه ظاهرة تتفوق بكل مقياس على كل ما شهده تاريخنا الحديث من تصدٍّ لواقع التخلف والهزيمة والانحلال الخلقي.

- لأنه أحدث في المجتمع المحلي في جنوب لبنان تماسكاً اجتماعياً على النقيض المطلق من قطيع إتش. ج. ويلز في آلة الزمان. وعزز الحزب هذا التماسك الاجتماعي بالتنظيم المؤسسي المتفوق للخدمات الاجتماعية من صحة وتعليم وإسكان، فمستشفى الرسول الأعظم في ضاحية بيروت الجنوبية يضاهي في مستوى خدماته، بل يتفوق في بعض الاستعدادات التقنية، على مستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت.

- لأنه ضرب الأمثال في التضحية بمداها الأقصى ومعناها الأنبل وهو الاستشهاد في القتال مع نخبة الجيش الإسرائيلي، لواء جولاني، وليس بالانتحار المجاني وسط المدنيين. ويشارك في التضحية بمستوياتها المختلفة جميع الشعب المجند في مجتمع الجنوب، لمجابهة الشعب المجند عند العدو الإسرائيلي!

- لأنه أبدع في التخطيط للاستعداد والاستخبار وإدارة الحرب واستيعاب السلاح والتكنولوجيا حتى حدودها القصوى القاطعة. وفعل كل ذلك مع إثبات المتانة الخلقية والمناعة العصية على اختراقات العدو الاستخباراتية وجواسيسه وطابوره الخامس.

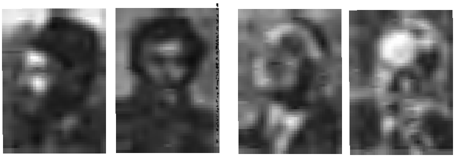
- لأنه فعل كل ذلك: بنفس طويل هادئ ورأس كالجبال، وتحلى بالحلم مع الاقتدار، (ما سيأتي بيانه بعد قليل). والتزم أعضاؤه بالتقوى والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، مصداقاً للذكر الحكيم: «والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر».

هذه الظاهرة الاستثنائية، ظاهرة المقاومة الرادعة من خلال تجنيد الشعب، لا يمكن أن تكون مقبولة للأعداء من قوى عالمية وقوة إسرائيل الإقليمية. لذلك ما فتئ هؤلاء الأعداء يبذلون كل الجهود لفرض الحصار الفكري والإعلامي والمذهبي والعاطفي لمنع انتشار هذا المضاد الحيوي والقضاء عليه قبل أن ينتشر في سائر أوصال الجسم العربي وأوعيته الدموية فينتعش هذا الجسم ويستفيق من غيبوبة طال أمدها.

هذا عن تجربة الماضي! أما عن رؤية المستقبل فقد رسمها لنا أحد عباقرة الإستراتيجية في تاريخ الفكر الاستراتيجي الحديث منذ عام ١٩٤٧ يقول:

«إن الشخصية السياسية للقوة الإسرائيلية كما عرفناها حتى الآن هي نتاج العقيدة الصهيونية من جهة والظروف التاريخية من جهة أخرى. العقيدة ورثها قادة إسرائيل الحاليون في ٤٧ من الحركة التي تعود إليها أصولهم السياسية، والظروف هي ظروف القوة التي ما برحوا يمارسونها طيلة العقود الماضية، ومن العقيدة الأصلية نجد أنه

إن نصيباً من اللوم في غياب الديمقراطية يقع على الأحزاب. فبرامج تلك الأحزاب شملت أبعاداً عديدة وحرصت على شعارات شتى، ولكن ليس منها الحرص على المكوّن والمركب الديمقراطي



ما من شيء قد تم نبذه، العقيدة ما زالت هي ذاتها بأن أرض فلسطين يهودية وأن التخلص من الفلسطينيين الطارئين على هذه الأرض أمر حتمي والتأكيد على عدد من المفاهيم التي تتعلق تحديدا بإسرائيل نفسها على اعتبارها الملجأ الأمن الوحيد لليهود في عالم يبغض اليهود وبعلاقات القوى داخل إسرائيل. الأول من بين هذه المفاهيم هو التناقض المتأصل بين العقيدة الصهيونية من جهة والحقوق الفلسطينية والقومية العربية من الجهة الأخرى، ولهذا المفهوم مضامين عميقة فيما يتعلق بسلوك إسرائيل على الصعيد الدولي وهو يعني استحالة أن تفترض تل أبيب جديا وجود أهداف مشتركة بينها وبين الدول العربية التي تعتبرها إسرائيل قومية التوجه.....».

هذا الموقف الإسرائيلي في رأي هذا المفكر الاستراتيجي «سوف يتواصل طيلة المستقبل المنظور. وقد تظهر بعض التباينات في تجليات هذا الموقف لاسيما حين يريد الإسرائيليون أن يحصلوا على تنازلات معينة من العرب يمكنهم أن ينحوا جانبا ولفترة مؤقتة بعضا من مظاهر سياساتهم مخفين مؤقتا نواياهم العدوانية الحقيقية، وحين يحدث ذلك نجد هناك دائما فلسطينيين وعربا يقفزون إلى الواجهة معلنين بتواجد فرحة أن الإسرائيليين قد تغيروا بل إن بعضهم سيحاول ادعاء الفضل في أنهم هم الذين أحدثوا مثل هذا التغيير ولكننا يجب ألا نسمح لهذه المناورات التكتيكية لتضليلنا فهذه الخصائص التي تسم السياسة الإسرائيلية مثلها مثل المعطيات التي تنبثق منها هي من صلب الطبيعة الداخلية للسياسة الإسرائيلية وستبقى مستمرة معنا سواء كانت في الخلفية أو المقدمة إلى أن تتغير الطبيعة الداخلية للصهيونية والقوة الإسرائيلية».

هنا يصل العالم الاستراتيجي إلى المفهوم الثاني من المفاهيم المهمة في النظرة الإسرائيلية المعاصرة ألا وهو «شعب الله المختار المعصوم عن الخطأ»، «فالمفهوم الإسرائيلي للقوة الذي لا يسمح بوجود بؤرة تنظيمية خارج الحركة الصهيونية ذاتها يتطلب أن تظل القيادة الصهيونية المستودع الوحيد للحقيقة. على قاعدة مبدأ «المعصومية» هذا ينهض الانضباط الحديدي لتجمعات اليهود ضمن الحركة الصهيونية وهكذا ليس ثمة ما يجبر القيادة الإسرائيلية على التراجع في وجه قوة أعظم».

ويسترسل هذا المفكر الاستراتيجي بالقول «من الواضح أنه لا يمكن للفلسطينيين أو العرب أن يدخلوا في المستقبل القريب في علاقة سياسية حميمة مع إسرائيل بل يجب عليهم أن يظلوا على نظرتهم إليها أنها مزاحم وليس شريكًا في الساحة السياسية بحال من الأحوال.... إن هذه الاعتبارات تجعل التعامل مع السياسة الإسرائيلية أصعب من التعامل مع قادة عدوانيين أفراد من طراز نابليون وهتلر. وفي هذه الظروف من الواضح أن العنصر الرئيسي في أي سياسة فلسطينية عربية تجاه إسرائيل يجب أن تكون قائمة على أساس احتواء الميول التوسعية الإسرائيلية احتواء بعيد المدى صبورا ولكنه أيضا حازم ومثابر».

«إن الضغوط الإسرائيلية على المؤسسات الحرة في العالم الغربي هي أمر ممكن احتواؤه من خلال إدخال قوة مضادة بصورة دعوية ونشيطة على كل موقع يحتله النفوذ الصهيوني في ساحات العالم الجيوسياسية وبما يوائم التغيرات ويحبط المناورات في السياسة الإسرائيلية، ومن الممكن مواجهة إسرائيل بصورة ناجعة لا من خلال أعمال متفرقة تجسد الأهواء المؤقتة لهذه الدولة العربية أو تلك، بل فقط من خلال سياسات ذكية طويلة الأمد يقوم بها الفلسطينيون والعرب وجميع المناهضين للسياسات العنصرية الإسرائيلية، سياسات ينبغي ألا تقل حذقا عن سياسات إسرائيل من حيث الثبات على الهدف ومن حيث غنى وثراء وسائل التطبيق».

الذي نصح الفلسطينيين والعرب بهذه الاستراتيجية هو جورج كينان George Kennan حين كتب في المجلة الشهيرة «فورن أفيرز Foreign Affairs» في عام ١٩٤٧ في مقالة مغفلة التوقيع عرفت فيما بعد بالمقالة «س» «Article X» إلى أن أعلن عن اسم كاتبها في وقت لاحق. في هذه المقالة ما على القارئ إلا أن يستبدل عبارة «إسرائيل» بعبارة «الاتحاد السوفيتي»، وعبارة «الصهيونية» بعبارة «الشيوعية» من جهة، وأن يستبدل، من جهة أخرى، عبارة «الفلسطينيون والعرب» بعبارة «أمريكا والغرب» حيثما وردت تلك العبارات في المقالة، حتى يجد تطابقاً مذهلاً بين الاستراتيجية الصالحة في رأينا للفلسطينيين والعرب في مواجهة إسرائيل والصهيونية، للأسباب ذاتها التي بموجبها قام جورج كينان بصياغة استراتيجية «الاحتواء» الصالحة في رأيه لكي تنجح أمريكا والغرب في المواجهة القائمة حينذاك تجاه الاتحاد السوفيتي، عندما كان الغرب، بوجود القوة النووية السوفيتية، غير قادر على محاربة الاتحاد السوفيتي بالحرب الساخنة، وحيث التفوق العسكري عند أي من الطرفين غير مجد بوجود القوة الرادعة، ولو لم تكن متفوقة، عند الطرف الآخر. فنتج عن ذلك أن تبنى الغرب استراتيجية «الاحتواء» طيلة الحقبة التي امتدت منذ أعلن تشرتشل بعد الحرب العالمية الثانية أن «ستاراً حديدياً» يتعين إسداله على الاتحاد السوفيتي ومعسكره، إلى أن نجح الاحتواء وإطاره من «الحرب الباردة» في إحداث «الانفجار الداخلي» implosion في ذلك المعسكر وقاد إلى انهياره.

ولقد شرع العرب غريزياً بعد هزيمة ١٩٦٧ بتبني استراتيجية «الاحتواء» من خلال لاءات الخرطوم (لا اعتراف بإسرائيل ولا مفاوضات ولا صلح). وإلى الدرجة التي كانوا فيها جديين في هذه السياسة حققوا نجاحات في إقامة عزل عالمي أو ستار حديدي على إسرائيل شمل معظم دول العالم الثالث وتكلل بتصويت الجمعية العامة للأمم المتحدة بغالبية أعضائها على مساواة الصهيونية بالعنصرية. لكن تلك السياسة الناجعة والتي كانت ستنتهي حتما بتآكل المشروع الصهيوني وانهياره لولا أن الوهن أصاب العزيمة العربية ونخر في التضامن العربي بعد حرب ١٩٧٣ ففقدت الأنظمة العربية الجدية في المثابرة على سياسة الاحتواء، واستسلمت للإرادات الخارجية التي منحتها ضمانات للاستمرار والبقاء في السلطة ولو على حساب مصير الوطن والأمة، إلى أن وجدت أن الأفضل من استراتيجية الاحتواء هو سياسة السلام الذي اعتبرته «خيارها الاستراتيجي» الذي أصبح أساس «المبادرة العربية». وبهذه المناسبة اكتشفت أن أبو الطيب المتنبي له رأي بالمبادرة العربية جاء به في قصيدته التي مطلعها:

لا افتخار إلا لمن لا يضام . مدرك أو محارب لا ينام

وكان قد نمي إليه خبر أن الفارس الفلاني شج رأس الفارس العلاني فلم يرد عليه هذا الأخير ولم يكل له الصاع صاعين، بل أخبر الجميع أنه سوف لا يفعل أي شيء من هذا القبيل بحجة أنه ملتزم بالصبر والحلم وبأن السلام خياره الاستراتيجي! فقال المتنبي:

كل حلم أتى بغير اقتدار
حجة لاجئ إليها اللئام
من يهن يسهل الهوان عليه
ما لجرح بميت إيلامُ

وقد حدث أن صديقاً لي استشهد بهذين البيتين في مقالة له في إحدى الصحف الواقعة ضمن نفوذ إحدى الدول الرائدة للخيار الاستراتيجي في السلام. فحذف البيت الأول بحجة أنه لا يجوز وصف أصحاب المبادرة العربية باللئام! ورغم أني لا أدري لماذا اختار هؤلاء الاعتراف بأن حلمهم وخيارهم الاستراتيجي في السلام هو حلم أتى بغير اقتدار! لكن من باب التقدير لفضيلة الاعتراف بالذنب قمنا بتحوير بيت المتنبي ليقرأ: كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لا يدعيها الكرام. ❁

الواحات القليلة في صحراء الانحلال الخلقي تكاد تقتصر على بعض الحركات الإسلامية ومنتسبيها، فهم بالإضافة إلى تميزهم بأخلاق كريمة مستعدون للتضحية حتى بالحياة ذاتها في سبيل مثلهم العليا

إيرانية في الفضاء يوميات

أنوشة أنصاري

أهمية هذه اليوميات أن كاتبتها امرأة من هذا الشرق، كانت تحلم طوال حياتها بالطيران حتى تحقق الحلم. أنوشة أنصاري هي أول سائحة إيرانية أمريكية في الفضاء. كيف رأت كوكب الأرض من بعيد وكيف كان شكل السماء والنجوم؟ وماذا يعني انعدام الوزن؟ وماذا كانت مشاعرها وهي تقوم بهذه المغامرة؟

كتبت هذه المرأة الجريئة مذكراتها وهي في الفضاء وكانت ترسلها أولاً بأول للنشر في مدونة أسمتها (مدونة الفضاء spaceblog). هذه لبضعة أيام فقط من أيام عديدة قضتها بعيداً عن الأرض تتفرج من نافذتها على العالم وهو يمر بها.

الطريق إلى بيكونور
2006/9/8

هذه أول يوميات أكتبها في حياتي فأنا في العادة شخص منطو على نفسه ولكن بسبب ما حدث في حياتي أشعر بالتزام أن أشارك هذه التجربة مع كل الناس.

كما قد تعرفون أنا الآن في حالة تسمى (space lingo) أي (ما قبل الفضاء وقد بقي لي ٩ أيام على الانطلاق) وأنا الآن في منطقة الحجر في مدينة بيكونور في كازاخستان منذ ٢٠٠٦/٢/١١.

أرسل لكم صورة لتشاركوني الإحساس في المكان الذي أعيش فيه الآن وهو نفس المكان الذي انطلق منه أول رجل فضاء الروسي يوري غاغارين قبل ٤٥ سنة. أيضا نفس المكان الذي انطلقت منه أول رائدة فضاء فالينتينا تريشكوفا في عام ١٩٦٣.

منذ تلك الأيام الأولى للانطلاق إلى الفضاء ترسخ تقليد أن كل رائد فضاء يزرع شجرة حين يعود. وأتمنى أن أزرع شجرة أيضا حين أعود. وفي الصورة تجدون الأشجار التي زرعها رواد الفضاء منذ ذلك التاريخ في المدينة الصحراوية بيكونور.

والآن أنتم تعرفون أين أنا. ويبقى أن أقول لكم لماذا أنا هنا.

منذ زمن قديم قديم، في بلاد بعيدة.. كان هناك فتاة صغيرة تحدق في النجوم اللامعة في سماء ليل طهران. حينذاك لم يكن الهواء ملوثا كما هو الآن وكنت تستطيع أن ترى النجوم بوضوح. في أيام الصيف حين كانوا ينصبون الأسرة في الشرفة كانت تستلقي في سريرها وتحدق في عمق ظلام الكون الغامض وتفكر: ماذا هناك؟ هل هناك بنت مثلها هناك تحدق فيها في هذا الليل؟ هل سوف يلتقيان.. هل تراها. هل يمكن أن تطير إلى هناك وتسبح في الفضاء الرائع الحر بلا حدود؟

حسنا. لقد حقق القدر لها أمنيتها.

لو كنتم قد سألتم تلك الفتاة الصغيرة: هل تريدين أن تطيري إلى الفضاء لقالت بحماسة نعم! ولو سألتموها: هل تعتقدين أنك سوف تطيرين؟ لقالت بكل أمل نعم! والآن اقتربت تلك اللحظة.

ولدت في إيران وعشت حتى بلغت سن السادسة عشرة ثم هاجرت مع عائلتي إلى الولايات المتحدة الأمريكية ودرست الهندسة الكهربائية، وكنت محظوظة في تحقيق حلمي.

لا تفهموني خطأ.. فالطريق إلى بيكونور لم يكن سهلا وإنما كان حافلا بالعراقيل. ولكن المهم أني عقدت العزم على تحقيق الحلم ولم أضيع طريقي.

أتمنى أن تلهم رحلتي كلا منكم لتحقيق أحلامكم مهما كانت مستحيلة. وآمل كذلك أن أريكم الكون/الفضاء من خلال عيني وأساعدكم لتروا أهمية استكشاف الفضاء للجنس البشري. نحتاج إلى عقول شابة قادرة على الخيال للتحليق في السماء ومساعدتنا في بناء مستقبل غير مقيد بحدود الأرض.

اليوميات كاملة على موقع:
http://spaceblog.xprize.org/by-anousheh

ترجمة: بثينة الناصري

الساعات الأخيرة قبل الانطلاق
2006/9/17

من الصعب أن أصدق أني هنا. كل شيء يبدو مثل ضباب.

من الصعب توضيح مشاعري.. خليط غريب من الإثارة والقلق. ومن الغريب أن قلقي يدور حول الذين سوف ينتظرونني هنا على الأرض. عائلتي.. أعرف كيف أن الأمر صعب عليهم. ويجب أن أعترف أني لا أشعر بالمتعة في هذه المرحلة أبدا. أريد أن تنتهي عملية الإطلاق بسرعة وأبدأ بالطواف في الفضاء العظيم.

أتصور أني حين أبدأ بالسباحة في الفضاء سوف أشعر بالحرية من كل المخاوف والقلق والتوقعات.. سوف أكون أنا فقط.. حرة من كل شيء.

في انتظار هذه اللحظة الرائعة لانعدام الوزن، أشعر بكل شيء هنا ثقيلا.. أشعر بضغط الهواء الذي أتنفسه على صدري وهو يزداد ثقلا. مثل الشعور وأنت في عيادة الطبيب تنتظر نتيجة التحاليل.

الكل أخبرني بأن جريج اولسون كان هادئا بشكل لا يصدق يوم انطلاقه. وقد سألت جريج كيف حافظ على هدوئه فقال انه حين كان جالسا هناك داخل المركبة سويوز كان على يقين من انه سوف يطير ولن يستطيع أحد أن يمنعه. لا مزيد من أطباء أو اختبارات أو مراسيم.. إني على أحر من الجمر لبلوغ تلك اللحظة.

توقفت عن الكتابة وذهبت لزيارة عائلتي. كانوا كلهم هنا. وحالما رأينا بعضنا الآخر من خلف الزجاج انهمرت دموعنا. كان الموقف صعبا على الجميع. أختي أتوسة كانت تحاول جهدها لتبدو قوية وتقاوم دموعها ولكن بلا فائدة. وحين انتهينا من البكاء، استمررنا في الحديث وإلقاء النكات وشعرت بالارتياح يعم الجميع، وبضمنهم أنا فقد زال قلقي الذي لازمني منذ الصباح.

أعرف أني سوف أعود سريعا وأني سوف أحتضنهم جميعا وأقص عليهم حكايات رحلتي. كان زوج أختي أمير منهمكا في تصوير وتسجيل كل الحدث أما زوجي حامد فقد تصرف وكأنه منسق المجموعة من أجل أن يبعد فكره عن الرحلة. نظرت في عينيه ورأيت مزيجا من الحب والإعجاب والقلق.

ودعنا بعضنا حيث لن أستطيع أن أراهم إلا بشكل خاطف وأنا في طريقي إلى الصاروخ. الساعة الآن السابعة مساء حسب توقيت بيكونور وكان من المفترض أن أنام قبل ساعة. سوف يأتون لإيقاظنا في الساعة الواحدة فجرا للاستعداد وللانطلاق.

أشعر بالهدوء والرضا.. كل شيء سيكون على ما يرام.

أتمنى لكم حياة رغيدة مديدة يا أصدقائي.

[illegible]
2006/9/21

الرحلة كانت طويلة ولكنها تستحق. دعوني أبدأ من البداية. لقد بدأ يومنا مبكرا في بيكونور. استيقظنا في الساعة الواحدة فجرا حسب توقيت المدينة وتناولنا إفطارا خفيفا ثم أعطينا بنطلونات بيضاء طويلة نرتديها تحت زي الفضاء إيذانا بالذهاب إلى مكان الإطلاق.

كانت هناك فترة قصيرة للصلاة والدعاء، ونحن نغادر غرفنا وقعنا بإمضاءاتنا على أبواب الغرف. هذا تقليد بدأ من أيام يوري غاغارين، وهكذا فإن توقيعي موجود الآن إلى جانب توقيع جريج اولسون ثالث مستكشف فضاء وماركوس بونتس أول رائد فضاء برازيلي.

تحدثت مع جدتي بالهاتف حيث إنها لم تستطع أن تأتي إلى بيكونور وتمنت لي حظا سعيدا وعودا حميدا.

ثم سرنا إلى الحافلة التي ستذهب بنا إلى مكان الإطلاق. من فندق كوزمونوت إلى الحافلة مسافة قصيرة ولكن على جانبي الممر كانت العائلات والأصدقاء والصحفيون يلتقطون الصور الفوتوغرافية والأفلام. وفي التماع أضواء الكاميرات البراقة استطعت أن أتبين كل أفراد عائلتي. كانوا قد جاءوا منذ أول طلوع الفجر لتوديعي إلى مغامرتي العظيمة. كانت





أمى تبكى والجميع يحاولون حبس دموعهم.

صعدنا فى الحافلة التى اتجهت إلى مكان الإطلاق. خلال كل هذا الوقت كنت هادئة بشكل يدعو للدهشة. كنت أتوقع أن تنهار أعصابى فى صباح الإطلاق، ولكن لدهشتى لم أحس بأى خوف أو قلق.

بعد وصولنا إلى المكان ذهبنا إلى غرفة لارتداء ملابس الإطلاق. واحدا اثر آخر دخلنا الغرفة: أولا ميشا تيورين ثم مايكل ثم أنا.

بعد انتهاء ارتدائنا الزى ذهبنا إلى غرفة أحد جدرانها من زجاج ليتم فحصنا نهائيا من قبل المسؤولين وللتأكد من عدم وجود تسريب فى الزى. على الجهة الأخرى من الجدار الزجاجى كانت أمى وأختى اتوسة وزوجى حامد يجلسون فى الصف الأمامى وأيضا كانت عائلتا ميشا ومايكل. وكانت الغرفة مليئة بالصحفيين. جلسنا لفترة نلوح بأيدينا ونحاول استخدام لغة الإشارة مع عائلاتنا حيث كانوا يدخلون الغرفة ثم يتركونها لفسح المجال لمجموعة جديدة من الناس.

انتهى فحص متانة الزى وخلوه من التسريب وكنا جاهزين رسميا للانطلاق. أخذونا مرة أخرى إلى الحافلة حيث لوحنا للمرة الأخيرة للجمهور والصحفيين وكان التقليد التالى هو أن تتوقف الحافلة للرجال للتبول، وكان هذا تقليدا بدأ أيضا مع غاغارين ولكنى لحسن الحظ أعفيت منه ولو أنى شاركت فيه بخيالى.

توقفنا عند قاعدة الصاروخ وخرجنا وصعدنا السلم الذى يؤدى إلى مصعد صغير بالكاد يسع ثلاثتنا. ورفعنا المصعد إلى الكبسولة. مررنا داخل خيمة ثم إلى الداخل.

كنت أول من دخل، كنت ما أزال هادئة.. أشعر بالإثارة ولكن هادئة. ولا اعتقد أن نبضات قلبى قد ازدادت وكانت هناك ابتسامة دائمة على وجهى. وأجلست فى مكانى وقيدت فى المقعد.

بعدى جاء مايكل وجلس فى مكانه الصغير ثم أخيرا ميشا تيورين. مازال أمامنا ساعتان قبل الانطلاق وهناك سلسلة من الإجراءات على مايكل وميشو أن يتبعاها. كنت مسئولة عن ثلاث مهام بسيطة.

أن أدير صمام التكثيف واجعله بين وحدة قياس قمرة السكن ووحدة قياس الهبوط. وأن أفتح وأغلق صمام الأوكسجين كما يتطلب الأمر، وأن أسلم الملاحين الآخرين ملفات بيانات الطيران الموضوعة قربى. ولحسن الحظ هى مهام غير معقدة وكنت قادرة على إتمامها.

اتبعت ما يفعلانه خطوة خطوة من خلال ملفات بيانات الطيران ووضعت بعض الملاحظات الشخصية على هامش كتابى كلما أتيح لى ذلك. أخيرا جاءت اللحظة وبدأ العد التنازلى. وضعنا أنا ومايكل وميشا أيادينا معا وقلنا «مستعدون.. إننا ننطلق، وحمدت الله لتحقيق حلمى ولكل النعم التى منحنى إياها. ودعوته أن يملأ قلوب كل مخلوقاته بالمحبة وان يغمر السلام هذا الخلق الجميل الذى نسميه الأرض.

٥ ٤ ٣ سأنطلق فعــلا.. ٢ أحبـك يا حميد.. ١.. ثم ارتفعنا بسلاسة.

حين كنت أراقب انطلاق سويوز تى ام اى ٨، لم يخطر ببالى أبدا أن الأمر سيكون بهذه النعومة والسلاسة داخل الكبسولة. إنه مثل ارتفاع طائرة فى الجو. ثم بدأت المطبات وكانت أيضا ضعيفة.. اعتقد أننا واجهنا اثنين أو أكثر قليلا.. ثم الانفصال وانقذاف المقدمة (الأنف). أيضا فى منتهى النعومة. ملأ شعاع من الضياء الكبسولة وادخل الدفء إلى قلبى. اعتقد أنى كنت أضحك بصوت عال. كان الفرح الذى يملأ قلبى لا يمكن وصفه.

انفصال المرحلة الأخيرة كان أكثر شىء أحسست به ثم انعدام الوزن. ذلك الإحساس بالحرية الذى يدفع الابتسامة إلى كل وجه. ببطء رفعت مقعدى واستمررت بالضحك. لم آكن أصدق ما يحدث. وحتى أكون صادقة معكم، مازال الأمر كله كأنه حلم. كنت مقيدة إلى المقعد بقوة حتى أنى لم أستطع النظر إلى الخارج. أخيرا حين كنا فى المدار بأمان. فتحنا قناع الرأس وفتحنا الأحزمة.

نزع مايكل قفازاته وبدأ يطوف فى القمرة. لم أستطع أن أتوقف عن الضحك طوال الوقت. أخيرا استطعت أن أنظر إلى الخارج ورأيت الأرض لأول مرة. بدأت الدموع تهطل من عينى. لم أستطع أن أمسك أنفاسى. حتى التفكير فى ذلك الآن يدفع بالدموع إلى عينى. كانت الأرض - هذا الكوكب الجميل- تدور بعظمة حول نفسها تحت أشعة الشمس الدافئة.. كانت تبدو فى منتهى السلام والحيوية.. لا أثر لحروب ولا أثر لحدود ولا أثر لمشاكل.. فقط جمال نقى.

كم تمنيت لو استطاع كل إنسان أن يجرب هذا الشعور فى قلبه خاصة أولئك الذين يحكمون العالم. ربما كانت هذه التجربة ستمنحهم رؤية جديدة وتساعدهم على تحقيق السلام فى العالم.

سأكتفى بهذا القدر الآن. وسوف أكتب لكم عن بقية الرحلة. أشعر بالجوع لبعض طعام الفضاء وسوف نتواصل فى المدار القادم. الآن نحن نطير فوق المحيط الهادى ونقترب من المكسيك.

٢٠٠٦/٩/٢٢

طلب منى مايكل أن أراقب المكوك اطلانتس وهو يهبط على الأرض. ياله من مشهد.. الرحلة صارت أجمل وأجمل. كان المشهد رائعا. أولا مثل نقطة وامضة من ضوء برتقالى ثم نقطة ثابتة من الضياء.. وفى نهاية المراحل الأخيرة كان يبدو مثل نيزك جميل يتحرك حركة بطيئة. نقطة برتقالية لامعة تجر وراءها ذيلا طويلا أبيض.

شىء لا يصدق. وأنا أشاهد المكوك يهبط دعوت الله أن يكون الهبوط سالما. وقد اختفى المشهد من نواظرنا حين بدأ ضوء النهار يغشى أبصارنا.. ولكننا سمعنا فيما بعد أن الهبوط كان سالما.

الحمد لله على عودتك يا اطلانتس.

٢٠٠٧/٩/٢٨

الجميع يريد أن يعرف كيف أستحم فى الفضاء؟ وكيف أفرش أسنانى؟ وكيف أغسل شعرى؟

حسنا أيها الأصدقاء، على أن اعترف أن الحفاظ على الصحة العامة فى الفضاء ليست مهمة سهلة. فليس هناك حمام أو دش أو حوض وماء جار. الماء لا يتدفق هنا وإنما (يطفو). مما يجعل تنظيف نفسك عملية صعبة، إذن ماذا يفعل الناس هنا خاصة إذا بقى المرء أكثر من ستة أشهر؟ إنهم يبتكرون.

هناك مناشف مبللة، وقطن مبلل ومناشف جافة لتنظيف نفسك. تقريبا كل شخص يحصل فى اليوم على منشفة مبللة واثنتين جافتين. وكل شخص لديه حقيبة نظافة كاملة حيث يحفظ فيها فرشاة الأسنان وأدوات الحلاقة والكريمات.. إلخ. وقد حصلت على حقيبة مخصصة للرجال وهكذا كان فيها ماكينة حلاقة والكثير من كريم الحلاقة ولكن لم يكن ثمة أثر لأدوات الماكياج.

تنظيف أسنانك فى الفضاء متعة أخرى فأنت لا تستطيع أن تغسل فمك بالماء الذى تلفظه بعد استخدام الفرشاة وهكذا فأنت تغسل وتبلع. ويطلق رواد الفضاء على هذه العملية (تأثير النعناع الطازج).

ومن أمتع التجارب - أو يجب أن أسميه التجريب - هو غسل شعرك. والآن أعرف لماذا يحتفظ رواد الفضاء بشعر قصير. العملية هى أن تأخذ كيس ماء وتضع على رأسك فقاعة ماء كبيرة ثم بلطف شديد تستخدم شامبو جافا وتغسل شعرك. وعند أقل حركة فجائية تبدأ فقاعات الماء تطير حولك. وقد صورت ذلك بالفيديو وسوف أعرضه حين أعود.

بالطبع الماء هنا عنصر مهم ويعاد تدويره ولهذا لا نرمى أى شىء مبلل وبدلا من ذلك يترك ليجف فى الهواء. وهناك جهاز يجمع الرطوبة من الهواء ويعيد تدويرها وتنقيتها. هذا يشمل ملابسى التى أتعرق فيها بعد التمارين الرياضية. أحد الرواد قال لى مرة «نحن مقربون جدا من بعضنا البعض. إننا مثل إخوة وأخوات. وهذا شىء مميز لأننا نشرب عرق بعضنا البعض» والآن أعرف تماما ماذا يقصد.

لدينا معدات تمارين رياضية هنا مثل دراجة فى القسم الروسى تطل على أجمل منظر فى العالم، وبعض معدات تدريبات المقاومة، وهناك دراجة فى القسم الأمريكى أيضا.

يتدرب الرواد وسواح الفضاء كل يوم وأحيانا مرتين فى اليوم من أجل تقليل آثار انعدام الوزن على العضلات والعظام. فحين يكون الناس فى حالة انعدام وزن لفترة طويلة ترتخى عضلاتهم وتضعف وتضمر بسبب عدم الاستخدام. لا توجد جاذبية هنا للعمل ضدها ولهذا فكل ما تفعله يكون بدون بذل مجهود. كذلك تبدأ فى فقدان الكالسيوم فى عظامك فيحصل لديك نقص فى كثافة العظام.

إنهم يقولون دائما إنك لا تستطيع أن تأخذ كعكتك وتأكلها أيضا.. ولهذا أعتقد أن عليك أن تدفع ثمنا للحصول

ولـــدت فى إيـــران وعشـــت
حـــتى بلغـــت ســـن الســـادسة عشـــرة
ثـم هاجـرت مـع عـائلتـى إلى الـولايـات المتـحـدة
الأمريكية ودرست الهندسة الكهربائية،
وكنت محظوظة فى تحقيق حلمى

على الجمال والإثارة فى الفضاء. طبعا أنا على يقين انه سيظهر بينكم من يكون عالم بيولوجى أو طبيبا وسوف يتوصل فى المستقبل إلى كيفية منع كل هذه التأثيرات وهكذا نستطيع أن نقوم برحلات طويلة إلى المريخ وكواكب النظام الشمسى الأخرى والأقمار ونستمر فى الاستكشاف فيما وراء نظامنا الشمسى.

أفضل من يعطي رؤية للعالم هم رواد الفضاء
٢٠٠٦/٩/١٥

يبدأ النهار هنا فى الساعة ٤ بتوقيت جرينتش وينتهى حوالى السابعة والنصف حيث يفترض أن الضوء قد تلاشى. ولكنه الوقت الذى يستطيع أى شخص أن يرتاح قليلا ولا يفعل شيئا سوى الدردشة، أو يهاتف عائلته أو يتفرج من النافذة على المناظر المدهشة.

إنه شعور لطيف دافئ. وكما تعرفون فإن المحطة تلف المدار كل ٩٠ دقيقة. وهكذا حين أتحدث عن الليل لا تفكروا بأنه مثل ليل الأرض حين يعم الظلام. هنا الشمس تشرق وتغرب مع كل مدار ويمكنك أن تراقب ٣٢ شروقا وغروبا خلال اليوم.

خلال النهار كل واحد منا مشغول بمهام معينة موكلة إليه من قبل إدارة الرحلة فى موسكو وهوستون. والجدول مربوط بالمحطة بتعليمات محددة للأنشطة المطلوبة. هناك نداء فى الصباح للاجتماع ليكون الجميع على بينة مما سيعملونه ونداء لاجتماع آخر فى نهاية اليوم لترى مدى التقدم الذى أحرز فى تنفيذ المهام ولتحديد مهام اليوم التالى. حتى إجازات نهايات الأسبوع لا تشبه تلك التى على الأرض. ربما يكون العمل فيها أقل ولكن لا تزال هناك مهام يجب القيام بها وأنظمة يجب إصلاحها وبرامج تعليمية يجب إتمامها.

فى حوالى السادسة والنصف مساء يجتمع الجميع على مائدة العشاء فى القسم الروسى ونسخن بعض العلب ونذيب بعض الطعام المجفف (حساء، بيوريه بطاطس وخضروات) ونتبادل النكات والحكايات الفضائية.

إن طول المدة التى يتواجد فيها ركاب الفضاء يدفعهم للابتكار بما متوفر لديهم. بعد ستة أشهر من تناول نفس الأطعمة الخمسة عشر الأساسية، قد يسبب ذلك الملل ومن أجل إضافة البهارات (مجازيا) يقومون بخلط وجبات مختلفة مع بعضها البعض لإنتاج وصفات أخرى. وبين حين وآخر يتلقون هدية فى حاويات الشحن ترسل إليهم مع المكوك او سفينة الشحن الروسية (بروغريس progress). وهذه الرزمة الهدية تحوى طعاما طازجا يجب ان يؤكل فى يوم وصوله. تستطيعون تصور ما هو تأثير تفاحة طازجة بعد عدة أشهر من الطعام المعلب.

إن التجول فى الفضاء لمدة قصيرة شيء والبقاء نصف عام شيء آخر. فأنت بعيد عن عائلتك وأصدقائك وفيما عدا رسائل البريد الإلكترونى والنداءات الهاتفية القصيرة، فليس لديك من تكلمه سوى زملائك فى الرحلة. وحاليا تشمل الرحلات الطويلة ثلاثة رواد فضاء ولكن يجرى التفكير فى زيادة العدد إلى ستة.

أعتقد أن طلاب الجامعة والأقسام الداخلية يشعرون بما أقوله. ولكن هناك فرقا كبيرا. إنك إذا مللت من رفيقك فى الغرفة، يمكنك أن تخرج للتنزه أو لمقابلة شخص أو أشخاص آخرين أو حتى تنام فى مكان آخر. هنا إذا لم يعجبك رفاقك فى السكن فليس هناك مكان آخر تذهب إليه. فأقرب توصيلة إلى بيتك ستكون بعد ستة أشهر والأفضل لك أن تحسن علاقاتك مع رفاقك.

ولكن يجب أن أقول أنى دهشت لروعة رواد الفضاء ولا أدرى كيف يختارونهم ولكنهم جميعا أذكياء ومسالمون وذوو شخصيات دافئة. ويمكن أن أصف من التقيت به فى ستار سيتى (فى كازاخستان) أو هنا بأنهم بشر متفوقون (سوبر) وبصدق أعتقد أن علينا أن نختار رؤساءنا من رواد الفضاء. إنهم قادة عظماء ولهم رؤية فريدة للعالم.

وهكذا، رغم أن هؤلاء الرجال والنساء يعيشون فى مكان مغلق لمدة ستة أشهر أو ربما اكثر، فهم يتعايشون بسهولة ويصبحون أصدقاء العمر. هنا حياتهم تعتمد على التعاون والتواصل وحين تحقق ذلك فإنك لا تستطيع أن تقطع كل ذلك حين توعد إلى الأرض.

وهذا مثل ما يحدث على الأرض نوعا ما. إذا فكرت فى الموضوع، حيث تربطنا كلنا عروة وثقى هى العيش على الكوكب الوحيد الصالح للحياة فى النظام الشمسى. وليس لدينا مكان اخر نذهب إليه، على الأقل لهذه الفترة؛ ولهذا، إذا لم نتعايش جيدا وإذا دمرنا كل شيء وخلقنا فوضى، خمنوا ما يحدث؟ علينا أن نعيش فى هذا الخراب.

كانت تمر بنا أيام صعبة لا يستطيع رواد الفضاء أن يتحملوا الآخرين معهم ولكن كل واحد منهم يحاول جهده لئلا يظهر مشاعره السلبية تجاه رفاقه، والآخرون أيضا يقدرون حالته الذهنية ويتيحون له مزيدا من الخصوصية.

إذن، رغم أن المساحة هنا هى حوالى ١٥٠٠ قدم مربع (بما يوازى حجم منزل بثلاث غرف نوم) ولكنها تمتلئ بأطنان من المعدات وليس لدينا (نحن ستة أشخاص) أى مكان للتحرك، ولكننا نقضى وقتا طيبا نستمتع به.. أو على الأقل هذا ما أشعر به.

حتى الغد.. أترككم بعناية الله.

العالم يمر من أمامي
٢٠٠٦/٩/٢٩

ربما سمعتم من قبل تعبير «أتفرج على العالم يمر من أمامى» وأعتقد انها تعنى أن تقضى وقتك مسترخيا لا تفعل شيئا. فقط الفرجة.. والكسل ولكن التعبير يتخذ معنى آخر لدى رواد الفضاء.

سمعته لأول مرة من بيغى وتسون ثم من زميلى هنا جيفرى وليامز ومايكل ال اى. بالنسبة لهما الجملة تعنى حرفيا الفرجة على العالم وهو يمر أمامهما. حين تحدق من النافذة هنا فى الأعالى ترى الأرض تدور ببطء فى الاتجاه المعاكس. اعتقد أنك يمكن أن ترى ذلك بطريقتين.. يراها البعض وكأن محطة الفضاء ثابتة والأرض تدور كما أراها أنا. والبعض قد يراها وكأن الأرض ثابتة والمحطة تدور.



الحقيقة أن الاثنين تدوران فى نفس الاتجاه ولكن محطة الفضاء تدور ٢٠ مرة أسرع من الأرض ولهذا تخلق الشعور بأن الأرض تدور فى الاتجاه المعاكس. حسنا دعونا من هذا.. أعتقد أن رؤوسكم بدأت تدور الآن.

من النوافذ الجانبية فى القمرات الصغيرة وقمرة الالتحام حيث أنام يمكن أن ترى التقوس الكامل للأرض على خلفية ظلام الكون. وهذا المنظر هو المفضل لدى لأنى أرى (الكل) وليس (أجزاء). وأنا أحب أن أرى الصورة الكاملة أمامى قبل أن افكر بالأجزاء. أتمنى لو كان قادة الدول المختلفة يفعلون نفس الشيء وتكون لهم رؤية كاملة للعالم قبل أن تكون لهم رؤية محددة لبلادهم.

أين وصلنا فى حديثنا؟ كنت أتحدث عن رؤية العالم يمر بى.. حين سمعت التعبير لأول مرة أحببته وجربته هنا خاصة فى الليل من كيس النوم. خلال الشروق (النهار) يمكنك ان ترى مئات الظلال الزرقاء فى المحيطات اعتمادا على عمق المحيط وطريقة انعكاس الشمس على السطح. يمكنك أن ترى كتل الأرض، معظمها بدون نباتات ومثل أوردة تجرى عبرها بأشكال مختلفة. هذه هى الأنهار أو آثار مجارى المياه وهى تتجه إلى المحيطات.

أما المدن فيمكن التعرف عليها لأنها تبدو من هذه المسافة مثل نبش تراب بمذراة. لكن الأراضى الزراعية لها أشكال هندسية بألوان مختلفة حسب المحاصيل ونوع التربة. أما الحدود فلا تراها.. لا تستطيع أن تميز أين تنتهى هذه الدولة وتبدأ الأخرى. الحد الوحيد الذى تراه هو بين الأرض والمياه.

معظم الأرض مغطاة بالسحب. وقد كانت الفكرة الأولى التى طرأت لدى «ما هذا! إنى لا أستطيع أن أرى شيئا أو ألتقط صورة»، ثم أخذت السحب عقلى. فلها أشكال وتشكيلات مختلفة.. أحيانا تبدو مثل بطانية مزغبة وأحيانا مثل كرات قطن متناثرة.

وللجمهور الإيرانى، أقول إنها تذكرنى بطفولتى فى إيران حين كان لدينا «النداف» الذى كان يأتى بين حين وآخر ويأخذ «الألحفة»، ويخرج قطنها القديم ويعيد ندفه بآلة قديمة مثل قوس كبير. فى بعض المناطق كانت السحب تشبه خطوطا وكأن رساما أمسك بفرشاة ورسم خطوطا فى كل الاتجاهات.

كان التفرج على السحب يذكرنى بزوجى حميد. فمن أحب الأشياء إلينا حين نكون فى إجازة هو النوم فى الخارج ومراقبة السحب ومحاولة تخمين الأشكال التى نراها فيها. أستطيع أن أرى هنا أشكالا كثيرة. مثلا اليوم كان هناك مجموعة من الغيوم تشبه الطيور أو الطائرات. كان هناك أيضا الغيوم التى تشبه سحابة القنبلة الذرية. وقد أشار باشا (بافيل فينوغرادوف) إلى سحابة كبيرة مدورة الشكل وقال لى إنها إعصار.

فى الفضاء ليس هناك
حمام أو دش أو حوض وماء جار.
الماء لا يتدفق وإنما (يطفو). إذن ماذا يفعل الناس
هنا خاصة إذا بقى المرء أكثر من ستة
أشهر؟ إنهم يبتكرون



يمكنك قضاء ساعات تتفرج على الخارج ولكن بعد حوالى ٤٥ دقيقة تبدأ الظلمة حيث تغرب الشمس خلف الأرض وتخلق هذا اللون المدهش: مزيج من البرتقالى مع أروع ازرق.. ثم يأتى الليل. لا تستطيع رؤية الأرض جيدا إلا إذا مررت على مدن. عند ذلك فقط سترى بقعا برتقالية تنتشر فوقها. المدن الكبيرة طبعا هي التى يمكن رؤيتها بشكل أفضل.

معظم الليالى التى أنظر فيها إلى الخارج، أرى عواصف تحتنا. أعرف أنها لن تكون تجربة سارة للناس التى يتعرضون لها على الأرض، ولكن هنا في الأعالى تبدو مثل استعراض ضياء رائع. فهناك ومضات من الضوء تتفجر عشوائيا فى مناطق مختلفة. وفى إحدى الليالى وأنا اتفرج على ذلك كنت استمع إلى موسيقى (canon) للموسيقار يوهان باشلبيل وخيل إلى أن ومضات الضياء كانت تتوافق مع الموسيقى. اعتقد إننا كنا قرب سواحل استراليا على المحيط الهادى.

ولكن هذا ليس أجمل المشاهد، لان أجملها وأكثرها قربا من نفسى هو منظر الكون فى الليل. منظر النجوم هنا لا يصدق. تبدو مثل نثار الماس على غطاء من قطيفة سوداء. ويمكن رؤية المجرة milky way بوضوح، مثل قوس قزح من النجوم يلف الأرض كلها. لا أستطيع إغماض عينى عنها وأنا اضع رأسى على النافذة وأبقى بهذا الوضع حتى تسبب برودة الزجاج صداعا لى، فأرجع رأسى إلى الخلف قليلا ولكنى أظل أحدق فى الكون.

وفى هذه اللحظات أحمد الله مرارا لأنه ساعدنى على خوض هذه التجربة. وكنت احمده على منحى وضوح الرؤية لمعرفة طريقى فى الحياة والقوة على السير فيه. هذه أكثر اللحظات هدوءا فى حياتى وأشعر بطاقة إيجابية عظيمة. وقد عانيت من قلة النوم لأنى اجبر عينى على البقاء مفتوحتين لأرى هذا الجمال مدة أطول.

تصبحون على خير. نافذتى تنتظرنى لأتفرج على العالم يمر بى وأشعر فى هذه اللحظة بكل دموعكم وضحكاتكم تصل إلى من الأرض.

أتمنى لكم نهارا أو ليلا سعيدا أينما تكونون.

[illegible]
٢٠٠٦/٩/٢٧

تستطيعون رفع كتلة من ٥٠٠ رطل بيد واحدة وتحركونها فى كل الاتجاهات باصبع واحدة. تستطيعون الطيران فى فضاء الغرفة بدلا من السير. يمكنكم فى أى سن - القيام بالشقلبة رأسا على عقب.. يمكنكم اللعب مع طعامكم.

وكما قلت سابقا كل شىء يتم بدون بذل اى مجهود. إذا أردتم التحرك إلى الأمام يمكنكم لمس اى حائط أو اى جسم صلب لمسا خفيفا باصبع وتبدأون فى التحرك بالاتجاه العاكس للقوة المبذولة. إذا كان هناك أشخاص يسدون طريقك فى الممر، لا تقلق.. ترتفع نحو السقف ومثل الرجل العنكبوت (spiderman) تزحف على السقف فوق رؤوسهم باستخدام مقابض على الجدران.

نسيت كتابك فى قمرة أخرى؟ ليست مشكلة، اطلب من زميلك القريب منه أن يبعثه اليك. أى أن يأخذه ويدفعه بخفة نحوك وها هو.. الكتاب يطير إليك طوال الطريق من القمرة الأخرى. صديقك يأكل حلوى وتريد أن تتذوقها، يرمى نحوك قطعة صغيرة تطير حتى تستقر فى فمك المفتوح. (أنصح الأطفال بألا يجربوا هذه مع جاذبية الأرض).

فى الفضاء، لا بأس أن تلعب بطعامك. كل رواد وسواح الفضاء يفعلون ذلك. كرات الجبنة مثلا لا تضعها فى فمك باليد وانما تقذف من العلبة وتطير إلى فمك. حين تفتح علبة فيها طعام سائل مثل اللبن الرائب أو الحساء، إذا لم تكن حريصا وحذرا، فإن فقاعات اللبن الرائب أو الحساء تطير حولك وعليك أن تصطادها بالملعقة. ولكن إذا حاولت الإمساك بها بدون روية فإن الفقاعة التى تصطدم بالملعقة تتفتت إلى عشرات من الفقاعات الصغيرة وعليك الآن أن تصطادها كلها.

أنا فعلا أستمتع بانعدام الوزن. إنه يمنحك الشعور بالحرية. أتذكر حين كنت صغيرة، كان هذا الحلم يراودنى باستمرار. أرى فيه، مع دهشة عائلتى، إنى أطير من غرفة إلى أخرى وأنا سعيدة بقدرتى على الطيران. طبعا فى حلمى كنت خبيرة بذلك وكنت أستطيع أن أحوم فى الفضاء بقوة إرادتى وليس بلمس الأشياء حولى.

فى الواقع هنا، أنا خرقاء. أطير وأنا أصطدم بالجدران وأزحزح الأشياء من أماكنها. فى الأيام القليلة الأولى كنت أدفع نفسى على حائط بشدة وتكون النتيجة أنى أطير بسرعة إلى الحائط المقابل، وبدون أن أستطيع التوقف... طاخ! اصطدم بالجدار الآخر الذى يقذفنى بسرعة إلى الجدار الأول. مؤخرا أثنى على زملائى لحرفية طيرانى. كان هذا من دواعى فخرى.

أعتقد أن أقرب مثال على التحرك فى حالة انعدام الوزن: هو الطفو على الماء. ولكن هناك اختلافا كبيرا. فى الماء حين تحرك ذراعيك وساقيك، تبدأ فى الحركة والتقدم. هنا تستطيع أن تحرك أطرافك كما تشاء ولكنك لا تتحرك إلى اى مكان. الشىء الوحيد الذى يمكن أن يحركك هو نسمة هواء من المروحة.

أراد الشباب هنا أن يشرحوا لى كيف تعمل هذه النظرية فوضعونى فى وسط أحد الأقسام الأمريكية فى المحطة. لم أستطع الوصول إلى اى جسم جامد لأدفع نفسى، وهكذا كنت أطفو فى وسط القمرة ومهما حركت أطرافى فانى لم أستطع التحرك. كان الجميع يضحكون على وأخيرا دفعتنى نسمة صغيرة من المروحة حتى استطعت الوصول إلى مقبض فى السقف ومنه استطعت أن أحرر نفسى من وضع اللاحراك.

وهكذا، تخيل وأنت تعمل الآن أنه ليس هناك جاذبية وأنك تطفو فى الفضاء فكل شىء حولك يطفو كذلك. هل تستطيع تخيل هذا؟ أنت تجلس على جهاز الكمبيوتر لتكتب.. حسنا.. لا تستطيع الجلوس لأنه لا شىء يربطك بالمقعد. إلا إذا ربطت نفسك بمقعد هو الآخر مسمر على الأرضية. ولهذا، طالما أنك لا تستطيع الجلوس فأنت تقف.. حسنا، لا تستطيع الوقوف أيضا لأن كل مفتاح تضربه على الكيبورد سوف يدفعك إلى اتجاه آخر من الغرفة.

إذن ماذا يفعل الناس فى الفضاء حين يريدون الجلوس فى مكان واحد لعمل شىء ما؟ إنهم يستخدمون أقدامهم لتأمين أنفسهم، يحشرون أقدامهم تحت هذه القضبان الموجودة فى كل مكان أو يجدون شيئا لحشر أقدامهم فيه. وهذا هو السبب فى أنى حين وصلت إلى المحطة أعطانى باشا أحذية الإسكيمو الناعمة هذه المصنوعة من جلد الحمل. لم أعرف السبب ولهذا لم أستخدمها. ثم فى الليل حين ذهبت للنوم لاحظت أن أصابع قدمى مقرحة وتؤلمنى قليلا. فى الفضاء تتعلم أن تستخدم إبهامى القدمين جيدا. لا أظن أنى كنت أهتم بإبهامى قدمى وأنا على الأرض. ولكن هنا.. إبهامك هو أداة قوية تربطك فى المكان.

إذن دعونا نستمر فى العمل. تريد أن تقرأ شيئا من كتاب وهكذا تضع الكتاب على المنضدة ولكنه لا يبقى هناك. تريد أن تضع زجاجة الصودا على الكتاب لتحفظه فى مكانه ولكن الآن لديك الكتاب يطير وكذلك زجاجة الصودا، وهكذا عليك الآن أن تلحق بالكتاب لتمسكه فى يد والزجاجة فى يد أخرى ثم يرن الهاتف. تضع الكتاب على المنضدة وتلتقط السماعة ولكن حالما تفعل ذلك يبدأ الكتاب فى الطيران مرة أخرى وحين تحاول أن تسيطر على السماعة تراها تطير هى الأخرى.

الآن لديك الصورة.. ولهذا خلق الله الفيلكرو (Velcro) الفيلكرو هو الأربطة التى تلتصق ببعضها مثلما نجده فى الملابس وفى الأحذية والحقائب - المترجمة) لهذا السبب، من أجل حفظ الأشياء فى أماكنها فى حالات انعدام الوزن. كل شىء هنا فيه رباط فيلكرو، حتى اصغر ملابسك الداخلية. كنت أظن أنى أستطيع مسك الأشياء إذا وضعتها فى جيوبى وأغلقت السحاب. حسنا.. إنها مؤمنة هناك حتى تفتح السحاب وتخرجها وعندها تبدأ أشياؤك الصغيرة فى الطيران حولك. وقد فقدت الكثير من مقتنياتى ومنها ملمع الشفاه.

إذن مبدئيا، كل ما لديك يجب أن يكون متصلا برباط فيلكرو. هناك أكياس لها أربطة فيلكرو وهى من كل الأشكال والأحجام والألوان تستخدم هنا بكثرة. عليك أن تتذكر دائما أنك إذا تركت أى شىء من قبضة يدك لن يبقى فى مكانه مما يجعل أداء المهام هنا أكثر صعوبة.

باختصار، أن الطيران شعور جميل وكان أكبر تحد بالنسبة لى قبل أن أغادر هو كم من الوقت أستطيع أن أبقى مطوفة فى مكان واحد بدون أن أصطدم بشىء. عليك أن تقف (مجازيا) ساكنا ولا تقوم بأى جهد أو اى شىء. وجدت أنى أستطيع البقاء ساكنة لمدة ٢٥ ثانية قبل أن يجرفنى الهواء أو شىء آخر.

يومى الأخير فى المحطة
٢٠٠٦/٩/٢٠

فى يوم ٢٨ سبتمبر، غيرنا جدولنا فى محطة الفضاء. كان موعد استيقاظنا الاعتيادى هو الساعة الرابعة صباحا ولكن فى يوم ٢٨ أصبح التاسعة

فى الفضاء أنت بعيد
عن عائلتك وأصدقائك وفيما عدا
رسائل البريد الإلكترونى والنداءات الهاتفية
القصيرة، فليس لديك من تكلمه
سوى زملائك فى الرحلة

صباحا. وبمعرفتي أن هذا هو يومي الأخير على المحطة، لم أرغب في أن أقضي الوقت المتبقي لي بالنوم ولكن التعب نال مني واضطرني إلى الإغفاء أربع ساعات.

صحوت في الساعة الخامسة صباحا وتجهزت لإنهاء آخر فقرة في قائمتي وهي فيديو التجربة التعليمية. وقد كرست بقية اليوم لمشاهدة العالم يمر من أمامي والطيران في فضاء المحطة مستمتعة بانعدام وزني.

كان يوما صعبا بالنسبة لي ومن اللحظة التي فتحت عيني كنت أحس بانقباض في معدتي. لم أعرف السبب.. لم أكن خائفة من الهبوط، إذن ما الذي يتسبب في هذا القلق الحاد؟ لم يكن شعورا ممتعا. إنه نفس الشعور الذي يحصل لديك حين تعزم على رحلة طويلة تترك فيها أحباءك وراءك دون أن تعرف إن كنت سوف تراهم مرة أخرى. نفس الإحساس الذي انتابني وأنا أطير مغادرة إيران.

كان قلبي في بلعومي ولم أكن أستطيع أن أركن للهدوء. وأنا من النوع الذي يأكل في وقت القلق وقبل أن يستيقظ الآخرون كنت أفتش في حاويات الوجبات الخفيفة أبحث عن شيء آكله. كانت الساعة حوالي الخامسة والنصف وكان ميشا قد عرض على أن يساعدني في تصوير المراسيم في الساعة السابعة. مازال أمامي ساعة ونصف أقتل فيها الوقت. استمررت في الأكل.. فطائر.. فواكه مجففة.. قهوة.. لوز.. شيكولاتة. ثم فكرت أنني إذا استمررت في الأكل بهذه الطريقة سأجد صعوبة في الجلوس في الكبسولة لمدة ٨ ساعات.

كان الجميع لا يزال نائما ولهذا ذهبت إلى النافذة وحدقت في الأرض وهي تدور ببطء تحتي.

كانت الأرض تبدو حية، تسمرني وتسحرني بجمالها، حتى إني لا آسف على ترك الفضاء والنزول إليها. شعرت بطاقة إيجابية لا تصدق ربما كانت الطاقة التي تبعثونها جميعا إلي.

شعرت بالراحة التامة وبحرارة تنبعث من وهج الغلاف الجوي ذي اللونين الأزرق والأبيض تدفئ قلبي. وتذكرت تقليدا إيرانيا قديما.

في الأربعاء الأخيرة من السنة يحتفل الإيرانيون بقدوم السنة الجديدة. أحد الأشياء التي يفعلونها في هذا اليوم هو القفز على نيران صغيرة يشعلونها. أعرف أنه ليس شيئا آمنا ولكنه تقليد ظل حيا عبر الأزمنة القديمة وحتى يومنا هذا.

وأثناء أداء هذا الطقس ينشدون ما يمكن ترجمته حرفيا بهذه الكلمات «خذي لوني الأصفر وأعطني لونك الأحمر» وبهذا يسألون النار أن تأخذ ضعفهم وأمراضهم وتعطيهم الحرارة والصحة والقوة. شعرت بالرغبة في إنشاد نفس الكلمات ولكنني حورتها لأسأل الأرض وأنا أطير حولها أن



تعطيني الحرارة والطاقة الإيجابية، وتطرد كل مشاعري السلبية. وشيئا وشيئا وأنا أراقب بحر السحب الجميل يمر بي، شعرت بالتحسن واختفاء انقباضي.

استيقظ زملائي واحدا إثر آخر وشارك ميشا وجيف وتوماس في فيديو التجارب الطبيعية مما زاد من قيمته.

كان من المفروض أن نذهب إلى كبسولتنا ونبدأ بإجراءات الانفصال في الساعة ١٨.٣٠ توقيت جرينتش وكان علي أيضا أن أقوم بإجراءات لتذويب نفسي حتى لا يغمى علي بتأثير قوة (ج). وقد اجتمع الجميع لتناول الوجبة الأخيرة من الطعام معا.

ربما كانت هذه آخر رحلة لبافيل فينوغرادوف وجيف وليامز ورغم أنهما كانا مستعدين للعودة إلى المنزل والتئام شمل العائلة ولكن جزءا منهما كان مازال متعلقا بالأجواء الساحرة التي سيتركانها خلفهما ولهذا كانا في حالة حنين.

بينما كنا نقف حول المائدة أخبرتهم بأن أحد أهدافي الرئيسية هو أن أسهل على المزيد من الناس الطيران في الفضاء وأفضل طيران هو ذلك الذي يدور حول الأرض كما أني قلت لهم وأنا أروج لمشروعي أفضل طيارين لرحلاتنا الفضائية القادمة سيكونون رواد فضاء سابقين مثلكم أيها الشباب ولذا حين تفكرون بالتقاعد كلموني. ابتسموا وقالوا «يبدو اقتراحا جيدا».

مر اليوم سريعا جدا وحان الوقت للذهاب إلى سويوز. سأعود إلى الأرض في كبسولة مختلفة، وهي نفس الكبسولة التي طار بها بافيل وجيف وماركوس بونتس إلى محطة الفضاء. وقد نقلت معداتي وزيي الفضائي إلى هذه المركبة الجديدة فقد كان بافل قد حزم أغراضي في الليلة السابقة. كما امتلأت قمرة السكن بأكياس المخلفات والقمامة. في المراحل الأخيرة من الرحلة، حين نتجه إلى الأرض سوف تنفصل قمرة السكن وتحترق مع كل ما فيها في الجو.

بعد وداع سريع أمام الكاميرا ووداع دامع خارجها، صعدنا جميعا إلى القمرة مع ميشا ومايكل وأغلق توماس باب المحطة خلفنا. كما أغلقنا بوابة سويوز من ناحيتنا وحالما أغلقت لاحظنا صورة ركاب الرحلة ١٤ ملصقة على البوابة من الداخل لنراها. كانت صورة ثلاثتهم يلوحون بأيديهم مودعين. ضحكنا جميعا وبدأنا رحلة الهبوط بمزاج رائق.

الخطوة التالية كانت فحص أي تسرب في البوابة وكان فحصا مطولا للتأكد من عدم تسرب ضغط في البوابات بين الكبسولة والمحطة. وفي هذه الأثناء بدأنا في ارتداء أزيائنا والاستعداد للدخول إلى قمرة الهبوط. بعد فحص التسرب حان الوقت لإغلاق البوابة بين قمرة الهبوط وقمرة السكن وأداء فحص آخر للتسرب للتأكد بأنه بعد قذف قمرة السكن إلى الفضاء، نستطيع نحن أن نهبط على الأرض في الوقت المناسب.

في السابق كان على الملاحين البقاء يوما زائدا في المدار في قمرة الهبوط بعد قذف قمرة السكن. لهذا من المهم التأكد من أن البيئة صالحة للبقاء إذا ما حدث خطأ ما.

في الأيام القليلة الأخيرة من الرحلة، كان كل فرد من الملاحين يروي قصصه وتجاربه في الهبوط. وكانت أوصافهم ونصائحهم للهبوط تتوافق مع ما قيل لي على الأرض من قبل رواد الفضاء الآخرين مثل بيغي ويوري. «سيكون هبوطا قاسيا. سيكون هناك الكثير من المطبات أثناء انفتاح الباراشوت وصدمة كبيرة عند الارتطام بالأرض» وكانوا قد نصحوني بكيفية الاستعداد عند كل مرحلة.. كنت قد راجعت كل الإجراءات وكنت مستعدة.

بعد التأكد من جهوزية كل نظام وبعد فحص تسرب ضغط الزي الفضائي، وبعد إكمال فحص تسرب ضغط قمرة الهبوط، استلمنا أوامر تنفيذ الهبوط وبدأنا في الانفصال عن المحطة.

كانت فحوصات الاستعداد والتسرب قد أخذت وقتا طويلا وجهدا كبيرا مني حتى شعرت بالإعياء التام وبدأت أغفو بين حين وآخر. وقد أقلق منظر عيني المغلقتين بافل وأخذ يطمئن علي بين حين وآخر للتأكد من أني على ما يرام. قلت له «لا أعرف لماذا لا أستطيع إبقاء عيني مفتوحتين. أنا آسفة..»

جيف شرح الوضع على أفضل نحو «إنك تخرجين من ١٠ أيام من ارتفاع الأدرينالين. جسدك يخبرك بحاجته إلى الراحة» ربما كان على حق. كنت في ذروة التوتر طوال الرحلة وأنا الآن في طريقي إلى الهبوط. شعرت بهزة ضعيفة عند بدء الانفصال وعرفت أني عائدة إلى البيت. لا وسيلة للرجوع الآن..

كانت المرحلة الأولى من الهبوط هي الانفصال البطيء من حالة الالتحام بالمحطة مما أعطاني منظرا جميلا لبيتنا الكوني. ثم بدأنا ندخل في المدار المناسب للهبوط.

حين بدأنا في الوصول إلى نهاية مرحلة الخروج من المدار، أبلغني جيف بأن علي الاستعداد لما يشبه ركوب القطار الأفعواني في مدينة الملاهي. ذكرني بأن أضيق شد أحزمتي، حين تبدأ القوة (ج) (المقصود بها جاذبية الأرض) تتصاعد وأن أتأكد من أني التصقت بمقعدي مع شد كل عضلات بطني وفخذي من أجل إبطاء تدفق الدم من رأسي إلى أطرافي. وأكد لي أنه سوف يعلن بدء كل مرحلة ليهيئني لما ينتظرني، وقد فعل ذلك. كان بافل يعلن كل رحلة بالروسية وجيف يعيد إعلانها بالإنجليزية مع تذكير سريع بما علي أن أفعله.

أول شيء مهم يحدث خلال عملية الخروج من المدار هو انقذاف قمرة السكن. ذكرني جيف بأن أنظر من النافذة لرؤية الوهج البرتقالي ونحن ندخل الغلاف الجوي وقبل أن يسود الظلام كل شيء مرة أخرى.

الذكرى الأخرى الحية التي أحتفظ بها هي عند دخولنا الغلاف الجوي. كان هناك وهج برتقالي وكلما تقدمنا داخل الغلاف الجوي بدأت دروع الحرارة تحترق وكنا نراها تلتمع وهي تمرق خارج النافذة. شعرت مثل ركوب نيزك يحترق. فيما بعد سمعت نفس الشيء من الناس الذين كانوا يراقبوننا من الأرض. وصفوا دخولنا الغلاف الجوي مثل شهاب محترق.

ثم بدأت القوى (ج) تتصاعد. كان جيف يذكرني بشد أحزمتي واستمر يعلن تصاعد ضغوط (ج).. ٠.٥. ١ (ج) أتوثقة هل ربطت الأحزمة؟ ٢ (ج) أعتقد أننا ماضون إلى ٤ (ج)....

بدأت أشعر بثقل (ج)

كانت الأرض تبدو حية، تسمرني وتسحرني بجمالها، حتى إني لا آسف على ترك الفضاء والنزول إليها. شعرت بطاقة إيجابية لا تصدق ربما كانت الطاقة التي تبعثونها جميعا إليَّ

كتـــاب الـزاويــة

الاقتصاد المصرى من الاستقلال إلى التبعية

عادل حسين

إن تقويم الفترات التاريخية المختلفة لا يكون بعدد السنوات، ولكن بكثافة ما تحمله الفترة المعنية من أحداث مؤثرة، ومن تغيرات، وبهذا المعيار، فإن الفترة التى يتناولها الكتاب (١٩٧٥-١٩٧٩) كانت فترة غير عادية، أحداثها متلاحقة ونتيجتها كارثية، على مصر والوطن العربى. وأية محاولة لتجاوز ما صرنا إليه تتطلب وقفة تأمل عميق، تتطلب شرح ماذا حدث فى مصر؟ وكيف حدث؟ وأزعم أننا لا نعلم إلا القليل فى ذلك. وينبغى بالتالى أن نبذل جهداً كبيراً فى البحث، وبعض الجهد والوقت فى قراءة ما يبحث.

هكذا بدأ عادل حسين مقدمة كتابه الاقتصاد المصرى من الاستقلال إلى التبعية، ثم مضى يمزج بين ما هو سياسى وما هو اقتصادى فى سلسلة الأحداث المتلاحقة، ليصل إلى تصور دقيق لأسباب تخلى مصر عن دورها القيادى فى المنطقة، مع توقيعها لاتفاقية السلام بشكلها الذى آلت إليه، ومع موافقتها بالتوازى على تبنى نمط التنمية الاقتصادية الذى تروج له الولايات المتحدة.

وبعد حوالى ثلاثين عاماً، قد يكون من المفيد أن ينفض الغبار عن كتاب عادل حسين الأوفر شهرة، خاصة إذا لاحظنا التشابه بين الفترة التى يتناولها والفترة الحالية. فهناك الكثير من المؤشرات التى تدل على أن الفترة الحالية، وخاصة منذ تولى أحمد نظيف رئاسة مجلس الوزراء منذ عام ٢٠٠٤ -على قصرها- إنما تحمل خصائص سياسات اقتصادية وسياسية مشابهة لتلك الفترة التى تعرض لها عادل حسين.



الآن. يشبه الشعور وأنا فى مركز التدريب ولكن ٢ (ج) فى مركز التدريب كانت أقل بكثير مما ٢ (ج) ونحن فى الهبوط الفعلى. كنت قد شددت أحزمتى بقوة حتى كنت أشعر بأن عظام كتفى على وشك التفتت.

فى كل مرة يعلن بافل انتقال (ج) يعيد جيف إعلانها ٢,٢، ٢,٥، ٢,٧، ٢,٨.. ٣(ج).. أما وجهى يتمدد فى كل الاتجاهات.. لابد أن شكلى صار مضحكا. شددت عضلات معدتى ووترت كل جسدى كما كنت افعل فى التدريب، وكنت فى مركز التدريب أصل إلى ٨ (ج) بدون مشكلة ولكن هنا مرحلة ٣ (ج) تبدو مثل ٨ (ج) وكنت أتساءل ما إذا كان جسدى سيتحمل أية زيادة أخرى.

أحسست مثل فيل يجلس على صدرى.. كان الضغط يتصاعد ودعوت الله أن يمنحنى القوة لئلا أقع فى غيبوبة. (٣,٢، ٣,٥، ٣,٧، ٣,٨، ٤) حسنا العد يبدأ تنازليا ٣,٥، ٣,٢، ٣.. ٢,٨، الحمد لله! ٢، ١,٥.. نعود إلى الوضع الطبيعى.. على الأقل فى هذه المرحلة.

هبطنا بهدوء لعدة دقائق. تأكد بافل وجيف من أنى على ما يرام. قلت لهم بالروسية (فيزيو خراشو) أى كل شىء على ما يرام. حذرنى جيف أن أمامى خمس دقائق قبل أن تبدأ عملية انفتاح الباراشوت. ثم حين اقتربنا من ذلك قال «دقيقة واحدة.. استعدوا».

كانت هذه ربما أعنف مرحلة فى الهبوط لا يفوقها إلا الارتطام بالأرض. هناك ثلاث مراحل للباراشوت. أول وآخر مرحلة هما الأعنف.

أول مرحلة قذفتنا إلى الأعلى ودارت بنا فى تطويف مجنون حول المكان. أغمضت عينى لئلا أصاب بالغثيان وأنا أراقب اللوحة أمامى تتحرك حولى وحين بدأت حركة التأرجح فى الثبات، انفتح الباراشوت الكبير وبدأنا فى التأرجح مرة أخرى ثم ثبتت الحركة. كان حالنا يشبه ركوب الطبق أو القمرة الدوارة فى مدينة الملاهى. فأنت تدور حول المكان.

ثم ارتفعت مقاعدنا للاستعداد للمرحلة الأخيرة وهى الهبوط على الأرض، وهذا قلل من حجم ما لدينا من مساحة صغيرة أصلا. وأعلن جيف وبافل هبوطنا من ٣٠٠٠ متر إلى ٢٠٠ متر ثم الصدمة الكبيرة.

ارتطمنا بالأرض بقوة شعرت معها بأننا دفنا فى التراب ولكن بعد ذلك شعرت بقفزة وتدحرجنا على الجنب. حين ارتطمنا بالأرض شعرت وكأن ملايين الإبر رشقت فى ظهرى وشعرت بألم حاد. ظل الألم لفترة حتى تدحرجنا وانفصل ظهرى عن المقعد حينذاك بدأ الألم يزول.

فحصنا بافل للتأكد من أننا جميعا بخير. قلت له إن كل شىء رائع وشكرته للهبوط العظيم. وفعل جيف نفس الشىء وبينما كنا معلقين رأسا على عقب فى مقاعدنا مددنا أذرعنا وتماسكنا بالأيدى احتفالا بالهبوط الآمن.

انتشرت رائحة مثل أسلاك محروقة فى القمرة بسبب الاحتراق فى الغلاف الجوى. كانت الكبسولة مازالت ساخنة وكان فريق البحث والإنقاذ فى طريقه إلينا.

كانت كبسولتنا قد حطت فى منطقة صحراوية فى كازاخستان تسمى (اركاليك). مددت رأسى لأنظر من النافذة.

كان الصباح على وشك الانبلاج وكنت أرى الشمس ترتفع بطيئا فى الأفق. أعلن بافل أن درجة الحرارة فى الخارج هى ٥ درجات مئوية. وضحكت وأنا أقول «٥! أريد أن أرجع إلى حيث كنت».

ضحك رفيقاى وقال بافل «٥ درجات طقس جميل» وقال جيف «ربما سيكون يوما لطيفا».

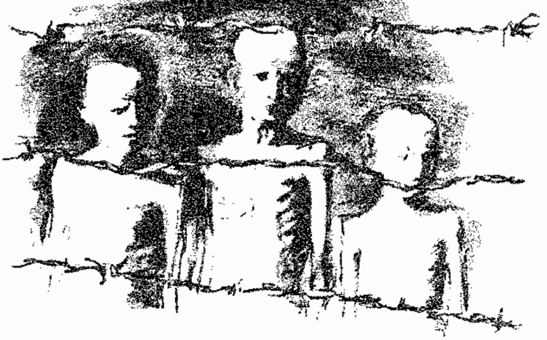
بعد عدة دقائق سمعت دقات على نافذتى. وصل فريق البحث والإنقاذ وبدأوا فى فتح البوابة. ذكرنى جيف بأن أكون عادئة وألا أقوم بأى حركة فجائية وأن أحتفظ برأسى فى وضع أمامى لتقليل أى شعور بدوار الحركة.

فتحت البوابة أخيرا وغمرتنا رائحة هواء الصباح النقى الذى غطى على رائحة الأسلاك المحروقة. حين بدأت فى التنفس وشم رائحة الأرض، شعرت بالتحسن.

من الرائع أن أعود إلى البيت وبعد ساعات قليلة سوف أتمكن من رؤية حامد وأتحدث إلى عائلتى. كان قلبى مفعما بالسعادة.

على أن أتوقف عن الكتابة الآن وسوف أكمل لكم ما تبقى من حديث فى اليومية القادمة. ▪


باقة من الخدمات المتميزة
توفر لك كثيراً من الوقت
وبمذاق مختلف لأنها من بيريوس
PIRAEUS BANK
بنك بيريوس - مصر
البنك بنكك
19322



حضارة الإبادة!!

عبد الوهاب المسيرى

لاحظت أثناء دراستى للظاهرة النازية تكرار كلمة «مسلم»، فتعقبت الأمر إلى أن اكتشفت أنهم كانوا يشيرون إلى أى يهودى يتقرر حرقه فى أفران الغاز. بأنه «ميزلمان Muselmann» أى «مسلم» بالألمانية

✽✽ فى أى حوار بخصوص الهولوكوست (سواء فى العالم الإسلامى أو العالم الغربى) يجب أن نؤكد أننا لسنا طرفا فى قضية الهولوكوست، فهذا حدث تم داخل التشكيل الحضارى الغربى، وهو جزء من التاريخ الغربى وعلى الحضارة الغربية أن تدفع الثمن وحدها وليس نحن، ونحن نتعاطف مع ضحايا الإبادة النازية ليهود أوروبا وغيرهم من ضحايا جرائم الإبادة التى قام بها النازيون ضد الغجر والبولنديين، والتى قام بها الاستعمار الغربى عبر تاريخه، ولكننا لسنا على استعداد أن ندفع ثمن جرائم الغير.

لسنا طرفاً فى الحوار

ويجب أن نضيف أننا وجدنا أنفسنا طرفا فى الحوار لسببين:

١ - قيام الغرب بتوظيف الهولوكوست فى محاولة تبرير الاحتلال الصهيونى وحماية مغتصبى الأراضى الفلسطينية. فقد ادعوا أن أفواجا بشرية يهودية فرت من ألمانيا النازية هربا من الهولوكوست، وأنه بعد الحرب كان هناك العديد من اليهود ليس لهم مأوى آخر، وأن فلسطين كانت هى المأوى الوحيد وأنها خصصت لليهود وضحايا المحرقة النازية تعويضا لهم عما حدث فى ألمانيا. وهذه كلها أكاذيب وتلفيقات، فالمشروع الصهيونى لاحتلال فلسطين وطرد سكانها وتوطين كتلة بشرية غربية فيها هو مشروع استعمارى غربى، ظهرت ملامحه الفكرية فى أواخر القرن السادس عشر وتبلور تماما فى منتصف القرن التاسع عشر فى إنجلترا على يد لورد شافتسبرى وسير لورانس أوليفانت، وكلاهما كان وثيق الصلة بالدوائر الاستعمارية البريطانية، وكلاهما غير يهودى، بل كاره لليهود. وقد تحولت هذه الأفكار الصهيونية إلى أجندة سياسية حين قرر الغرب تقسيم الدولة العثمانية والتخلص من الفائض البشرى اليهودى عن طريق تصديره خارج أوروبا. وقد عقد المؤتمر الصهيونى الأول فى ١٨٧٩، ثم صدر وعد بالفور عام ١٩١٧ الذى وضع حجر الأساس للمشروع الصهيونى، ثم وضعت فلسطين تحت الانتداب البريطانى عام ١٩٢٣، ثم أسست الوكالة اليهودية وهى الذراع التنفيذية للحركة الصهيونية بعد ذلك مباشرة. كل هذه الظواهر والقرارات السياسية اتخذت فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين قبل ظهور النازية بعشرات السنين. وقبل أن يكون هناك أى حديث عن إبادة أو مذابح.

٢- أقحم الغرب الجريمة النازية داخل التاريخ العربى حتى يبرر غرس الدولة الصهيونية الاستيطانية فى وسط الوطن العربى، زاعماً أنه فعل ذلك تعويضاً لليهود عما لحق بهم من أذى داخل التشكيل الحضارى الغربى. وهذه أكذوبة واضحة. فلو كان الدافع وراء المشروع الصهيونى هو بالفعل الإحساس بالذنب، لاستقطع العالم الغربى منطقة من أجود المناطق من ألمانيا وأسسوا لليهود دولة فيها، كما اقترح الملك آل سعود للرئيس روزفلت، أو لأرسل قوات دولية لتتأكد من أن يهود أوروبا سيحصلون على حقوقهم الدينية والمدنية والسياسية. فالتكفير عن جريمة ما لا يتم عن طريق ارتكاب جريمة أخرى، أى احتلال فلسطين وطرد شعبها، ولا يمكن محو أثر معسكرات الاعتقال والمجازر النازية عن طريق مخيمات اللاجئين الفلسطينيين والمستوطنات الاستعمارية فى الضفة الغربية والمجازر فى دير ياسين وكفر قاسم وجنين، وعن طريق دعم الكيان الصهيونى العنصرى من خلال التعويضات! إن الاهتمام بالهولوكوست ليس نابعاً من الإحساس بالذنب كما يدعون، فالغرب، كما أسلفت، لا يريد أن يدفع ثمن خطاياه، ولذا فى مؤتمر دربان فى جنوب أفريقيا، رفض الوفد الأمريكى اقتراحا بأن تقوم الولايات المتحدة بتعويض الأمريكيين السود عما حاق بهم من إبادة وتنكيل.

ويلاحظ أن الدعاية الصهيونية تحاول جاهدة أن تصور المقاومة العربية للغزو الصهيونى لفلسطين وكأنها كانت دعماً مباشراً أو غير مباشر للإبادة النازية. لأنها حالت فى بعض الأحيان دون دخول المهاجرين اليهود لفلسطين. ومثل هذه الحجة هى الأخرى لا أساس لها من الصحة، فالمقاومة العربية لم تكن ضد مهاجرين يبحثون عن المأوى وإنما كانت ضد مستوطنين جاءوا لاغتصاب الأرض وطرد أصحابها، تحت رعاية العالم الغربى، وبدعم من حكومة الانتداب البريطانية، فالغرب نفسه أوصد أبوابه دون المهاجرين اليهود.

كما تحاول الدعاية الصهيونية أن تبين أن بعض الساسة العرب أظهروا تعاطفاً مع النظام النازى. وهذه أكذوبة أخرى، فمعظم الحكومات العربية وقفت مع الحلفاء (فمعظم بلدان العالم العربى على أية حال كانت واقعة تحت شكل من أشكال الهيمنة الغربية)، كما أن النظرية النازية العرقية كانت تضع العرب والمسلمين فى مصاف اليهود. وهؤلاء الساسة العرب (وبعض القطاعات الشعبية) ممن أظهروا التعاطف مع النازيين فعلوا ذلك لا كرهاً فى اليهود أو حباً فى النازيين، وإنما تعبيراً عن عدائهم للاستعمار الإنجليزى والاستيطان الصهيونى.

ولكن كل هذه المحاولات الدعائية الإعلامية الغربية الصهيونية لا تغير شيئاً من الحقائق التاريخية أو الجغرافية أو الأخلاقية، الدينية والإنسانية، فالإبادة النازية لا تشكل جزءاً من التاريخ العربى

وتُعدُ العقيدة البيوريتانية (أو التطهرية)، عقيدة المستوطنين البيض في أمريكا الشمالية، هي أولى الأيديولوجيات الإمبريالية الإبادية التي كانت تغطيها ديباجات دينية كثيفة. فكان هؤلاء المتطهرون يشيرون إلى هذا الوطن الجديد باعتباره «صهيون الجديدة» أو «الأرض العذراء» فهي «أرض بلا شعب»

أو تواريخ المسلمين. وهذه المحاولات الإعلامية التي تلوي عنق الحقيقة تبين في نهاية الأمر مدى اتساق الغرب مع نفسه، الذي يُكفر عن جريمة إبادية ارتكبها في ألمانيا بأخرى لا تقل عنها بشاعة في وطننا العربي. إن الموقف العربي الحقيقي من الهولوكوست ينطلق من الإيمان بالقيم الأخلاقية الإسلامية التي لا تسمح بقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق. وقد جاء في الذكر الحكيم (مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا (المائدة ٣٢).

وقد يكون من المفيد أثناء الحوار ذكر معلومة أقل ما توصف به أنها رهيبة. فقد لاحظت أثناء دراستي للظاهرة النازية تكرار كلمة «مسلم»، فتعقبت الأمر إلى أن اكتشفت أنهم كانوا يشيرون إلى أي يهودي يتقرر حرقه في أفران الغاز، بأنه «ميزلمان Muselmann» أي «مسلم» بالألمانية. وقد ورد ما يلي في مدخل مستقل في الموسوعة اليهودية Enyclopedia Judaica (جزء ١٢ ص ٥٣٧، ٥٣٨) عنوانه «مسلم»: «ميزلمان» أي مسلم بالألمانية، هي إحدى المفردات الدارجة في معسكرات (الاعتقال) والتي كانت تُستخدم للإشارة للمساجين الذين كانوا على حافة الموت، أي الذين بدأت تظهر عليهم الأعراض النهائية للجوع والمرض وعدم الاكتراث العقلي والوهن الجسدي».

هذه هي المعلومة، ولا بد من تفسيرها ووضعها داخل إطار ونمط. ويمكن القول إن العقل الغربي حينما كان يدمر ضحاياه كان يرى فيهم الآخر، والآخر بالنسبة للغرب هو المسلم. والتجربة النازية هي الوريث الحقيقي لهذا الإدراك الغربي للآخر، والنازيون في هذا لا يختلفون كثيراً عن الغزاة الأسبان للعالم الجديد الذين كانوا يبيدون سكانه الأصليين وكانوا يسمونهم «الترك» أي «المسلمين»، وهم لا يختلفون عن المستوطنين البيض الأنجلوساكسونيين الذين كانوا يسمون أنفسهم عبرانيين عليهم إبادة الهنود الحمر باعتبارهم كنعانيين! إن نطاق الحقل الدلالي لكلمة «مسلم» تم توسيعه لتشير «للآخر» على وجه العموم.

ويطرح السؤال نفسه: لم اختفت هذه المعلومة من الخطاب الغربي بخصوص الهولوكوست؟ هل ذكرها سيبين طبيعة العنصرية الغربية ضد الإسلام وسيعوق عملية توظيف الهولوكوست في دعم إسرائيل والاستعمار الاستيطاني الصهيوني؟ أعتقد أنه من واجب الإعلام العربي والإسلامي نشر هذه المعلومة وتفسيرها على أوسع نطاق حتى يدرك العالم مدى عنصرية العالم الغربي.

أيقنة الهولوكوست

والآن ما معنى كلمة «هولوكوست»؟ «هولوكوست» كلمة يونانية تشير إلى إحدى الشعائر التي كانت تمارس في الهيكل إبان المرحلة التي أسميها العبادة القربانية الإسرائيلية، والتي انتهت بهدم الهيكل عام ٧٠ ميلادية، فاليهودية الأرثوذكسية لم تكن قد ظهرت بعد. فالعبرانيون/ اليهود القدامى كانوا يقدمون القرابين في الهيكل فكان الكهنة يحرقون جزءاً منها، ويأخذون ما يتبقى لأنفسهم ليأكلوه. أما قربان الهولوكوست فكان يحرق حرقا كاملا غير منقوص على المذبح، ولا ينال الكهنة منه شيئا. وقد كان هذا الطقس من أكثر الطقوس قداسة، وعادة ما كان يقدم تكفيرا عن خطيئة الكبرياء. وقد اعترتني الدهشة حين عرفت كل هذه التفاصيل ولهذه التسمية. فهل هذا يعني أن النازيين حرقوا اليهود حرقا غير منقوص؟

أعتقد أن الهدف من استخدام هذه الكلمة اليونانية، التي دخلت كل اللغات الأوروبية حسب علمي، هو إضفاء مسحة من القداسة على الواقعة التاريخية، ومن ثم يتم عزلها عن سياقها التاريخي والاجتماعي والإنساني. أما بخصوص العبرية فتستخدم الكلمة أحيانا، وأحيانا أخرى تستخدم كلمة «شواه» والتي تعني «المحرقة». وهنا نسأل لم لم تستخدم كلمات مماثلة في اللغات الأوربية مثل extermination؟ أعتقد أن الهدف هو، كما أسلفت إحاطة الظاهرة التاريخية بهالة من القداسة، وأنا أفضل استخدام مصطلح «الإبادة النازية ليهود أوروبا».

لقد قام الغرب «بأيقنة الهولوكوست» بتأثير الأدبيات الصهيونية والغربية، والأيقنة هي تجريد الظاهرة الإنسانية من طبيعتها التاريخية والزمنية وتحويلها إلى شيء فريد، لا يمكن فهمه أو تفسيره من خارجه، فهو مرجعية ذاته. وبهذه الطريقة يتم التحول من الزمني والتاريخي والإنساني إلى اللا زمني والكوني وغير الإنساني. وتصبح الظاهرة الإنسانية محل تأليه غير قابل للنقاش. فالأيقونة صورة نتعبد أمامها ولا نتساءل عنها. والعرب يتورطون في الأيقنة المضادة، أي الكفر المضاد بها من دون تثبت تاريخي. فإنكار الهولوكوست دون دراسة تاريخية ليس أمرا إنسانيا أو علميا. يجب أن تكون استراتيجيتنا هي أنسنة الهولوكوست أي استرجاع البعد التاريخي والإنساني لكل الظواهر الإنسانية والتاريخية، بما في ذلك الهولوكوست.

وقد حول الصهاينة والعالم الغربي الهولوكوست إلى أيقونة بأن نزعوها من سياقها التاريخي بحيث ننظر لها من الداخل فقط، من منظور غربي وصهيوني حتى يمكنهم توظيفها. ولذا فالطريقة العلمية الإنسانية الوحيدة أن ننظر لهذه الظاهرة من كل من الداخل ومن الخارج في نفس الوقت، إن ما أدعو إليه هو نزع الأيقنة والقداسة عن الهولوكوست حتى تصبح ظاهرة تاريخية إنسانية، وذلك عن طريق وضعها في السياق الفكري والتاريخي للحضارة الغربية الحديثة، بل ويمكن أن توضع في سياق أقل عمومية وهو السياق الألماني (تدهور الاقتصاد بعد معاهدة فرساي التي قامت بتحويل ألمانيا إلى ما يشبه المستعمرة- الاتجاه العام للثقافة الألمانية في ذات الوقت). بل يمكن أن يزداد خصوصية وتضع الإبادة النازية ليهود أوروبا في سياق ألماني يهودي (رفض اليهود الاندماجيين للنازية - ترحيب الصهاينة بوصول النازيين للحكم- التعاون بين الصهاينة والنازيين). فهذا يعمق من رؤيتنا لها ويعطيها بعدا تاريخيا وحضاريا يتجاوز الأحداث المباشرة، ويحررها من التفاصيل والمناسبة المباشرة، كما يجعلنا نراها داخل نمط عام (نموذج) بحيث تتحول من الإبادة النازية لليهود، أي جريمة ارتكبها النازيون، والنازيون وحدهم، ضد اليهود، واليهود وحدهم، إلى الإبادة النازية بحسبانها تبديا لنمط عام في الحضارة الغربية الحديثة.

السياق التاريخي والفكري والحضاري للإبادة

وهذا لن يتأتى إلا بأن نضع الهولوكوست في سياقها التاريخي والفكري والحضاري الغربي. ويجب أن نبين أن ثمة علاقة بين الحداثة الداروينية (المنفصلة عن القيمة) value free والنزعة الإبادية في الحضارة الغربية الحديثة. ولعل أول الأسباب أن العلمانية الشاملة، أي نزع القداسة عن العالم (الإنسان والطبيعة) وتحويله إلى مادة استعمالية. قد أمسكت بتلابيب العالم وبرؤية الإنسان الغربي له، فانحسرت القيم الأخلاقية والدينية وحل محلها الرؤية المادية. ومن ثم لم يعد من الممكن تصنيف البشر على أساس ديني أو أخلاقي أو إنساني (متجاوز للقوانين الطبيعية/المادية). ولذا لم يكن هنالك مفر من تصنيفهم على أساس مادي موضوعي طبيعي كامن (حال) فيهم، وليس مفارقاً لهم. ولهذا، طرح الأساس البيولوجي العرقي أساسا وحيدا وأكيدا لتصنيفهم. وتم المزج بين هذه النظرية شبه العلمية ونظرية شبه علمية أخرى وهي الداروينية الاجتماعية. وكانت الثمرة هي النظرية الغربية في التفاوت بين الأعراق والتي تقسم الجنس البشري بأسره إلى أعراق لكل منها سماته التي يمكن تحديدها علمياً. ومن ثم يمكن تصنيف البشر إلى أعراق راقية عليا: الآريون وبخاصة النورديون، وأعراق دنيا: الزنوج والعرب واليهود. وتفوق العنصر الآري الأبيض على كل الشعوب الأخرى يعطيه حقوقاً مطلقة كثيرة تتجاوز أية منظومات قيمية وأي حديث عن المساواة.

ثم تزايد الإيمان بأن التراكم المعرفي العلمي



والتقدم التكنولوجي والتنظيم التكنوقراطي الدقيق (المنفصل عن القيمة) سيجعل الإنسان قادراً على التحكم في ذاته وفي واقعه تماماً. وعلى التوصل إلى الحلول النهائية لمشاكله كافة (الاقتصادية والسياسية والفلسفية والنفسية). وإلى فرض هذه الحلول النهائية المجردة العلمية الدقيقة (المستمدة من عالم الطبيعة/المادة البسيطة) على الواقع الاجتماعي والإنساني. فيتخلص الإنسان من مشاكله (دفعة واحدة أو تدريجياً) ويستأصل كل ما يقع خارج حدود الحل النهائي أو يعوقه عن التحقق أو يعوق ظهور الإنسان الجديد الكامل (الذي يختلف عن الإنسان كما نعرفه). ومن هنا ظهر الاهتمام بعلوم جديدة مثل تحسين النسل والهندسة الوراثية التي صبت في النظرية العرقية.

وقد صاحب كل ذلك تزايد معدلات النسبية المعرفية، فعالم الطبيعة/المادة هو عالم حركي لا ثبات فيه ولا حدود؛ بحيث أصبح الإنسان يشك في وجود أية حقيقة يقينية، أو في أي معايير أخلاقية. كما تزايد معدل انفصال الحقائق والعلم الطبيعي عن القيمة، والتجريب عن العقل، بحيث أصبح التجريب، المنفصل عن أية غائيات إنسانية أو أخلاقية، هدفاً في حد ذاته. وترجم هذا نفسه إلى ما يسمى العلم المحايد، المتجرد تماماً من القيمة.

وأعتقد أن تزايد معدلات التجريد في المجتمع، أي نزع الصفات الخاصة عن الشيء والتركيز على الصفات العامة فيه والتي تجمع بينه وبين الأشياء الأخرى حتى يتسنى استيعابه داخل الآلة الاجتماعية، بحيث يتحول الأفراد إلى كم يمكن قياسه، أدى هذا الاتجاه إلى تحول الواقع إلى كم لا خصوصية ولا قداسة له، وإلى وحدات كمية متراصة ليست بالضرورة مترابطة.

ويجب أن نؤكد أن المنطق النسبي الذي ينكر القيم الأخلاقية والإنسانية المشتركة والتاريخ ولا يعلي إلا من شأن الصيرورة والإجراءات المنفصلة عن القيمة، يؤدي بالضرورة إلى معسكرات الاعتقال وإلى أفران الغاز. فالدولة النازية قد طرحت رؤية أسطورية للتاريخ الألماني والإنسان الألماني شبيهة من بعض النواحي بالأسطورة الصهيونية. ولكن من منظور الصيرورة البرجماتية، لا يحق لنا أن نتساءل عن مدى صدق أو كذب هذه الأسطورة ولا عن مدى تكلفتها الإنسانية، فأخلاق الصيرورة البرجماتية لا تحكم على شيء خارج صيرورته أو حدوده، وإنما تنطلق من الأمر الواقع. وانطلاقا من هذا الأمر الواقع المتجرد من كل أوهام أو أعباء أخلاقية بدأت النازية في تشييد دولتها القوية. وبدأت أفران الغاز.

ومن المعروف أن أفران الغاز هذه لم تشيد في بداية الأمر من أجل اليهود وإنما من أجل العجزة وضعاف العقول وغيرهم من الناس عديمي الجدوى وعديمي الفائدة الذين كان يطلق عليهم اصطلاح «أفواه تأكل ولا تنتج» useless eaters. ولا يمكن الاعتراض، من منظور مادي إجرائي، على أفران الغاز فهي لن تقضي على شيء نافع من منظور مادي، وإنما ستقضي على شيء لا نفع من ورائه بعد اتخاذ الإجراءات اللازمة، أي دراسات الجدوى العلمية المادية المحايدة المنفصلة عن القيمة. ثم استخدمت أفران الغاز بعد ذلك للقضاء على الجنود الألمان الذين كانوا يسقطون جرحى في المعارك، لأن عملية تمريضهم وإطعامهم كانت تمثل عبئا على الاقتصاد الوطني.

ثم طبق هذا المنطق العلمي المادي بعد ذلك على اليهود باعتبارهم أقلية عديمة الفائدة. فيهود شرق أوروبا، الذين تدفقوا على ألمانيا، كانوا يمثلون - حسب الرؤية النازية- عبئا على الاقتصاد الوطني الألماني، فأعداد كبيرة منهم كانت لا تمتلك المهارات التي يتطلبها الاقتصاد الألماني. كما أنهم كان بينهم نسبة كبيرة من المشتغلين بالمهن الهامشية مثل الدعارة وتهريب المخدرات. ولكن هذا كله لا يهم، فمربط الفرس هو الرؤية النازية التي ذهبت إلى أن اليهود لا يصلحون أن يكونوا جزءا من المشروع النازي لإعادة بناء ألمانيا. وقد ساند موقفهم هذا ودعمه مجموعة من البحوث «العلمية» التي أنجزها مجموعة هائلة من العلماء النازيين «العباقرة». وقد حاول النظام النازي جاهداً، في بداية الأمر، التخلص من يهود شرق أوروبا (خاصة بولندا) بإرسالهم إلى بلادهم بولندا في قطارات مكدسة باليهود، لكنها أوصدت أبوابها دونهم، مثلما فعلت الولايات المتحدة من قبل ومن بعد.

بعد دراسة الجدوى وبعد محاولة التخلص منهم بالوسائل العادية أصبح من الضروري اتخاذ إجراءات أخرى ضد اليهود وغيرهم من العناصر التي لا تتسم بالكفاءة مثل الغجر وأبطال المقاومة في فرنسا. (لم يكن اليهود هم الضحية الوحيدة أو الرئيسية للكفاءة النازية، ولكنني كنت أركز عليهم وحدهم لأن جمهوري هناك كان يتصور ذلك، ولم أكن أريد الدخول في مناقشة جانبية). كانت معسكرات الاعتقال النازية قمة (أو هوة) من قمم انتصار الكفاءة والإجراءات المنفصلين عن القيمة. فالمعسكرات كانت تقع على مقربة من بعض المدن وليس داخلها، ربما لتحاشي تعطيل المرور وحتى يتم نقل المعتقلين بسهولة ويسر. ولعل العناصر الأمنية لعبت هي الأخرى دورها. وحينما كان يصل المعتقلون هناك كانت الإجراءات في غاية الدقة والرشد، إذ كان يقسم اليهود إلى أطفال وعجائز ونساء وغير قادرين على العمل، ثم رجال ونساء قادرين على العمل. وكان كل معتقل يعطى رقما حتى يسهل تصنيفه والاستفادة منه على أكمل وجه. وكان المعتقلون يقفون صفوفا في الصباح حتى تتم عملية فرزهم لتقرير الصالح من الطالح والنافع من عديم الجدوى، بل وكان يفرض عليهم القيام ببعض التمرينات الرياضية حتى يحتفظوا بمستوى عال من اللياقة البدنية.

وكان مدير المعسكر يحاول أن يعظم الربح بكل الوسائل الممكنة مثل أعمال السخرة بالنسبة للقادرين على العمل. أما العناصر عديمة الفائدة، فكان يتم تصفيتها، ولكن ما تبقى منها، أي الجسد الإنساني، فإنه كان يتم توظيفه بطرق مختلفة: حشو الأسنان الذهبي يرسل للخزانة الألمانية ليساعد على ازدهار الاقتصاد الوطني. أما الشعر البشري فيصنع منه فرش أحذية من أجود الأصناف، ويقال أن الشحم البشري كان يستخدم في صناعة بعض أنواع الصابون.

إن الإبادة النازية لليهود لم تكن نتيجة تعصب عنصري غبي أعمى، وإنما هي تبدي نماذجي متبلور للمنفعة المادية والعقلانية المادية ولمجموعة من الحسابات الرشيدة في الإطار المادي، حيث يقوم المرء بنزع القداسة عن كل شيء، ثم يحكم على الواقع بمقاييس مادية متحررة عن القيمة. لقد بلغت عقلانية النازيين المادية أبعاداً متطرفة، فحينما كان أحد الجنود النازيين يضرب الضحايا المتجهين إلى أفران الغاز كان يعاقب أشد العقاب، لأنه حين يضرب أحد الضحايا، فإنه قد دخل معه في علاقة إنسانية. علاقة سلبية نعم، ولكنها يمكن أن تصبح علاقة إيجابية في يوم آخر، مما يعني أن سلوكه ليس منفصلاً عن القيمة.

ولعل ما حدث في جزيرة القرم يبين مدى التزام النازيين بالمنفعة المادية وبالحسابات الرشيدة في الإطار المادي، وعدم انحرافهم عنها. فحينما وصلت الجيوش النازية إلى هناك بدأوا في تجميع اليهود، فأخبرهم رئيس اليهود القرائيين (وهي طائفة يهودية تأثرت بالفكر المعتزلي الإسلامي) أنهم ليسوا مثل اليهود الحاخاميين، وأنهم منتجون وليسوا طفيليين. فبعقلانية بالغة أرسل القائد النازي بأحد ضباطه إلى برلين والحرب مشتعلة، حيث أجرى بحثا في الموضوع، ووجد أن ما قاله رئيس اليهود القرائيين صحيح، فتم فصلهم عن اليهود الحاخاميين ثم قاموا بتجنيدهم في القوات النازية.

هذه هي الحيادية العلمية الباردة المنفصلة عن القيمة. ولذا لم يستثن أحد من المقصلة العلمية الإجرائية الباردة - لا العجائز ولا الأطفال ولا حتى الجنود الجرحى طالما أنهم useless eaters مجرد أفواه تأكل ولا تنتج. ويا لها من حيادية علمية تستحق الإعجاب والتقدير، تماما مثل إعجاب الغرب بالدولة الصهيونية التي تستند صيرورتها إلى مقصلة علمية كفء صنعت في الولايات المتحدة!

الإبادة والتشكيل الاستعماري الغربي

وقد تحققت هذه الرؤية المادية (التي قامت بتفكيك الإنسان وتحويله إلى مادة استعمالية) أول ما تحققت بشكل جزئي وتدريجي في التجربة الاستعمارية الغربية بشقيها الاستيطاني والإمبريالي. فقد خرجت جيوش الدول الغربية الإمبريالية تحمل أسلحة الدمار والفتك والإبادة، وحوّل الإنسان الغربي نفسه إلى سوبرمان له حقوق مطلقة تتجاوز الخير والشر، ومن أهمها حق الاستيلاء على العالم وتحويله إلى مجال حيوي لحركته ونشاطه وتحويل العالم بأسره إلى مادة خام، طبيعية أو بشرية. فاعتبرت شعوب آسيا وأفريقيا (الصفراء والسوداء المتخلفة) مجرد سبمن sub men، مادة بشرية تُوظّف في خدمته. كما اعتُبر العالم مجرد مادة طبيعية تُوظّف في خدمة دول أوروبا وشعوبها البيضاء المتقدمة، واعتُبرت الكرة الأرضية مجرد مجال حيوي له يصدِّر له مشاكله. بل لم تفرق الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية الشاملة في نهاية الأمر بين شعوب آسيا وأفريقيا وشعوب العالم الغربي، فالجميع مادة استعمالية، نافعة أو غير نافعة، ضرورية أو فائضة. فكان العمال ينظر لهم باعتبارهم مادة استعمالية نافعة، ومصدراً لفائض القيمة، أما المتعطلون فهم مادة استعمالية فائضة. وصُنّف المجرمون (وفي مرحلة أخرى، المعوقون والمسنون) على أنهم مادة استعمالية غير نافعة. وهذه المادة يجب أن «تُعالج»، وكانت الوسيلة الأساسية للمعالجة هي تصدير المادة الاستعمالية



الفائضة إلى مكان آخر لتحويلها إلى مادة نافعة إن أمكن (مع عدم استبعاد «الحلول الأخرى» إن استلزم الأمر).

ولنركز على التجربة الاستيطانية الغربية في جميع أنحاء العالم، خصوصا في أمريكا الشمالية، وهي تجربة كانت تفترض ضرورة إبادة تلك العناصر البشرية الثابتة التي كانت تقف عقبة كأداء في طريق الإنسان الغربي وتحقيق مشروعه الإمبريالي. وقد قبلت الجماهير الأوروبية عملية الإبادة الإمبريالية وساهمت فيها بحماس شديد، لأن هذه العملية كانت تخدم مصالحها، كما أوهمتها الدول الإمبريالية ذات القبضة الحديدية في الداخل والخارج.

وتعد العقيدة البيوريتانية (أو التطهرية)، عقيدة المستوطنين البيض في أمريكا الشمالية، هي أولى الأيديولوجيات الإمبريالية الإبادية التي كانت تغطيها ديباجات دينية كثيفة. فكان هؤلاء المتطهرون يشيرون إلى هذا الوطن الجديد باعتباره «صهيون الجديدة» أو «الأرض العذراء» فهي «أرض بلا شعب». وكان المستوطنون يشيرون إلى أنفسهم باعتبارهم «عبرانيين»، وللسكان الأصليين باعتبارهم «كنعانيين» أو «عماليق» (وكلها مصطلحات توراتية إبادية استخدمها معظم المستوطنين البيض فيما بعد في كل أرجاء العالم متجاهلين تماماً القيم المسيحية المطلقة مثل المحبة والإخاء).

وكان كل هذا يعني في واقع الأمر إبادة السكان الأصليين حتى يمكن للمستوطنين البيض الاستقرار في الأرض الخالية الجديدة! وقد تم إنجاز هذا من خلال القتل المباشر، أو الحرب الجرثومية (كأن تترك أغطية مصابة بالجدري كي يأخذها الهنود فينتشر الوباء بينهم ويتم إبادتهم تماما).

وترتبط بالتجربة الاستيطانية في أمريكا الشمالية عمليات نقل ملايين الأفارقة السود للأمريكتين لتحويلهم إلى عمالة رخيصة. وقد تم نقل عشرة ملايين تقريباً، ومع هذا يجب أن نتذكر أن كل أسير كان يقابله بوجه عام عشرة أموات كانوا يلقون حتفهم، إما من خلال أسباب «طبيعية» بسبب الإنهاك والإرهاق وسوء الأحوال الصحية أو من خلال إلقائهم في البحر لإصابتهم بالمرض.

وقد تحققت الإمكانية الإبادية الكامنة في الحضارة الغربية الحديثة بشكل غير متبلور وجزئي في التجربة الإمبريالية والاستيطانية الغربية، ثم تحققت بشكل نماذجي كامل في الإبادة النازية أو في «اللحظة النازية النماذجية» في الحضارة الغربية، أي اللحظة التي تبلور فيها النموذج وأفصح عن نفسه بشكل متبلور واضح، دون زخارف أو ديباجات (ولذا أذهلت الجميع، وصدمتهم المدافعون عن النموذج في صورة الأقل تبلوراً وأكثر اعتدالاً). لقد أدرك النازيون تمام الإدراك أن نظامهم النازي وممارساته الإبادية هما ثمرة طبيعية للتشكيل الحضاري الإمبريالي الغربي الحديث. وقد بين كاتبو سيرة حياة هتلر أن أولى تجارب الإنسان الغربي الاستعمارية الاستيطانية، أي تجربته في أمريكا الشمالية، كانت تجربة مثالية أوحت له بكثير من أفكاره التي وضعها موضع التنفيذ فيما بعد. وكما يقول المؤرخ جون تولاند إن هتلر في أحاديثه الخاصة، مع أعضاء الحلقة المقربة إليه، كثيراً ما كان يعبر عن إعجابه بالمستوطنين الأمريكيين وطريقة «معالجتهم» لقضية الهنود الحمر. فقد قاموا بمحاولة ترويضهم عن طريق الأسر، أما هؤلاء الذين رفضوا الرضوخ فكانت تتم إبادتهم من خلال «التجويع أو القتال غير المتكافئ». ويقول يواقيم فست إن حروب هتلر القارية المستمرة كانت محاكاة للنموذج الاستعماري الغربي في أمريكا الشمالية. وبالفعل صرح هتلر في إحدى خطبه بأنه حين قام كورتيز وبيزارو (وهما من أوائل القواد الاستعماريين الإسبان) بغزو أمريكا الوسطى والولايات الشمالية من أمريكا الجنوبية، فهم لم يفعلوا ذلك انطلاقا من أي سند قانوني وإنما من الإحساس الداخلي المطلق بالتفوق. فاستيطان الإنسان الأبيض لأمريكا الشمالية، كما أكد هتلر، لم يكن له أي سند ديموقراطي أو دولي، وإنما كان ينبع من الإيمان بتفوق الجنس الأبيض. ولذا في مجال تبريره للحرب الشرسة التي شنها على شرق أوربا قال هتلر: «إن هناك واجباً واحداً: أن نؤلمن هذه البلاد من خلال هجرة الألمان الاستيطانية وأن ننظر إلى السكان الأصليين باعتبارهم هنوداً حمراً». وأكد هتلر أن الحرب التي تخوضها ألمانيا ضد عناصر المقاومة في شرق أوربا لا تختلف كثيرا عن كفاح البيض في أمريكا الشمالية ضد الهنود الحمر. ومن هنا كان هتلر يشير إلى أوربا الشرقية باعتبارها «أرضاً عذراء»، و«صحراء مهجورة» («أرض بلا شعب» في المصطلح الصهيوني). ومن أهم عمليات الإبادة ما تم على يد البلجيكيين في الكونغو. في رواية خيالية كتبها عالم اللغة البريطاني اليهودي جورج ستاينر يقول هتلر دفاعاً عن نفسه: «أنا لم أخلق القبح، ولم أكن أسوأ القبحاء، بل إن الأمر أبعد ما يكون عن ذلك. كم عدد التعساء الصغار الذين قتلهم أصدقاؤكم (المستعمرون) البلجيك في الغابات، إما بشكل مباشر أو بتركهم يموتون جوعاً أو من مرض الزهري حينما اغتصبوا الكونغو؟ أجيبوا علي يا سادة. أم يجب علي أن أذكركم؟ عشرون مليوناً. هذه النزعة الخلوية كانت قد بدأت وأنا بعد في المهد صبياً؟ في لعبة الأرقام السوداء لست أسوأ اللاعبين». ثم يؤكد هتلر أن ستالين ارتكب هو الآخر جرائم تفوق جرائمه هو كيفاً وعدداً.

حول الصهاينة والعالم الغربي الهولوكوست إلى أيقونة بأن نزعوها من سياقها التاريخي بحيث ننظر لها من الداخل فقط، من منظور غربي وصهيوني حتى يمكنهم توظيفها

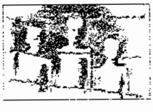
وقد بين ألفريد روزنبرج، أثناء محاكمته في نورمبرج، هذه العلاقة العضوية بين العنصرية النازية والمشروع الغربي الإمبريالي، فأشار مثلاً إلى أنه تعرف لأول مرة على مصطلح «الإنسان الأعلى» (السوبرمان) في كتاب عن «الاستعماري الإنجليزي كتشنر»، وأن مصطلح «الجنس المتفوق» أو «الجنس السيد» مأخوذ من كتابات العالم الأمريكي الأنثروبولوجي ماديسون جرانت والعالم الفرنسي لابوج، وأن رؤيته العرقية هي نتيجة أربعمائة عام من البحوث العلمية الغربية. فالنازية - كما أكد روزنبرج لحاكميه - جزء من الحضارة الغربية.

الإبادة الغربية للألمان

إن الإبادة نمط متكرر، يضرب بجذوره في الحضارة الغربية الحديثة، فهي لم تكن مقصورة على النازيين وإنما تشكل مرجعية فكرية للعالم الغربي الحديث، بل يمكن القول إن هذه الرؤية استمرت حتى الوقت الحاضر. انظر على سبيل المثال إلى سلوك الحلفاء، أعداء النازيين الذين قاموا بمحاكمتهم بعد الحرب: إرنست همنجواي، الكاتب الأمريكي، كان يطالب بتعقيم «الألمان» بشكل جماعي للقضاء على العنصر الألماني. وفي عام ١٩٤٠ قال تشرشل إنه ينوي تجويع ألمانيا وتدمير المدن الألمانية وحرق غاباتها.

وكان هناك حديث متواتر عن ضرورة «هدم ألمانيا» وعن «تحويل ألمانيا إلى بلد رعوية» (بالإنجليزية: باستورالايزيشن patsoralization)، أي هدم كل صناعاتها ومؤسساتها الحديثة (كما حدث لمحمد علي وكما حدث في العراق فيما بعد). ونجحت غارات الحلفاء على المدن الألمانية في إبادة مئات الألوف من المدنيين (من الرجال والأطفال والنساء والعجائز) وتحطيم كل أشكال الحضارة والحياة. وقد بلغ عدد ضحايا الغارات على مدينة درسدن الألمانية وحدها ٢٠٠ ألف قتيل. كما استمرت النزعة الإبادية بعد الحرب، فقامت قوات الحلفاء بوضع مئات الألوف من الجنود الألمان في معسكرات اعتقال وتم إهمالهم عن عمد، فتم تصنيفهم على أساس أنهم DEFS وهي اختصار عبارة «ديس آرميد إنيمي فورسيز disarmed enemy forces» أي «قوات معادية تم نزع سلاحها» بدلاً من تصنيفهم «أسرى حرب». وإعادة التصنيف هذه كانت تعني في واقع الأمر حرمانهم من المعاملة الإنسانية التي تنص عليها اتفاقيات جنيف الخاصة بأسرى الحرب. وبالفعل قضى ٧٩٣,٢٣٩ جندي ألماني نحبهم في معسكرات الاعتقال الأمريكية عام ١٩٤٥، كما قضى ١٦٧ ألفاً نحبهم في معسكرات الاعتقال الفرنسية نتيجة للجوع والمرض والأحوال الصحية السيئة (حسبما جاء في دراسة لجيمس باك James Bacque). وفي الوقت ذاته كان يوجد ١٣,٥ مليون طرد طعام في مخازن الصليب الأحمر، تعمدت سلطات الحلفاء عدم توزيعها عليهم. (هل هذا يختلف كثيراً عما يحدث في فلسطين؟). وهذا ما يحدث في جوانتانامو وفي عشرات السجون السرية التي أنشأتها في بلدان غربية وشرقية مختلفة.

ولم تقتصر الإبادة على



نـزع

التصفية الجسدية بل كانت هناك إبادة ثقافية. فقد قام الحلفاء بما سُمي «عملية نزع الصبغة النازية عن ألمانيا» (بالإنجليزية: دي نازيفيكيشن denazification) للقضاء على النازيين في الحياة العامة. (قد حاولوا في العراق ما سموه debaathification أي استئصال البعثيين تماماً، ليكتشفوا أن الموقف مختلف تماماً. فاضطروا لإسقاط مشروعهم الخائب). فأقيمت ٥٤٥ محكمة دائمة على الأقل يتبعها طاقم من الفنيين والسكرتارية عددهم اثنان وعشرون ألفاً. وقام الأمريكيون بتغطية ثلاثة عشر مليون حالة (أي معظم الذكور الألمان البالغين). وتم توجيه الاتهام إلى ثلاثة ملايين وسبعمائة ألف، أجريت لهم محاكمات عاجلة. وأدين تسعمائة وثلاثون ألفاً منهم. وصدرت أحكام بشأنهم من بينها ١٦٩.٢٨٢ حكماً بتهمة ارتكاب جرائم نازية لا مجرد التعاون مع النظام النازي. وأصدر البريطانيون ٢٢.٢٩٦ حكماً والفرنسيون ١٧.٣٥٣ حكماً، والروس ثمانية عشر ألف حكم. وبحلول عام ١٩٤٥: كان قد تم طرد ١٤١ ألف ألماني من وظائفهم، من بينهم معظم المدرسين في منطقة الاحتلال الأمريكية، وزج بعدد أكبر من هؤلاء في السجن. (ألم يحدث شيء مثل هذا في العراق؟)

وتظهر نفس النزعة الإبادية في استجابة الحلفاء لليابان، فقبل اكتشاف القنبلة الذرية، كان الجنرال الأمريكي كورتيس لي ماي يقوم بتحطيم مدن اليابان الواحدة تلو الأخرى بشكل منهجي لم يسبق له مثيل في التاريخ.

وكانت عملية الإبادة من الشمول لدرجة أن الجنرال جروفز المسئول عن مشروع مانهاتن لإنتاج القنبلة النووية كان «يخشى» ألا يجد أي هدف سليم يمكن أن يُلقي عليه بقنابله ويدمره. ورغم أن الولايات المتحدة كانت تعرف أن اليابانيين كانوا قد بدأوا يفكرون بشكل جاد في إنهاء الحرب، فقد رأى الجنرال جروفز ضرورة استخدام القنبلة مهما كان الأمر (بعد أن تم إنفاق ٢ بليون دولار في تطويرها وهو ما يُعادل ٢٦ بليون دولار بحسابات اليوم).

كما يجب أن نتذكر عمليات الإبادة التي قام بها النظام الستاليني ضد الشعوب الإسلامية في الخانات التركية (التي أصبحت الجمهوريات السوفيتية الإسلامية). وكان عدد شعب التتار وحده يساوي عدد سكان روسيا في القرن التاسع عشر، أما الآن فهو لا يكوّن سوى نسبة مئوية ضئيلة، ومصيره بهذا لا يختلف كثيراً عن مصير السكان الأصليين في أستراليا وأمريكا الشمالية. وقد استمر النظام الستاليني في عمليات الإبادة المنهجية والمنظمة لأعدائه الطبقيين مثل الكولاك الذين قاوموا تحويل مزارعهم إلى مزارع جماعية، بل تم إبادة كثير من أعضاء الحزب الشيوعي ممن عارضوا الديكتاتور. وكانت الإبادة تأخذ أشكالاً مختلفة مثل الإعدام والعمل في معسكرات السخرة. وقد بلغ عدد الضحايا ٢٠ مليونا مات منهم ١٢ مليونا على الأقل في معسكرات الجولاج: هذا حسب التقديرات المحافظة، أما أعداء النظام الستاليني فيقولون إن عدد الضحايا بلغ ٥٠ مليوناً! وبعد حوالي نصف قرن استمرت عمليات الإبادة والتطهير العرقي في البوسنة والهرسك والشيشان. وهناك الاستعمار الفرنسي في الجزائر بلد المليون شهيد. انظر على سبيل المثال مذبحة ستنيف وجويلمار في بلدة قسطنطينة ضد المستوطنين الفرنسيين (الذين يدعون «الأقدام السوداء») الذين كانوا يحتفلون بيوم النصر في الحرب العالمية الثانية. وقد تحولت المسيرة إلى المطالبة بالاستقلال. وكان رد القوات الفرنسية سريعا وانتقاميا بشكل كريه. إذ استخدمت القوات الفرنسية المدافع والطائرات ضد السكان المحليين بشكل مستمر ولمدة ساعتين. وقد قدرت القوات الفرنسية الضحايا بحوالي ١٥٠٠ قتيل، أما المؤرخون الفرنسيون فقد عدلوا الرقم إلى ما بين ١٥-٢٠ ألفا. ولكن الحكومة الجزائرية قدرت العدد بعد الاستقلال بـ ٤٥ ألفا، وهذا ما دعاه رئيس الجمهورية عبد العزيز بوتفليقه بداية الإبادة التي قامت بها القوات الفرنسية ضد الشعب الجزائري. وكان للقوات الاستعمارية الانجليزية نصيبها في محاولة إخماد ثورة الكيكو (الماو الماو) في كينيا في الخمسينيات وفي تجويع ملايين الهنود أو حرب الأفيون ضد الصين.. إلخ. ولا تزال الدولة الصهيونية تحاصر الشعب الفلسطيني وتجوعه وتذبحه، بينما تراقب الدول الغربية هذه الجريمة بحياد يبعث على الغثيان. هذا هو السياق التاريخي والسياسي والحضاري للإبادة النازية ليهود أوروبا. فهي ليست حدثاً فريداً أو نادراً، وإنما ظاهرة لصيقة تماماً بالحضارة الغربية الحديثة، خاصة في تشكيلها الاستعماري.

والله أعلم. ※

※※ بعد أكثر من ثلاث ساعات قضيتها في زيارة المتحف اليهودي في برلين حتى فقدت الإحساس بالاتجاهات الأصلية بسبب التصميم المعماري الذي أصبح النموذج الأمثل لفكرة المتاهة وقدرتها على تشتيت انتباه الزائر وإفقاده القدرة على تحديد الاتجاه حتى ينمو الإيحاء والإحساس بقدسية المكان وربما استحالة التفسير والفهم، قادني القدر إلى مكتبة المتحف، وهناك وجدت هذا الكتاب الذي يتناول الهولوكوست من منظور إسرائيلي. يقع الكتاب تحت عنوان «مراجعة الهولوكوست» (٢٠٠٢)، وهو أحد مؤلفات المؤرخ الإسرائيلي يهودا باور الذي درس في بريطانيا وشارك في عدد من الحروب الإسرائيلية ضد العرب، ولاسيما ما يسمى في الخطاب الإسرائيلي بحرب الاستقلال (نكبة ١٩٤٨). يقع هذا الكتاب في ثلاثمائة وخمس وثلاثين صفحة من القطع المتوسط، ويحتوي على مقدمة وأحد عشر فصلا، إضافة إلى ملحق وقائمة بالمراجع وفهرس للأعلام والموضوعات.

يتناول باور في هذا الكتاب أطروحات عدد كبير من المؤرخين وعلماء الاجتماع أمثال زيجمونت باومان، لاسيما مؤلفه الحداثة والهولوكوست، وكذلك جيفري هيرف، ولاسيما مؤلفه الحداثة الرجعية. ولا يخفى على القارئ أن هؤلاء المؤرخين قد رفضوا تفسير الهولوكوست بوصفها مجرد مأساة يهودية أو مشكلة ألمانية وحسب. بيد أن باور، قبل أن يقوم برفض هذه الأطروحات، قرر أن يعلن للقارئ عن تحيزاته السياسية والمعرفية والإدراكية والمنهجية. فهو يعي تماما أنه يتناول الموضوع من وجهة نظر إسرائيلية وبوصفه مؤرخا إسرائيليا يحيا بين الإسرائيليين في دولة صهيونية، وأن الساسة الإسرائيليين يقومون باستغلال الهولوكوست وتوظيفها لخدمة أغراض سياسية، لاسيما الدعاية الإسرائيلية لإضفاء الشرعية على الدولة الصهيونية وتشجيع الجماعات اليهودية على الهجرة إلى إسرائيل، حتى وإن كان ذلك يعني اللجوء إلى مقارنة العرب والفلسطينيين بالنازيين الألمان الذين يسفكون دماء اليهود الأبرياء ليل نهار. إن باور يدرك أيضا أنه لا يستطيع أن يفصل بين ذاتيته وبين موضوع البحث الذي يتناوله لأن الإنسان وليد الزمان والمكان بكل ما يحملانه من معتقدات وأفكار وأساطير. إن هذا التحيز السياسي والإدراكي يوازيه أيضا تحيز منهجي، ويظهر هذا التحيز في تأكيد باور على أن الباحث يتناول الحقائق بصورة انتقائية نظرا لاستحالة الوصول إلى حقائق موضوعية مطلقة. ورغم وجاهة هذا الطرح من الناحية المنهجية، فإن باور يقوم بتوظيفه، بخلاف مؤرخين آخرين أمثال راول هيلبرج، في تبرير الاستعانة بما لدى الناجين من المحرقة النازية من شهادات شفهية ومذكرات وخطابات في محاولة للوصول إلى نموذج أكثر تفسيرية للهولوكوست، رغم أنه يدرك تماما أن هذه الوثائق عادة ما تحتوي على معلومات مضللة أو روايات غير صحيحة ومبالغ فيها.

---

rethinking the holocaust

(مراجعة الهولوكوست)

Yahuda Bauer

New York: Morris Dickstein

وانطلاقا من تحيزاته السياسية والمعرفية والمنهجية، يؤكد باور على أهمية الهولوكوست بوصفها مأساة حدثت لواحدة من أبرز الجماعات التي لعبت دورا كبيرا في المحيط الإسلامي المسيحي، بل هي كارثة لم يحدث لها مثيل من قبل في تاريخ البشرية. إن باور، رغم ما يضفيه من قدسية على الهولوكوست، يرفض التعامل معها بوصفها سرا ميتافيزيقيا يستعصي علينا فهمه وسبر غوره. فالهولوكوست، من وجهة نظره، عبارة عن حادثة بشرية اقترفها بشر يعيشون على كوكب الأرض في سياق تاريخي وملابسات اجتماعية وثقافية ليس من الصعب تتبعها ومحاولة تفسيرها من خلال المعالجة التاريخية والتحليل العقلاني.

وتقوم أطروحة باور على تفرقة أساسية بين مفهوم الإبادة المنصوص عليه في ميثاق الأمم المتحدة ومفهوم الهولوكوست الذي لا يمكن أن يستخدم، من وجهة نظره، إلا في حالة الجماعات اليهودية في أوروبا أثناء الحرب العالمية الثانية. فالإبادة، من منظور باور، تهدف إلى التدمير الجزئي لجماعة قومية أو عرقية أو اثنية. أما الهولوكوست فهي أيضا إبادة، لكنها مع ذلك إبادة راديكالية شاملة كانت تستهدف القضاء على الجماعات اليهودية بأكملها فردا فردا دون استثناء. بل إن باور لا يخفي إعجابه بضرورة التمييز بين الإبادة genocide وقتل النفس democide، ومن ثم لا غرابة

قداســـــة الهولوكوست

حجـــــــاج أبو جبـــــر

أن يؤمن باور بأن قتل ١٧٠ مليونا من المدنيين على يد الأنظمة الديكتاتورية بين عامي ١٩٠٠ و١٩٨٧ لا يرقى إلى مستوى الهولوكوست ولا مستوى الإبادة، حتى وإن كان أعداد الضحايا من البشر لا يفوق ضحايا الهولوكوست وحسب وإنما يفوق أيضا التعداد العام للجماعات اليهودية في جميع أنحاء العالم بعشرات المرات. إن باور، رغم ذلك، يدرك تماما ما اقترفه الغرب بحق الجماعات والحضارات غير اليهودية على مر التاريخ، فهو يدرك أن جيوش أوروبا قد خرجت إلى جميع أنحاء العالم وهي تحمل أسلحة الفتك والبطش، وأنها لم تتعامل مع شعوب آسيا وأفريقيا باعتبارها شعوبا لها تاريخ إنساني وحضاري وثقافي، ولكن باعتبارها مخلوقات دون البشر. بل إن باور يعلم جيدا أن الجيوش الغربية قامت بنقل سكان أفريقيا وآسيا إلى الأمريكتين لاستعبادهم أو تحويلهم إلى جنود مرتزقة. بل إن باور يعدد الأمثلة الصارخة على الإبادة، لكنه لا يلبث أن يضعها في مرتبة أدنى من الهولوكوست وإن كانت أكثر فظاعة وبشاعة. هذا المنهج ينطبق على إبادة الألمان لشعب الهيريرو (ناميبيا حاليا)، وإبادة الحكومة الصينية والغزاة اليابانيين للشعب الصيني، وكذلك إبادة الألمان للغجر، ناهيك عن جرائم الجولاج، فكلها جرائم لا ترقى إلى مستوى الهولوكوست، تلك الأيقونة المقدسة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها كما يصفها المفكر العربي المعاصر عبد الوهاب المسيري.

ويحاول باور أن يقدم نموذجا تفسيريا يتجاوز أطروحات كل من المدرسة القصدية، التي ينصب اهتمامها على نوايا هتلر بوصفها الركيزة الأساسية لتفسير الهولوكوست، والمدرسة الوظيفية، التي تركز على دور العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها ألمانيا بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية العالمية الأولى ورضوخها لمعاهدة فرساي التي أذلتها وأضاعت هيبتها. ويشمل هذا النموذج ثلاثة محاور أساسية تعبر عن الطابع الخاص للهولوكوست دون أشكال الإبادة الأخرى على مر التاريخ:

(١) الأيديولوجية العرقية المعادية للسامية، (٢) النطاق الجغرافي الواسع للإبادة النازية و(٣) الطابع الشمولي للإبادة. وهذه المحاور الثلاثة كفيلة، من وجهة نظر باول، بأن تثبت خصوصية الهولوكوست وتفردها. فعلى المستوى الأيديولوجي، كانت الهولوكوست نتاجا لوجود أيديولوجية معادية لليهود قامت بتسخير كافة الأفكار المجردة والأساطير الوهمية التي تصور الجماعات اليهودية على أنها جماعات من الطفيليات الضارة والفيروسات القاتلة التي لابد من القضاء عليها حفاظا على الصحة العامة للمجتمع الانساني. وقد قامت النخب النازية بترويج هذه الأفكار المجردة بين المفكرين والطلاب وأساتذة الجامعات، مما أدى إلى انتشار نظرية المؤامرة اليهودية الكبرى في الأوساط الفكرية، وأصبح الاعتقاد السائد هو أن العدو الأول لألمانيا واليوتوبيا الألمانية ليس الاتحاد السوفيتي أو فرنسا أو الولايات المتحدة أو بريطانيا وإنما الجماعات اليهودية التي تتحكم في سياسات هذه الدول. وقد ساعدت هذه الأيديولوجية على طرد الجماعات اليهودية خارج النطاق الأخلاقي بوصفها عرقا غير إنساني وشرا مطلقا يهدد بقاء البشر. أما على المستوى الجغرافي، فإن باور يؤكد أن كافة أشكال الإبادة الأخرى كانت تتم في إطار جغرافي محدود. أما الهولوكوست فلم تكن تستهدف الجماعات اليهودية في ألمانيا أو أوروبا وحسب وإنما أيضا في كافة أنحاء العالم وفقا للرؤية النازية. أما المحور الثالث فيتمثل في الاشارة إلى شمولية الهولوكوست ونزعتها الراديكالية في توظيف الأطر البيروقراطية والوسائل التكنولوجية المعقدة في استئصال شأفة الجماعات اليهودية واجتثاثها من فوق الأرض.

إن هذا الدفاع المستميت عن قدسية الهولوكوست لا يتسق فقط والبحث التاريخي وإنما أيضا وأطروحات كثير من المؤرخين اليهود - أمثال سيبيل مينتون وهنلري فريدلاندر - الذين يرون أن الهولوكوست تشير، ضمن ما تشير، إلى الجرائم التي ارتكبها النازيون ليس فقط بحق الجماعات اليهودية وحسب وإنما أيضا بحق الغجر والمعاقين والمرضى الذين كان ينظر إليهم بوصفهم كائنات غير اجتماعية يجري الإجرام في جسدها مجرى الدم. ويكفي هنا أن نشير إلى حقيقة تاريخية واحدة، وهي أن ٢٢ ألفا من الغجر قد أبيدوا بعد ترحيلهم إلى معسكر أوسفيتش وأن ١٠٠ ألف من المعاقين قد تم التخلص منهم في إطار القتل الرحيم والحفاظ على الصحة العرقية. وهذا ما دفع كثيرا من علماء الاجتماع اليهود إلى التأكيد على أن الهولوكوست ليست مجرد مأساة يهودية أو مشكلة ألمانية وأن فكرة العداء لليهود ليست كافية لتفسير الهولوكوست. ذلك لأن العداء لليهود لم يكن حكرا على ألمانيا، بل إن حدة معاداة اليهود في ألمانيا كانت أقل وطأة من غيرها في الدول الأوروبية الأخرى. ويوجز عالم الاجتماع البولندي اليهودي زيجمونت باومان تلك الرؤية في قوله بأن

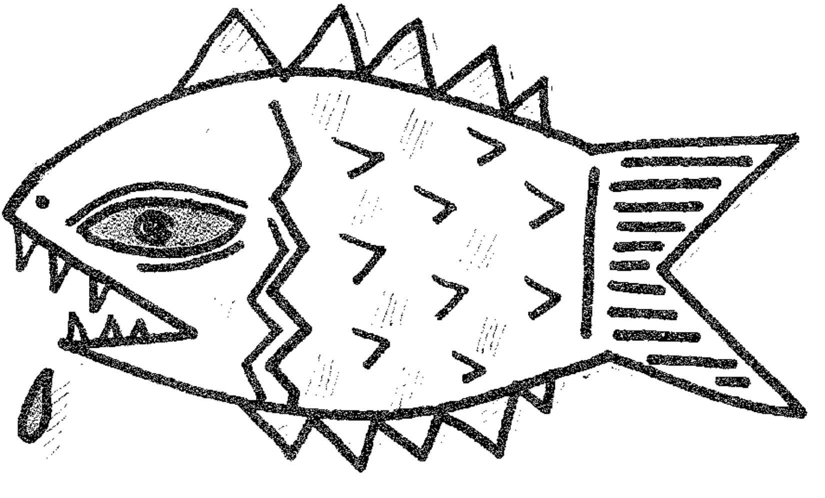


الهولوكوست ليست ملكية خاصة للجماعات اليهودية وأن معاداة اليهود ليست بيت القصيد وإن كانت قد لعبت دورا في عملية الإبادة والتعبئة الأيديولوجية ضد الجماعات اليهودية. وبعبارة أخرى، المشكلة كامنة في الحداثة الغربية وسعيها إلى تحقيق الفردوس الأرضي من خلال ثقافة تكنولوجية بيروقراطية لا تعتد بفكرة الوازع الأخلاقي أو الضمير الإنساني.

إن إبادة الجماعات اليهودية في أوروبا لم يكن معدا لها سلفا ولم تكن تستهدفهم بالذات، فقد كان ترحيل الجماعات اليهودية، كما يرى المفكر على جوتس، جزءا من الخطط الديموغرافية التي كان يطمح النازيون إلى تنفيذها، حيث كانت ترمي تلك الخطط إلى إعادة رسم خريطة شرق أوروبا بحيث يتم تجميع العرق الألماني في نطاق جغرافي متلاصق ومتماسك وبعدها يتم ترحيل الجماعات اليهودية وغيرها خارج المجال الحيوي الألماني، بيد أن الحرب لم تنته بالسرعة التي كانت تتوقعها ألمانيا وأصبحت الجماعات اليهودية وكذلك الغجر والسلاف والمرضى والمجرمون فائضا سكانيا لابد من التخلص منه. إن باور يرفض هذه الأطروحة ويؤيد، في المقابل، رؤية دانيال جولدهيجن الذي يرى أن معاداة اليهود الإقصائية هي السبب الرئيس للإبادة النازية. ورغم أن هذه رؤية اختزالية واحدية لأنها تستبعد العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها ألمانيا إثر الحرب العالمية الأولى، فإن باور لا يخفي إعجابه الشديد بها.

إن حرص باور على أيقنة الهولوكوست، كما يقول المفكر العربي عبد الوهاب المسيري، جعله يخصص فصلين كاملين في هذا الكتاب عن المقاومة اليهودية للجرائم النازية، رغم أنه يدرك أن المؤرخين من مختلف الجماعات اليهودية يشككون في فكرة وجود مقاومة يهودية، بل إنهم يؤكدون على السلبية اليهودية وتواطؤ المجالس اليهودية مع الحركة النازية والحركة الصهيونية مما أدى إلى إبادة الآلاف من الأطفال والنساء وكبار السن. وهنا ينصح باور القارئ بأن يأخذ في الحسبان نوايا رؤساء المجالس اليهودية، فما كان بوسعهم أن يفعلوا أفضل من ذلك لأنهم كانوا يضحون بالقليل من الضحايا من أجل إنقاذ الكثيرين من أعضاء الجماعات اليهودية، ولاسيما الشباب لأنهم رمز المستقبل في غد أفضل! إن أطروحة باور تتعارض مع رؤية هيلبرج الذي يرى أن الجماعات اليهودية قد تخلت منذ الأزل عن فكرة الجهاد الجماعي أو الاستشهاد، ولذا لا يوجد ما يمكن أن نطلق عليه مقاومة يهودية أصلا. لكن باور لا يرضى بذلك التفسير ونجده يوحد بين اليهودية ويقرنها بالصهيونية ويدعو القارئ إلى النظر إلى القوة العسكرية الإسرائيلية ليرى أن الجهاد اليهودي حقيقة واقعة وليس مجرد خيال!

والغريب في الأمر أن باور يؤكد مرارا وتكرارا أن إسرائيل ليست بحاجة إلى الهولوكوست، بل إنه يدعي أن الهولوكوست قد تسببت في تأخر إعلان قيام دولة إسرائيل رغم جهود الجماعات السرية المسلحة (الهجانة) ضد الوجود البريطاني. إن باور الذي يشيد بدور الهجانة يشير أيضا إلى تعاونها مع البريطانيين وإلى تورطها في عمليات الهجرة غير الشرعية إلى فلسطين. لكنه يرفض رؤية مؤرخي ما بعد الصهيونية الذين يؤكدون على أمرين: أولهما، صعوبة تجاهل الصراع العربي الصهيوني عند مناقشة الهولوكوست، وثانيهما: ضرورة الاعتراف بأن الصهيونية حركة استعمارية حاولت اغتصاب حقوق السكان العرب وطردهم من أرضهم وأنها قامت بتوظيف الهولوكوست من أجل السيطرة على فلسطين أو المناطق الاستراتيجية بها على الأقل. أما العناصر السرية المسلحة فلم تكن سوى أذرع عسكرية لحركة قومية عضوية عنصرية كانت تعيش على استغلال اللاجئين البؤساء من أجل تحقيق أطماعها السياسية في فلسطين. ■



الثـــورة الثالثـــة..

[١]

** دأب أنصار العولمة والحداثة الإشارة إلى الثورات الثلاث التى توالت على المجتمعات البشرية الواحدة تلو الأخرى: أولها: الثورة الزراعية.. وكيف أنها وطنت الناس فى مجتمعات صغيرة وأقامت قواعد الحضارات، ثم الثانية: الثورة الصناعية، وكيف أنها قامت بتغيير هائل فى «طرق الإنتاج» وتنوع التخصصات، وعلاقة الناس «بالمنتج»، ثم جاءت بعدها «الثورة الكونية الثالثة» التى يعيشها العالم الآن!!

ومع الثورة الكونية الثالثة - نتفق جميعا - يمر عالمنا الآن بتحول هائل عميق، من الصعب استيعاب أبعاده، وبالكاد يمكن تفهم قواه الدافعة، وتصور التبعات الضخمة لزخم حركته - تحول يغذى الخوف بقدر ما يغذى الخيال ويثيره.. حيث عالم جديد لم يسبقه ما هو أكثر منه أملاً ولا أشد خطراً!!

ورغم أن الكثيرين يتفقون مع نظرية «الثورة الكونية الثالثة».. وأنا واحد من هؤلاء.. إلا أن هناك أبعاداً «جوهرية» قد تكون محل اختلاف فى التقييم، وبالتالى محل خلاف فى الرأى. وفى تقديرى أن أهمها وأولاها هى التى تدور حول «نوعية التغيير» الذى شمل العالم كله، والذى يصفه أولئك عادة بأنه «التحول الهائل العميق»، معتبرين أن هذا «التغيير» أسهم فى رخاء البشرية من خلال الإنجازات الضخمة و التطورات العلمية الحديثة.

والحقيقة أن هذه الثورة الثالثة، وإن كانت قد أثمرت رؤوس أموال عملاقة وغنى فاحشاً «للأقلية» أثمرت- وفى نفس الوقت- إفقاراً كبيراً «للأكثرية».

ثم هناك «البعد الثقافى» لهذه الثورة. ومن اليسير أن نلاحظ كيف أن ماترتب عليه من «تغلغل ثقافى» أحدث «زلازل ثقافية» و«انشقاقات» داخل المجتمعات؛ خصوصاً أن هذا «التغلغل الثقافى» لم يستأذن أحداً فى الدخول إلى أعماق هذه المجتمعات، كما حدث فعلاً لدى الغالبية من «الدول التابعة» بدون مشاركة منها.

دعونا نضرب مثلا بدرة العقد لدى المتحمسين «للثورة الثالثة»، والذين يذكروننا كل حين كيف أن: «اللغة الرقمية (من أصفار وآحاد)- تدفعها حاسبات أكثر قوة ونظم اتصالات أسرع من أى وقت من ذى قبل- تتيح لنا أن ندمج آفاق الكلمات والموسيقى والصور والمعلومات كما لم يحدث من قبل.. إنها تخلق صناعات جديدة تتلاشى بجوارها الصناعات القديمة».

وإنى أتساءل: لماذا تسعى لأن تتلاشى أمامها الصناعات القديمة.. لماذا هذه «القوة» التى غلفت هذا «الجديد» ثم تداخلت واخترقت حدود الدول من خلال «قوانين العولمة» فتعمقت أكثر وأكثر؟ لماذا تفرض هذه «الثورة التقنية» نفسها على البلاد البعيدة عنها، وتفرض على الصناعات القديمة أن تتوقف.. لماذا هذا الجبروت؟! وأين موقعه من «مفهوم العلم وقيمه ومعانيه»؟ وأين هو من «لحظة الإبداع» لدى المبدع؟ وما الهدف مما يبدعه ووظيفته؟!

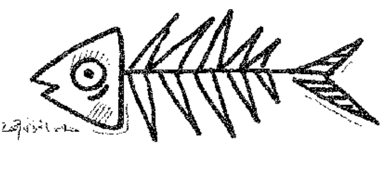
لماذا لا نترك الناس يتلقون ما يشاءون عندما يشاءون. لماذا نفرض «الحديث» على هذا الجيل الحالى الذى تعوّد القديم وأتقنه؟. لماذا لا تسمح «بالسرعة الطبيعية» لتطور الإنسان وهى عادة بطيئة، وهذا البطء يحقق الإتقان المطلوب؟! ألا يكفى أنك تستطيع أن تقطع المسافات فى ثوان، وتخترق حوائط الحجرات، وتصل إلى سمع الإنسان وبصره أينما يوجد؟! وأكثر من هذا وبكل وسائل «الإغراء».. تطرق مراكز جميع الغرائز لديه؟ ألم يكن هذا كله كافياً..

يشير أنصار الحداثة إلى عدد من التأثيرات «النوعية الكبيرة» الناتجة عن هذه الحضارة الثالثة.. وكيف أن عمق تأثيرها الثقافى يشتمل على ثورة فى «معنى الوقت» و«معنى المكان».. و أتساءل هنا: طالما أن «الأثر» يصل لهذا العمق.. وهذه حقيقة.. ألا يصبح علينا جميعاً أن ننتبه ونبحث عن الأثر الناتج عن ذلك داخل «النفس البشرية»، وبالتالى «المجتمعات البشرية»؟!!

عندما تتغير مفاهيم أساسية وهامة مثل مفهوم «الزمن» ومفهوم «المكان».. ألا يستحق هذا لحظة توقف ومراجعة؟! هل ستكون هذه قوى تجانس أم قوى تنوع؟ هل ستستخدم لسحق الضعيف أم لمنحه فرصاً جديدة؟!

إنه تساؤل فى منتهى الصدق والعمق.. وإنى لأستقرئ بعض الإجابات من مفعولها الواقعى والحاصل حتى الآن: أنها تقوم بسحق الضعيف.. إنها لا تسمح «بالزمن» الضرورى لتغيير البشر.. فمع السرعة الحاصلة لا يستطيع الإنسان أن يتمثل «الجديد» ويستوعبه ويتقنه، وبالتالى لا يستطيع أن ينافسه!! إن هذه الحركة داخل الموازين بين البشر لم تحدث فقط بين «الدول» بل حدثت أيضاً داخل «مجتمعات» الدول الرائدة لهذه الحضارة؛ لأن داخل هذه المجتمعات توجد «مواجهة» أخرى بين «القوى والضعيف»؛ ولأن «ديناميكيات» التفاعل بين البشر واحدة فالنتيجة أيضاً تكون هى نفس النتيجة: غنًى فاحش للقلة، وإفقار شديد للأكثرية داخل مجتمعات كل الدول سواء الرائدة أو الناقلة عنها!!

وحتى «القوانين» التى أثمرتها هذه الحضارة، والتى بها رفعت الحدود بين الدول ومعها فرضت قوانين «التنافس» فرضاً.. بين المنتج والمنتج المماثل له.. ثم تسعى الآن لأن تفرض قوانين «حقوق الملكية الفكرية» المشكوك فى نواياها.. هذه القوانين: فى خلفيتها النظرية وأهدافها



صـــــلاح الديـن إبراهيـــم

يـــــدأت تظهـــر داخــل مجتمعاتنــا
فئــات مـــن النــاس هــم أســاســا من الشــباب
الصــاعد الذى يتفتــح فيــرى.. فــإذا به لا يجـد بين يـديه شيئا.. أى شـىء.. لا مــال..
ولا فــــرص عمــــل.. والمطلــــوب منـــه أن
يعــيش ويســتكمل طـــريق الحيـــاة

إلى أين نحـن ذاهبـون؟!

الاستراتيجية، انما تسعى لحماية «القوى» أمام «الضعيف»، وبالتالى تحقيق «قوة مضافة» للقوى، و«خصم قوة» على حساب الضعيف!

وفى المقابل.. نجد أن الثورة الثانية الصناعية هى التى خلقت قوى استحدثت الكثير من القوانين التى اطمأن فى ظلها العمال على حقوقهم فى مواجهة أصحاب رؤوس الأموال: ابتداء من التأمين الصحى ومعاشات العمال وأسرهم. وقننت تعويضات إصابات العمل.. نستطيع أن نقول: إن الثورة الثانية أضافت إلى الأولى السابقة عليها ولم تنتقص منها، وكانت النتيجة المحصلة هى إحداث تحسينات كبيرة لحياة الكثيرين من البشر.

وشىء آخر.. يبدو أن الثورة الثالثة فى الطريق إلى «ارتكابه».. أن تضع لنفسها أهدافاً جديدة وتسعى لتحقيقها على أرض الواقع.. فقد أهدرت كل العلوم السابقة عليها، ما عدا العلوم الطبيعية، وتناغمت بتميزها عن كل ما سبق عليها من فكر ورؤى.. وإذا بها تفتح آفاقاً لم تخطر على بال أحد من البشر، وترسم لنفسها «عالماً مختلفاً» تسعى لتحقيقه فعلا.. وهى تطالبنا.. ومن الآن.. أن نستعد لأن نتعايش مع نوع من أنواع «الوجود» هو أقرب إلى «الفنتازيا» التى نراها على المسرح أكثر منه «للواقعية» التى نعرفها ونتعايشها.. وعلينا نحن أن ندرك اختلاف المقاييس والأحاسيس داخل كل منهما والناتجة عن المسافة الكبيرة الواقعة بينهما.. وعلينا نحن أن نتغير من الآن لأن نستوعبها ونتعايش معها.. عجبى!!

هل تستطيع «طاقات البشر» المتناثرين على سطح الكرة الأرضية أن تتمثل هذه الحضارة الثالثة، وتستفيد منها لصالحها كما هى لصالح صانعيها وصالح مستثمريها.. كيف وهى تصل خلال وسائل اتصالاتها بعيدة المدى إلى كل مكان، وتخترق الحوائط والأبواب وتفرض على الجميع محتوى ثقافتها وعقائدها.. وقد تفننت ضمن ما تفننت فى تحقيق «تأثيرية عالية» على الأجيال الصاعدة فانفلت زمام السيطرة التربوى من أيدى الآباء والأمهات. وهكذا تنقاد لهم الأجيال القادمة إلى حيث يريدون!!

مع هذا «الاختلاف النوعى العظيم» بين استراتيجية وأساليب وأهداف الثورتين الكونيتين الأولى والثانية معاً.. وبين الثورة الثالثة التى نتعايش معها الآن.. ألا يحق لنا أن نتساءل: إلى أين نحن ذاهبون؟!

فى تقديرى.. أن هذا «العالم» الذى تدعو له الثورة الكونية الثالثة، وتطمح إلى أن يمتد وجوده إلى «فضاء الفكر وتخيلاته».. هذا «العالم الجديد» الذى تسعى لتحقيقه لن يشتمل إلا على نسبة ضئيلة فى الجنس البشرى الموجود فعلا على وجه الأرض، وتكون النتيجة الطبيعية أن «تسير» الناس الموجودة وتسود العالم وتفرض عليه رؤياها.

إنه «الفارق النوعى الضخم» بين توجهات وحال الشمال عن توجهات وحال الجنوب، والناتج عن هذه الحضارة.. هذا الفارق يتعاظم مع كل جديد: ونحن على مسار هذه الحضارة الكونية الثالثة.. وخلال هذا التعاظم تتضح عكسية الاتجاه بينهما.. «الشمال» من ناحية، و«الجنوب» من ناحية أخرى!!

فى تقديرى.. إن هذه الحال تتضمن «مخاطر».

دعونا نتساءل عن «طبيعة ونوعية» هذه الثورة الكونية الثالثة، وكيف أن «التغيير الشامل» الذى طرأ وظهر على العالم هو تغيير يتوازى مع نوعيتها.. بل هو جزء من صلبها.. فى لحمها ودمها.. و«السرعة» و«قوة الدفع» التى تميزت بهما لم تكن تسمح لها بأن تتباطأ لتراعى بعض «الإنسانيات»، وذلك لسبب بسيط هو أن «مفهوم الإنسانية» لديها هى التى صنعته، وقد اختلف تماماً عن المفهوم الذى كان سائداً خلال الثورتين الكونيتين السابقتين عليها، والذى ما زال سائدا بين الناس عامة.. فهى عندما تشير إلى «الإنسانية» فإنها تعنى شيئاً آخر.. لذلك وجب الحذر!!

يقولون «إننا نعيش فى عالم الوفرة.. عالم الاكتشافات العلمية المبهرة...» ويؤكدون أنه: «قد تم إنجاز الكثير لجعل العالم مكاناً أفضل.. حيث تحررت المستعمرات، وحصلت الكثيرات من النساء على حقوقهن، وتم الاعتراف بالحقوق السياسية والمدنية لكثير من الأقليات العنصرية والعرقية والدينية.. وحتى المنشقون أو الخارجون عن السياق العام.. وذلك انطلاقاً من إنسانيتنا المشتركة...» وأقول: يا ليت هذا صحيح..

إنها إنسانية للأسف، لم تعد مشتركة.. فعلى الرغم من إنتاجاتها الهائلة، والمنافع التى لا تنكر والناتجة عن العولمة، وعن التجارة.. إلى جانب الإنجازات الهائلة التى تستجيب لها المؤشرات الاجتماعية لأغلب سكان الأرض.. على الرغم من كل هذا فهناك ارتفاع مثير للقلق من عدم المساواة بين الدول وداخلها.. وهذه التباينات فى ازدياد مستمر!!..

والحقائق الرقمية تقول الكثير:

إن ٢٠٪ من سكان العالم الأعلى دخلا.. يستهلكون ٨٥٪ من ثروات العالم!!

والباقون، أى ٨٠٪ من سكان العالم، يعيشون على ١٥٪ من ثروات العالم!!

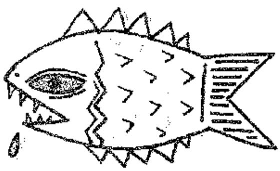
و«سدس» البشرية يحيا حياة هامشية!!

و١٠٪ من سكان العالم يعيشون على أقل من ٠،٥٪ من دخل العالم!!

٤٠ ألفاً من البشر يموتون يومياً لأسباب تتعلق بالجوع!!

علينا أن نعترف أن هذا «التناقض الظاهر» هو نتيجة لتناقض موجود داخل هذه الحضارة الثالثة، ويجب أن نتعرف عليه أولا، ونتعرف عليه من «المنظور الكونى»، وليس من منظور يركز فقط على «العالم الثالث» ويراد من الخارج، إن هذا «العالم الثالث» لم يكن منفصلا على مدى هذه العقود الخمسة الأخيرة- وهى عمر الثورة الكونية الثالثة- لا.. بل كان على اتصال بها: بل أكثر من مجرد اتصال أو تواصل، بل كان على حالة «تفاعل معها».. لقد تم رفع وإزالة الحواجز بين «المجتمعات» على سطح الكرة الأرضية بحيث أصبح علينا أن نفكر بلغة «الكونية».. عندئذ سنرى ونستطيع أن نستقرئ ما هو حاصل، وعندئذ نستطيع أن نتفهم هذا «التناقض الظاهر».

من زاوية هذه الرؤية الكونية الشاملة علينا أن نجيب على الأسئلة المحورية: هل نتقبل مثل هذا التدهور الإنسانى باعتباره أمراً لا يمكن تجنبه، أم أننا سنكافح لمساعدة من هم أقل



حظنا؟ «هل ننظر لأنفسنا أننا غير مسئولين عن أجيال المستقبل أم أننا سنعمل بوصفنا مستخلفين في الأرض ومكلفين بعمارتها؟».

الإجابة البسيطة والمباشرة: نعم.. نحن سنستمر دائماً مسئولين عن أجيال المستقبل، ونحن **لا نستطيع غير أن نعمل** بوصفنا مستخلفين في الأرض ومكلفين بعمارتها؟ أهذا هو الإنسان أينما كان، وحيثما يكون..

أين المشكلة إذن؟

إنها «العلمية المادية» داخل «الفكر الشمالي الغربي المعاصر».. الآن.. إننا وبدون إدراكنا لهذا «المنهج» ونوعيته لن نستطيع أن نستوعب ما هو حاصل «داخلهم».

خلال هذه «العلمية المادية المطلقة» لديهم.. نستطيع أن نستقرئ «المطب الفكري» الخطر الذي انزلق إليه «الفكر الغربي الشمالي».. الفكر المادي التقني.. النفعي.. الفكر الذي تغاضى عن معاني الوجود.. إن مرور الزمن على هذه الحضارة ومع هذا «التوجه» قد كشف كيف أن «الحرية» التي دعت إليها وقدستها ورفعت عنها كل القيود والحدود، وفي كل المجالات، قد أفرزت الرغبة والشهوة واللذة بكل أنواعها، وبدون أي نوع من أنواع «الكوابح».. لا الداخلية، أي «داخل النفس» ولا «الخارجية» داخل «المجتمع»!!

والآن.. بدأ يظهر في أفق الفكر والواقع كيف أن هذه الرؤية القاصرة للإنسان تفتقد للمستقبل.. كيف يكون تحت تأثيراتها.. كيف يكون حال الإنسان: المرأة.. الرجل.. الطفل.. الأسرة.. كيف يكون حال المجتمع الإنساني في المستقبل القريب!!؟

لقد ضللهم كثيرا إحساسهم بالتميز والرقي عن باقي البشر.. وقد اتضح تدريجيا كيف أن «الكونية» التي دعت إليها هي تتضمن «غرضية» بالغة الخطورة. لقد اتضح ظاهراً أن هذه «الكونية» تتضمن شرطاً غريباً أن يرتبط بفكر يعتبر نفسه فكراً حراً. هذا الشرط: أن يتمسكوا هم في الشمال «بالسيطرة» التي أصبحت من منظور «قانون القوة» حقاً!! لأن «قانون القوة» هذا يعطي لأمريكا «حق السيطرة» داخل المجتمعات الشمالية نفسها طالما أنها هي الأقوى. وقد أعلنت أنها ستسعى جاهدة أن تحتفظ «بموقع» السيطرة هذا. ولنتخيل معاً، ومع مرور عدة عقود أخرى، عندما يترسب هذا المفهوم إلى داخل مجتمع أمريكا نفسها، ثم داخل المجتمعات الشمالية جميعها، وبدون كوابح، وبدون قواعد. وهي تضيع الحدود بين قوانين القوى وقوانين الحقوق.. علينا أن نتخيل مجتمعاتهم هذه الموجودة الآن والغلبة فيها للذة والشهوة، ثم يضاف إليها «غلبة القوة».. أي مجتمع سيكون؟! وأي رؤية يستقرئون خلالها «الآخرين»؟!! وأي أسلوب يتعاملون به مع هؤلاء الآخرين؟!!

كل هذه الأبعاد معاً.. وبالضرورة.. لها دور كبير في تداعيات هذه التغييرات الكبيرة الحادثة على امتداد سطح الكرة الأرضية كلها.. داخل هذه «المنطقة من البحث والتفكير» تتكشف لنا «الحقائق الواقعة» فعلا. وبالتالي تكون «مدخلا» لحل هذه المشاكل الناتجة عن هذه «الثورة العارمة»..

داخل هذه المنطقة من البحث.. منطقة «سلوكيات البشر» ودورها في تقدمهم أو تأخرهم.. سنجد أن التفسير الظاهر على السطح والذي يردده الكثيرون، سواء داخل الدول المتقدمة أو الدول المتخلفة.. الدول التي تعتبر الآن «عبئاً» على هذه الحضارة المتنامية- هذا التفسير السائد يقول: إنه بالرغم من المساعدات الاقتصادية والعلمية التي قدمتها الدول المتقدمة للدول المتخلفة فإنهم في الأخيرة تمسكوا «بنظم الحكم الدكتاتورية» لديهم، والتي نتج عنها «تكميم الأفواه» وبالتالي «كبت الإبداع» لدى مواطنيهم، وأن القلة النادرة منهم هم الذين استطاعوا أن يلحقوا بطابور العلمية التقنية.. وهؤلاء لم توفر لهم دولهم فرص العمل والمستوى الاقتصادي والأدبي الذي يستحقونه، لذلك هاجروا بعيداً إلى حيث يثمرون في «بيئة علمية» **لا تتوفر سوى خارج بلادهم، وليحققوا** مكانة أدبية واقتصادية تتناسب معهم. وبالنسبة لدولهم كانت النتيجة دائماً خسائر مضاعفة!!

هذا هو التفسير المحبب للغالبية، وفي ضوء هذه الرؤية، ومن زاوية هذا المنظور يصبح «العلاج» هو: «نشر العلمية في التفكير»، ومعها إشارة واضحة إلى ضرورة «نشر الديمقراطية». كما تتضمن هذه الرؤية ضرورة **تغيير** نظم الحكم السائدة في العالم الثالث.. الآن..

وقد تحصل هذا «الخط العلاجي» على أعلى الأصوات **كما لو كان** يتضمن «الحقيقة الكاملة». ولكن هذا المنظور وهذه الرؤية تغاضت كثيراً وتعامت عن حقائق أخرى يجب إبرازها والاعتراف بها.. وهي أنه- وللأسف الشديد- وخلال نفس هذه الفترة الزمنية كانت دول الحضارة في الشمال هي التي تدعم نظم «الحكم» في دول «الجنوب»، وبدون دعمها المتواصل لها لم تكن لتستطيع أن يطول عمرها.. وحتى الآن.

لقد كان «للحكومات» في الجنوب دور كبير في استمرارية تخلف دوله، بل أيضا في استمرارية تخلف أسلوب التفكير في دول الجنوب، وبعده عن «العلمية». بل كان لهم دور كبير في «تغلغل دول الشمال» داخل هذه الدول ودعم تعثرها وبعدها عن اللحاق بمسيرة المعارف والمعرفة المتسارعة على مستوى العالم وعلى كل المحاور، فابتعدت «جموع الناس» داخل هذه المجتمعات الجنوبية عن طريق «العلمية» أكثر وأكثر.. وبالتالي بقي «الحال» على ما هو عليه حتى داخل الدول التي سبق أن كان لها باع طويل على مسار الحضارة الإنسانية.

وكان «**للوسائط الإعلامية**».. العالمية والمحلية في هذه الدول.. دور كبير في استمرارية هذا الحال طوال هذه العقود.. كانت التغطية وكان التضليل عاليين.. كما كان لها طابع ونوعية غريبة.. كانت تساعد على التوقف والتدهور.. وبالرغم من كل هذا استمر «عالم الشمال» يبدو بريئا من كل هذه «العوامل الفاعلة التحتية»!!

والآن.. وقد استنفدت هذه «المرحلة» طاقاتها ومعطياتها، ولم يعد حالنا في الجنوب قابلا للاستمرار أصلا، وهناك علامات كثيرة تشير إلى إقدامنا على «**مشاكل من الحجم الكبير**».. ويكفينا خلال هذا السياق المركز والسريع الإشارة إلى «البطالة» داخل مجتمعات الشباب.. فمع مرور الزمن بدأت تظهر على السطح قطاعات في «الشباب- بدون- مال».. وبدون «آمال».. **فكيف يواصلون حياتهم؟؟** أصبحوا كالقنابل الزمنية لا ندري متى تنفجر.. لقد وجب الحذر.

[٢]

يقول (برونوفسكي) إن «العلم» هو:

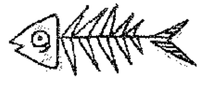
«تنظيم لمعارفنا بالطريقة التي تمكن من الإلمام والتحكم بقدر أكبر في الطاقة الكامنة في الطبيعة والقدرة التي تتضمنها. إن «العلم» يذهب أبعد كثيراً من التطبيق «النفعي» للمعرفة: إنه يصوغ منظوراً شاملا للعالم ابتداء من فلسفة الكون اتصالا يجعلنا بشراً. هنا تقع «قيم العلم» وهي ليست قواعد وإنما هي الإشراقات الأعمق والتي يتحدد على ضوئها العدل والظلم، والخير والشر، والوسائل والغايات: ضمن إطار من الوضوح الثاقب».

هكذا يتضمن التعريف «العلم الطبيعي» مع توجهات إنسانية.. معاً.. وهكذا يجب على أي «تطبيق نفعي» أن يتوازى مع «الإنسانية» ليصبح هو «التوجه الأمن» للتطبيقات العلمية.. هكذا يتعين على «العلم» أن يذهب كثيراً أبعد من مجرد التطبيق النفعي للمعرفة: فهو يتضمن منظوراً متطوراً شاملاً للعالم، ابتداء من رؤية فلسفية للكون: كما يتضمن اتصالاً يجعلنا بشرا. وهكذا يحسم الكثير من القضايا حول «أنا والآخر» التي تتضمنها «الإنسانية الحقيقية» والتي معها يصبح «المنهج إنسانياً» كما يجب أن يكون.

إذن.. «المعرفة والعلم».. قلت أو كثرت.. هما المجال الذي نتعايش خلاله ونتواصل.. فيتحقق وجودنا.. و«الوضوح الثاقب» هنا هو «اليقين».. والإشراقات الأعمق» تترابط داخلها «الوسائل والغايات».. وخلال هذا الترابط يتباين الخير من الشر والعدل من الظلم، فيتحقق كل شيء واضحاً ثاقباً.. هنا نصبح «بشراً» كما هي حقيقة البشر.. ويتحقق «الوجود الإنساني الحق».

إذن.. «المعرفة والعلم» هما «المجال» الذي يتحقق معه الوجود الإنساني الحق

كان «للحكومات» في الجنوب دور كبير في استمرارية تخلف دوله، وبعده عن «العلمية»



خلال تواصل الناس مع بعضهم البعض، بل أكثر من هذا: كلما زادت المعارف والعلوم كلما تعالت «الإنسانية».

ولكن.. وللأسف.. إن «تواصل الناس» الحاصل الآن وهو «الظاهر لنا» وخلاله نستطيع أن تستقر أحوالنا. ونستطيع أن نتعرف عليها ونقيمها، فنتعرف على دواخلها.. وما تحتويه.. إن هذا التواصل هو حقيقة.. عكس التوجه العلمي الذي يتضمنه تعريف برونوفسكي..

إن الإنسان منا يجب أن تكون لديه دائما رغبة في تغيير الحال الذي هو عليه ويطوره إلى ما هو أفضل، وعليه أن يسعى لهذا التغيير والتطور تحت «مظلة العلم». ولكي يستطيع أن يحقق هذا عليه أن يتبع المنهج العلمي في التفكير: فيكون تفكيره موضوعياً وعقلانياً يتناول ما تدركه حواسه في أشياء لها واقع مجسد أمامه، يسعى خلاله أن يتعرف على الحقيقة كما يراها.. وكما يجدها. هكذا يستطيع أن يبدع الجديد، ويستطيع أن يطور واقعه. وخلال هذا السعي، على الإنسان منا أن يتجرد من «القديم» ويسعى إلى بناء «الجديد». وخلال هذا.. عليه أن يتمسك بقواعد السلوك.. هكذا يستمر إنساناً.. كما يجب أن يكون..

ولأن برونوفسكي عالم فيزيائي وبيولوجي ومفكر.. أي أنه شخص عرف الحياة، وعرف الفكر، وعرف المادة، أي أنه «متفقه في علمه»، فقد جاء كلامه شاملاً لأبعاد كثيرة.. حيث خرج من «ملموسات الطبيعة» إلى «الإشراقات الأعمق» التي تضيء الطريق، فيبين العدل من الظلم، والخير من الشر، ويمكن التمييز بين الوسيلة والغاية. إن هذه الإشراقات هي التي تعرفنا «القيم» التي تعطي «العلم» بعداً أعمق كثيراً من مجرد التطبيق النفعي للمعرفة؛ بل خلالها يصبح من الممكن صياغة «منظور شامل» للعلم ابتداء من «فلسفة الكون» اتصالا يجعلنا بشرا. وهكذا تصبح المعارف وما تتضمنه.. قدوة للإنسان.. عليه أن يتبع أسلوبها ونمطها، فمن خلالها يستطيع أن يستقرئ الصح والصحيح.. فالمعارف تتضمن «الإشراقات الأعمق» التي يتحدد على ضوئها العدل والظلم، الخير والشر واضحاً ثاقباً.

ونتفق على أن «الممارسة الفعالة» للعلم تحتاج إلى «الحماية الفعالة» للاستقلالية التي تسمح بحرية التساؤل، وأن هذا هو الذي يؤدي إلى بحث علمي حقيقي، إذن.. من متطلبات العلم أيضاً: القدرة على تحدي الإجراءات والتنظيمات القائمة.. وحق الإنسان في أن يعبر.. حتى لو اتسمت آراؤه بالغرابة، من حقه أن يسمع ويصغي إليه.. فالذي يحدد الصح والخطأ هنا هو الرضوخ للاختبار العلمي الصارم، على أن تكون «الأدلة» وحدها هي معايير التقييم عند الاختلاف.. أي أن «العلمي» هو الذي يحكم.

هكذا يتبين واضحاً أن العلم يهدف إلى البحث عن الحقيقة بالتفكير العقلاني المبدع الذي يتضمن ويكتسب «المعرفة الجديدة».. وهو يبدأ من حقوق الإنسان.. وينتهي بها.. يبدأ بالحرية في التساؤل والتعبير، وينتهي بالتمسك بقواعد السلوك المغلفة بالتسامح.

إن «حرية التساؤل» هذه هي امتداد لحقوقه كإنسان.. والتي بدونها لن يكون هناك بحث علمي حقيقي!!

ولكن هل يمثل هذا كله علامة من «علامات التقدم» داخل الحضارة المعاصرة..

للأسف لا. لأن هذه الأبعاد السامية والتوجهات الراقية تخلو منها الحضارة السائدة الآن: فهي.. وهي تواجه «الرأي الآخر» تراه «متخلفا».. ولا تتعامل معه بأي نوع من أنواع التسامح. بل رفعت «العصا» عالية، ورفع «الآخر» العصا في المقابل، وأصبح الدائر على ساحة الأحداث «عراكاً» لا معنى له.. اتسم بالعنف.. بدا هذا واضحاً في التعامل اليومي مع الأحداث، وفرض نفسه على الجميع!!

إن الاستدلالات كثيرة على أن الحضارة المعاصرة التي يقودها الشمال والغرب- علماؤه ومفكروه وساسته- لم تتبع تشخيص (برونوفسكي) للعلم وقيمه.

ولأن السلوكيات الظاهرة هي التي تعبر عن «القيم السائدة» داخل الحضارات فإن ملاحظة السلوكيات السائدة الآن توضح أنها قد جرفت أمامها أبسط معاني الإنسانية، فالتركيز العالي السائد هو على «العلمية المادية التقنية التطبيقية»، وهو تركيز يعلن عن التوجه الذي يفضح أحادية «النظرة العلمية» لديهم.

إن أحداث ١١ سبتمبر في الولايات المتحدة الأمريكية وما تلاها على المسرح العالمي كله يمكن اعتبارها اختبارا قاسيا وكاشفا للحضارة المعاصرة كلها. لقد كشفت النقاب عن هذه الحضارة فظهرت على حقيقتها: وتبدى جوهرها: إن «الأقوى هو الذي يجب أن يكسب».. وأمامه وفي مواجهته يلغى عن «الآخر» أي معنى معروف للإنسانية.

إن «القوة» التي تغلف الحضارة الشمالية هي نتيجة بحوثه العلمية العملية المادية وتطبيقاتها.. هذه القوة وممارساتها تخلو من كل «القيم الإنسانية للعلم».. التي أشار إليها (برونوفسكي) خلال كلمات بليغة واضحة!!

إنها «الرؤية الأحادية» للكون.. والتي هي «رؤية الأقوى».. هي التي نعيش في ظلها الآن، والتي شملت العالم كله.. وهو الآن يتذوق مرارة تطبيقاتها.. تهديداتها ومخاطرها.. أمسك بها «جماعة» من البشر وأعلنوها «سلاحاً» يمكنهم من فرض «إرادتهم» على «الأصدقاء» مثل ما هي على «الأعداء»..

فلننتبه إلى «الهدف» و«المعنى» الذي تتضمنه الأحداث من حولنا!!

يقولون أن العلم يشكل في حد ذاته ثقافة كونية الأبعاد: وسيتلاقى الجميع خلال «إنسانيتهم المشتركة».. لكنني أستقرىء «المسافة» بينهما بعيدة!!

ويقولون أنه حتى يحقق «العلم» وعده كاملا ويصبح هو «القوة الأولى» للتغيير في العالم فإنه يحتاج من «العلماء» أن يعملوا على «توظيف البحث العلمي» في القضايا الملحة لعالمنا اليوم:

إزالة الجوع.. وتقليل الفقر..

والترويج للمنظور العلمي وقيم العلم..

وإقامة علاقات مشاركة حقيقية بين علماء الشمال وعلماء الجنوب..

«كل هذا يحتاج إلى التزامنا المشترك لنعمل من أجل مصلحة العائلة الإنسانية بأكملها».

كل هذا جميل لو أن العلم الذي نقصده.. هو «العلم» - الذي عرفه (برونوفسكي) - الذي تغلفه القيم... أما العلم السائد في العالم الآن، والذي يوجه كل شيء.. ليس هو هذا العلم الراقي.. الإنساني.. الذي نتكلم عنه.. بل هو «علم» آخر.. من «نوعية» أخرى.. بدأت منذ تم إرساء القوانين التي ترفع الحواجز بين الدول، ولقد بدأت فعلا المنافسات داخل «سوق عالمية حرة»، كما أنه قد تم بناء الجزء الأكبر من «الميديا سريعة التوصيل» بين أنحاء المعمورة. وبدأت تظهر نتائج هذا الاندماج الثقافي لعوالم البشر وتجمعاتهم على سطح الكرة الأرضية، بالرغم من اختلافاتهم النوعية.

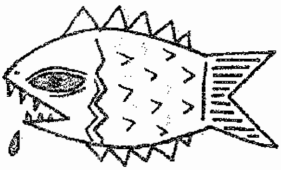
[٣]

إن منطقة «الإنسانية المشتركة» هي «موقع» المراجعة المطلوب.. يجب أن نراجع أنفسنا مرات ومرات في «أسلوب التعامل البشري» السائد الآن بين الناس.. «الإنسانية المشتركة» ستكون هي ما نبحث عنه لتصبح «النظرة الكونية الشاملة» هي «المنظور» الذي علينا أن نستقرئه، وقد أصبح البشر على سطح الكرة الأرضية مجتمعا واحدا فعلا، ولو على غير اختيار حر من البعض منهم، ولكنه أصبح أمرا واقعا.

يجب أن نعود إلى «قيم العلم» التي أشار إليها (برونوفسكي)، ونبحث عنها داخل «منهج» التفكير العلمي المعاصر.. سنكتشف أن «الثورة الكونية الثالثة» قد أخرجت «القيم» من المنهج العلمي الذي تتبعه. فقد استدرج «العلم العملي التجريبي» وبحكم «طبيعة المادة» - استدرج «العلوم الإنسانية» إلى منطقة «المادية». فترك «معاني» الوجود والجمال والحياء.. تركها خارج حدوده، وانطلق العلم العملي يبحث في «الخلية».. ويستحدث الآلات والأجهزة، وجرف أمامه كل ما يخص الطفولة.. والمراهقة.. والسعادة.. والآمال.. بدا هكذا، واستمر على هذا المنوال وهذا المنهج!!

ثم.. عندما انبهر الجميع بإنجازاته «التكنولوجية» وتطوراتها.. زادت قوى الدفع لدى «المنهج العملي» دون قواعد، ودون كوابح

أحداث ١١ سبتمبر
يمكن اعتبارها اختبارا قاسيا وكاشفا للحضارة المعاصرة كلها



إنسانية. فطور هذا المنهج آلاته أكثر وأكثر، واستمر خلال هذه الأدوات يلعب على أوتار غرائز الإنسان.. ابتداء من أبسطها: الاستسهال والاستعجال.. إلى أقواها: التملك والسيطرة والجنس، فوسع دوائرها جميعها، وأضاف إليها قوة دفع أكبر وأكبر.

وتدريجيا تضاعفت «جاذبية» كل هذه المجالات ودفعت الجميع إلى تطوير «المنتج» وإغراء «المستهلك»، وكانت النتيجة الخطأ أن اختلط التفكير بالخيال وتداخل الخير مع الشر، وذابت الأخلاقيات. فتعالت «الذاتية لدى الناس» فتسطحت الإنسانية، وتخدرت الضمائر، وتحجرت المشاعر.. حدث كل هذا وتوالت حلقاته دون أن ينتبه أحد إلى النتائج التي أصبحت على شاكلة «مضاعفات» داخل العلاقة الإنسانية السائدة الآن.

وخلال استحداثات الجديد وراء الجديد، وما نتج عنه من «حالة من الانبهار» استمرت في التصاعد التدريجي الذي لا يتوقف، والذي يجذب أعدادا جديدة من البشر يتزايد باستمرار.. مع كل هذا.. حدث تغيير نوعي في «أسلوب حياة» الناس، فشمل فكرهم ومشاعرهم.

إن «التغييرات» الكبيرة لم تحدث في الأفراد والمجتمعات من وراء ظهر الثورة الكونية الثالثة- روادها ومؤيدوها المشاركون فيه- بل حدثت تحت أبصارهم واضحة كالشمس.. فمثلا: أحد البنوك أو المصانع- أو أي «موقع إنتاجي» لأي حلقة من حلقات التحديث- عندما يطور عمله في نظام الموارد البشرية ويستغني عن ٧٥٪ من الأفراد العاملين لديه.. علينا أن نتخيل حال هؤلاء الفئة من البشر وهم أكفاء نشيطون بدليل عملهم في هذه المواقع الإنتاجية- وحتى لو وجد بعضهم حلا لمشكلاتهم فماذا يفعل الباقون؟!

إن شيئا مثل هذا يحدث في كل موقع «تقدمي» على طريق «التطور» الذي ترسمه له «الثورة الكونية الثالثة»، ولو تخيلنا أن سرعة التغيير والتحديث تزداد ولا تتوقف عن إفراز الجديد.. علينا أن نتخيل أن كل مجال تقدم تقني علمي يجرف أمامه فئة من البشر، قلت أو كثرت!!

وهناك مجالات هامة أخرى وجب مراجعتها للتأكد منها.. فقد بدأ يظهر في نتائج «الأدوات التكنولوجية الحديثة» على تنوعها.. بدأت تظهر نتائجها على «الأطفال» ابتداء من بطء نمو أجهزتهم العصبية إلى تعثر ملكة الإبداع لديهم.. إلى شروخ في «العلاقات الاجتماعية» داخل الأسر، وبين الناس عامة.

ثم.. ونحن على هذا الحال وبينما كان «العالم الشمالي» يخطط للبدء في مرحلة جديدة من مراحل الثورة الكونية الثالثة.. مرحلة تختلط فيها «الثقافات» أكثر وأكثر، وتتحقق فيها الأغراض أسهل وأسهل.. إذا بأحداث سبتمبر سنة ٢٠٠١ وآثارها «الصادمة» على قيادات أمريكا والمجتمع الأمريكي، تدفع المخططين لسياسة أمريكا إلى اتخاذ القرار الأمريكي الحاسم بالسيطرة على العالم أجمع.. وعلى ظن منهم بأن هذا يحقق لأمريكا ومواطنيها «الأمن والأمان» اللازمين.

إن هذا الذي حدث في سبتمبر وما نتج عنه من «صراعات» دائرة الآن على اتساع العالم كله، لهو «الاختبار» الحقيقي لهذه الحضارة المعاصرة.. لقد وجب بذل الجهد حتى نستطيع نحن سكان العالم أجمع- أن نتجنب الكثير والكثير!! لقد وجب العودة إلى «التفكير» وتحري المنهج الصحيح.. ووجب أن تكون نقطة بدايتنا هي: «واقع الحال».

إن «التناقضات الظاهرة» هي نتاج لسلبيات كبيرة واقعة داخل هذه الحضارة.. إن هذه «السلبيات» هي التي تقول لنا إن هناك «خطأ» كبيرا في عميق أحوالنا.. خطأ عظيما في توجهاتها الرئيسية والأساسية.. وهذا يضيف إلى كل «المخاوف الهائمة» مخاوف أخرى تظهر في الأفق واحدة تلو الأخرى!!

هذا التوجه الحاصل يفتقد للجزء الهام في تعريف (برونوفسكي) للعلم، وبالتالي يفتقد «العلمية المتكاملة» التي تتضمن «المعلومة والمعنى».. وفي نفس الوقت!!

هذا هو أحد الأخطاء العظيمة التي وقعت فيها هذه الحضارة: أن تغاضت عن «المعاني» التي يتضمنها «الجديد» الذي يستحدث.. ومن هنا أثمرت تناقضاتها الموجودة داخلها، لأنها ركزت في بحوثها على كيفية عمل «آلة الإنسان»، أما عمل «الإنسان» داخل مجتمعه وتفاعلاته مع «إنسان آخر حوله» فقد تركته خلفها.. خارج «معملها العلمي»!!

وكانت النتيجة أن عرف الكثير عن «آلة الإنسان»، بل واستحدثت أهداف جديدة لدراسة جسد الإنسان على مستوى جيناته، وامتد تفكيره في اتجاه تحسينها وتطويرها!! ولا أدري قياسا على ماذا؟؟.. فهي تتولى هذا التوجه دون معرفة كافية عن «الإنسان في مجتمعه»، وبالتالي دون حسابات كافية كيف سيكون «تفاعلاته» بعد «تطويره» المزعوم!!

إن «أحادية الرؤية» في دراسة الإنسان والسعي لتغييره وتطويره لهو «مطب علمي خطير»، وهو يفتقد إلى العلمية المتكاملة المتسامية التي شملتها تعريف (برونوفسكي) الحكيم والعميق.

لقد أثبتت «أحوال العالم الآن» الحاجة الشديدة لمراجعة كل شيء.. إنه «المطب العلمي» الذي وقع فيه قادة «الثورة الكونية الثالثة».. مطب «الأحادية أحادية التوجه العلمي».. إن هذه «العلمية» هي التي مكنتها من أن تنجح في تفتيت الذرة ولم تنتبه إلى أنه اعتداء على «الطبيعة».. وعندما نتجت عنها طاقة هائلة لم تفكر في أن تتراجع.. لا، بل سعت داخل معملها إلى أن تسيطر على هذه الطاقة ونجحت في ذلك، وبعد أن حققت هذه السيطرة توجه فكرها أن تصنع منها «قنبلة» لها من القوة ملايين أضعاف قنبلة البارود، ولسعة الدائرة التي يحدثها الأذى الذري على البشر اهتمت بالبحث في إطالة المدى الذي ترسل إليه هذه القنبلة مع إتقان دقة إصابة الهدف.. وكان أن أصبح في يد «بعض» البشر قنبلة ذرية!!

وخلال هذا المشوار العلمي تعرف العلماء على «الأليكترون».. ثم على تطبيقاته التقنية والتي ظهرت بعدها هذه التنفيذات العلمية الممتدة «للفكر العلمي» و«التجربة العلمية».. هكذا كان «مفترق الطرق» الذي خلاله انبثقت «الثورة الكونية الثالثة» وقدراتها العالية والمستمرة في العلو.

لقد كان «المجال العلمي» الجديد ثريا بالمعطيات والإمكانيات والتطبيقات، وتدريجيا أصبح «العلماء» هم «الثروة» الفعالة داخل الدول.. يدعمونها وتدعمهم.. وتدريجيا توجه هذا «التفكير العلمي المادي» إلى ابتداع أسلوب «الاستثمار الحديث» خلال الطاقة السياسية الكامنة في الاقتصاد وتأثيراتها على «الحكومات».. ثم جاء «فكر العولمة» من ضمن الإبداعات الجديدة داخل «فكر» الإنسان «الأقوى».. لقد أصبح «السلاح الذري» غطاء لهذه «الحرب الاقتصادية».. وفي باطنها تحتضن الحرب العلمية بين العلماء.. وبدون «إنسانية»!! وهكذا - سيدي - تغيرت «نوعية» العالم.. العالم الذي صنعه الإنسان بيده وفكره، وكان «العلم» هو أداته، بدأ بها.. ثم أحكم سيطرته على «الآخر» بها أيضا!!

ربما كان هذا هو التوجه العلمي للنصف الأول من تعريف (برونوفسكي) للعلم. أما النصف الثاني.. الجزء الإنساني الحالم الجميل لتعريف العلم فلن تجد له أثرا على أرض الواقع..

إن العنصر البشري هو دائما العنصر «الفاعل» من ناحية، كما أنه هو أيضا العنصر «المتلقي» من الناحية الأخرى.. إنه «الفاعل والمفعول به» في نفس الوقت.. وكلاهما يجب أن نبحث عنه.. فبسبب التقنيات الحديثة فقد الكثيرون وظائفهم، ففقدوا الغطاء الاجتماعي والصحي الذي كانت الدولة تكفله لهم في مقابل مشاركتهم فيما يقومون من عمل وإنتاج.. ثم سلمت حكوماتهم هذه المسئوليات للمجتمع المدني ليقوم برعايتهم بديلا عنها.. وظنت أن هكذا لم تعد هناك مشكلة!!

إنه «التفكير» الذي تميز به الإنسان عن غيره في الكائنات.. لقد وجب أن نراجعه فنتحصل على «المنهج» المطلوب اتباعه. إن ضلال مساراتنا يعبر دائما عن ضلال تفكيرنا.. هناك خطأ ما حادث

إن المشكلة الأولى أمامنا في الجنوب
هي أن نتحصل على «رؤية نقدية» لأحوالنا..
هناك خطأ ما حاصل داخلنا



سواء داخل العالم «الشمالي» كما هو حادث داخل «العالم الجنوبي».. وجب علينا البحث عنه والتعرف عليه أولا.

هذه هي الخطوة الأولى التي يجب أن نراجع أنفسنا في ضوئها.. عندئذ سنجد أن الذي حدث فعلا داخل «شعوب الشمال الغربي».. في الشمال الغربي، هم الذين يقودون الحضارة السائدة الآن.. وبعد أن تمكنوا من الإحكام على زمام أمورها استضعفوا شعوب الجنوب: الشرق أوسطية والأفريقية وبعض الآسيوية والأمريكية.. وبدأوا يفرضون عليها «سياسات» نتاج فكرهم هم في الشمال الغربي.. والمشكلة الكبرى أنهم ظنوا خطأً أنهم قادرون على أن يحققوا عليهم سيطرة كاملة!!..

هكذا يكونون قد ضلوا طريق «الفكر العلمي الصحيح».. ابتداء من «إنسانية ناقصة» إلى استحالة تحقيق أهداف «همجية النوعية» داخل عالم تواصل مع بعضه البعض.. داخل قرية كونية واحدة!! إنه «الفكر» أحادي التوجه.. تغلغلت داخله «علمية جرداء» بدون أي قدر من «الإنسانية»، فبدا وظهر واضحا كم هو قبيح وعاجز!!

[٤]

أما نحن في الجنوب.. فبجانب الخطر الزاحف من الشمال بدأ يظهر في الأفق خطر آخر قادم من «داخلنا».. فمع مرور الوقت ونحن على ما نحن عليه من «حال توقف» وبدون أي علامات «نمو حقيقي».. بدأت تظهر داخل مجتمعاتنا فئات من الناس هم أساسا من الشباب الصاعد الذي يتفتح عمري.. فإذا به لا يجد بين يديه شيئا.. أي شيء.. لا مال.. ولا فرص عمل.. والمطلوب منه أن يعيش ويستكمل طريق الحياة.. كيف؟!كيف بدون أي إمكانيات.. بدون أي أمل.. هل هذا ممكن؟ وإلى متى؟

من هنا وجب أن تتحرك «العقول» لتفكر.. عقول الذين يملكون والذين لا يملكون.. وبدون حركة هذا الفكر سيحدث تصادم يجب أن نتجنبه!!

ومع هذا «الحال النفسي الاجتماعي» تعامينا عن معاني الإيمان بالله والتزاماتها.. التزاماتها التي تبدأ بالسلوكيات الشخصية كأفراد.. ثم السلوكيات الجماعية كمجتمع.. وحقق كل منا لنفسه أسلوبا خاصا لملاقته بربه، رب العالمين، تضمن اكتفاءً ذاتيا بالرضا عن النفس.. وسكت الجميع.. لا أحد ينتقد «آخر» ولا يصححه.. وبدونا كما لو كان الجميع على حق.. فتمادينا في التعامي أكثر وأكثر.. فتعمق تخديرنا أكثر وأكثر.. نحن نعي كل شيء ظاهر على السطح.. وفي نفس الوقت نفتقد مستوى «الوعي الأعمق» الذي تترابط داخله الأشياء، تترابط معا في كلية واحدة.. فيتم الوعي بها.. هذه الخطوة الأخيرة لا تتحقق داخلنا دون أن ندري.

إن المشكلة الأولى أمامنا في الجنوب هي أن نتحصل على «رؤية نقدية» لأحوالنا.. هنالك خطأ ما حاصل داخلنا.. والدليل القوي على ذلك هو «نتائج تفكيرنا» الظاهرة الواضحة.. هي نتائج ضئيلة ضحلة.. «عملية التفكير» نفسها متوقفة لدى البعض منا.. ومع من يبدأ «التفكير» يتوقف في منتصف الطريق.. والنتيجة: لا ثمرة!!

ولأننا في النهاية مع كل الموضوعات نضحك، أو على الأقل نبتسم!! ثم بهدوء نستطيع أن ننام.. كما لو كانت «مشاعرنا» قد انفصمت عن نفوسنا، ونتج عن كل هذا أن أصبح ما يدور داخلنا لا يرضي أحدا.. فكتمناه.. وتوقفنا عن أن نراجع أنفسنا.. ثم توازى حالنا هذا مع تربيتنا لأولادنا وبناتنا، وأصبحنا ونحن نربيهم لا ندربهم على الاهتمام بالأمور العامة لدينا.. فقط «الخاص» هو المهم بل الأهم.. وأصبحنا هكذا نوجه أولادنا وبناتنا وننصحهم بالابتعاد عن «العام» والتركيز على «الخاص».

ويتضح مفعول هذه «المصيبة التربوية الكبرى» عندما يذهب أولادنا إلى «الجامعة» التي تضم «الصفوة».. أي الذين سيقودون الدولة في كل مجالاتها.. وفي المستقبل، إذا بهم يجدون تعليمات واضحة «بتجريم التعبير» عن العام أو حتى «التفكير» في العام.. بتعليمات «أعلى سلطة بالبلاد».. وبقبول غريب من «القطاع التربوي» المسئول عن تفكير الأجيال!! فهكذا يتحقق وجودنا «كأفراد» على حساب ذوبان وجودنا «كمجتمع».

أبعد كل هذا نبحث عن المسئول عن الأحوال المتدهورة لدينا.. أحوالنا التي يتسارع انزلاقها على منحدر التدهور أكثر وأكثر؟.. أليست هذه «الأحوال» أكبر دليل على أننا فقدنا قيمة ومعنى التفكير الذي يتميز به الإنسان عن سائر الكائنات؟..

وفي يقيني أن الخطأ قد تركز لدينا في النهاية في منطقة الأحاسيس والمشاعر.. فتسطحت.. هكذا وكفى!! أحاسيسنا تقول أن «ليست هنالك مشكلة» فتجرف كل ما تقوله عقولنا.. فتعطلت لدينا «صفارة الإنذار» التي تعودت أن تعمل أوقات «الطوارئ».. فلم تعد هناك طوارئ.. فحالنا كله أصبح هو نفسه طوارئ.. طوارئ مستمرة.. مع تسطح في المشاعر!!.. والآن ألا يتطلب هذا «الحال الأسوأ» الذي نتوجه إليه أن تتحرك «العقول» لتفكر؟!

إن «القيم» - كما أشار (برونوفسكي) - ليست مجرد قواعد.. بل هي الإشراقات الأعمق التي يتحدد على ضوئها العدل والظلم والخير والشر.. كل هذا ضمن إطار من الوضوح الثاقب.. أي اليقين بصحة كل هذا.. وبالتالي يصبح هذا «الفكر» وما حواه من «توجهات» هو الذي يوجه «سلوك» من يتمثله، وسيكون واضحا للجميع أن هذا السلوك يهدف إلى تحقيق الخير والعدل، وتجنب الشر والظلم.. هي ثنائية العلم التي تسمح بالتقدم الطبيعي والتقني.. ويتوازى معها - وفي نفس الوقت - التقدم داخل مجالات الإنسانية، بكل أوجهها وفروعها، ولصالح أكبر عدد ممكن من البشر.

ومن هذا المنظور.. ليست المساعدة العينية هي المطلوبة.. لا.. بل الضروري أن تصبح «المساعدة» في مجال التنوير للآخرين وكيف تتحسن أحوال معيشتهم من خلال إمكانياتهم هم؟.. مساعدة تترافق مع مكافحة «الاستغلال والاحتكار» لا مساعدة تكرس «الإفقار» وتزيد الحاجة إلى المعونة!!

إن غياب الوعي لهذه الدرجة - لدينا ولديهم - يؤدي إلى التواء منهج «التفكير» لدرجة تجعل الشخص بالرغم من إيمانه «الحقيقي والصادق» مستعدا لتقبل المتناقضات، وسهلاً.. يصبح سكوته عليها ممكنا!!

وهكذا تتوالى «التأثيرات الضاغطة» وتتناقلها الأجيال المتلاحقة بسهولة، فتتحقق الازدواجية داخل نفوس عدد كبير من «المؤمنين المعاصرين»، فتتعدد أوجه «الابتعاد» عن أصول الإيمان الحق، وتبرز «سلوكيات» داخل الفرد المؤمن، وداخل الجماعة المؤمنة، فيتعاظم الخوف من المسئولين بديلاً عن الخوف من الله، وتتسع مجالات الطاعة لآخرين غير الله.

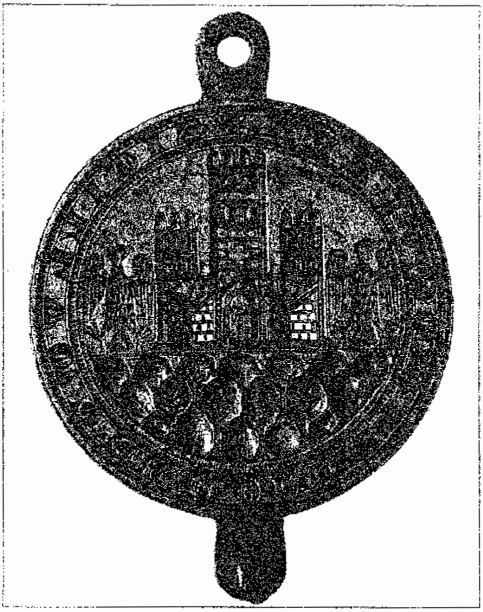
هكذا تتضمن «شخصية المؤمن المعاصر» سلوكيات متعددة الاتجاهات، فتصبح شخصيته مشوهة.. يحدث هذا دون أن يدري أو يعي.. ويفقد «المرآة الاجتماعية» التي يرى فيها نفسه ويوجهها على أساسها.. فالغالبية أصبحت هكذا: والنتيجة المحصلة هي «تفكك المجتمع المؤمن»، ففقد الصلابة الصحيحة التي عادة يتميز بها!!

وبلغة «الدنيا»: يفقد المجتمع المؤمن المعاصر فرصته في أن يصحح نفسه: لأنه فقد الكثير: النظام.. النظافة.. الإنتاج.. الإتقان.. الميسرة.. أصبح «حاله كالعدم»: ضعيفا غير قادر على أن يقاوم ريحا عاتية قادمة عليه، وبالتالي يتعرض للإهانة والمهانة والاعتداء والهزيمة، دون ما إحساس عميق بالألم.

إن تعريف برونوفسكي للعلم أوضح ما يكون.. إنه يتضمن «الالتزام السلوكي» المتناغم مع ما تحصل عليه العلم من معارف.. ومعارف الإنسان المؤمن باتت تلزمه بسلوكيات تصبح هي «الحل» الذي يصبح معه من الممكن أن يتحقق «حال مجتمعي» تتضاءل معه معاناة الإنسان الفرد داخل المجتمع الإنساني الواسع.. كيف؟ كيف يتحقق هذا داخل المجتمعات المؤمنة بوجود «إله» هو خالق الكون، «باعث» للناس لحياة أخرى.. يكون معها «الحساب»؟!.. ومع وضع هذا الحساب في الاعتبار فهو يسعى في دنياه الآن أن يكثر «الخير» داخل سلوكياته.. استعدادا لهذا الحساب..

هكذا.. ■

عندما يذهب أولادنا إلى «الجامعة».. يجدون تعليمات واضحة «بتجريم التعبير» عن العام أو حتى «التفكير» في العام



ديمقـــراطيــة الأثريـــاء

رافايل ج. پيـنـادو سانـتـايـا

كان العصر الذى عاش وعمل وفكر خلاله ابن خلدون - القرن الرابع عشر - واحدا من أكثر القرون فى حياة البشرية تحولاً وانتقالاً. تحول وانتقال نحو التفكك والاضمحلال فى العالم العربى.. وتحول وازدهار نحو النهوض والانبعاث فى العالم الغربى، أى تحول وانتقال بين ضفتى البحر المتوسط، المكان والمجال الذى تنقل من خلاله ابن خلدون ما بين تونس والمغرب والأندلس ومصر.

حول عصر ابن خلدون وبمناسبة مرور ستمائة عام على رحيله، وفى إطار احتفالية رعاها الملك خوان كارلوس، كتب مجموعة من البحاثة «الخلدونيين» عدداً من المقالات والدراسات، وصفاً وتحليلاً لعصر الفيلسوف العربى/ العالمى. تنشر ترجمتها العربية قريباً فى كتاب يصدر عن مكتبة الإسكندرية بالتعاون مع عدد من الهيئات الثقافية من بينها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والمجلس الوطنى للثقافة والفنون والتراث فى قطر ومؤسسة التراث الأندلسى فى إسبانيا.

وتنشر «وجهات نظر» فى هذا العدد مقالا ثانيا من هذه المقالات، مدركين حقيقة أن الاهتمام الفكرى العالمى بالرجل لم يكن إلا نتيجة طبيعية لما احتوته مقدمته من مقولات ونظريات يصلح جانب كبير منها لأن يطبق على الواقع الإنسانى فى عموميته وشموله.

المحـــــرر

إن النظرة الخاطفة على المسرح السياسى فى القرن الرابع عشر تؤدى إلى الخروج بانطباعات سلبية. ولقد لخص الكاتب روبرت فوسييه هذا المعنى فى عنوان لأحد أعماله هو «كبح السلطة»، وأيضاً فى فقرة بليغة فى قوله: «يا لها من صورة كئيبة تلك التى كانت تمثلها الدولة آنذاك! هنا بابوات يتمسكون بأهداف الكرامة المشكوك فيها، ثم يتبدد هذا البريق، وينتهى أمرهم إلى حال من الحقارة، وهناك أباطرة أصحاب آمال كبار، ولكن أسماءهم مضت إلى طى النسيان. أما ملكيات الغرب الأوروبى فإنها فى حال من الفوضى الضارية: فالبعض منهم طاعن فى العمر، أو أطفال قصر، أو أفراد مختلو العقل، أو أشخاص على وشك الخلل. ثم هنالك أيضاً مشاكل من عمد المدن، وأمراء وقادة عسكريون، الذين انصبت همومهم على تفوق عابر وعلى الهيمنة الآيلة إلى السقوط. ورغم كل ذلك، ففى وسط هذا الزخم المشوش المتهوس، أرسيت بعض معالم الدولة العصرية».

من الإقطاع إلى السلطة المطلقة

انصبت النظرية السياسية فى القرن الرابع عشر على تأكيد حق السيادة للملوك، وفى نفس الوقت سخرت من السلطان البابوى، معلية من قدر الإمبراطورية. والواقع أن المفكرين الذين دافعوا عن الإمبراطورية تبنوا مبدأ سمو السلطة الزمنية. وحوالى سنة ١٣١٢ كتب الشاعر دانتى فى كتابه عن الملكية De Monarchia أن «السلطة تحل على الملك مباشرة من المنبع الكونى للسلطان، دون وساطة». وبعد ذلك ببضع سنين نادى راهب فرنسيسكانى

ترجمة: إسحاق عبيد



قالب لختم مجلس
عسنيفسة وادي
الحجارة، الواجهة،
مؤسسة لازارو
جلديانو، مدريد

منمنمة تتويج الملك
إدوارد الثالث في
إنجلترا، والمكتبة
الوطنية، باريس.

انجليزي هو وليم آل أوكهام في كتابه «حوار قصير عن الحكومة الزمنية» حول القضايا الإلهية والإنسانية، وبصفة خاصة حول الإمبراطورية ورعاياها، والتي اغتصبها بعض كبار رجال الدين أو البابوات، نادى الشعوب وكل أمم الأرض لكي تهب للدفاع عن حقوقها، وأن تتحرر من ظلم وجبروت الجالس على عرش القديس بطرس - البابا -. ويؤكد نفس الكاتب بأنه يتوجب على خبراء القانون المدني، وليس أهل اللاهوت، أن يفحصوا طبيعة السلطة البابوية، كما عبر عن قناعته أنه من الصواب، بل ومن المناسب أن نحكم على أعمال البابوات وتصرفاتهم، لئلا تكون على ضلال.

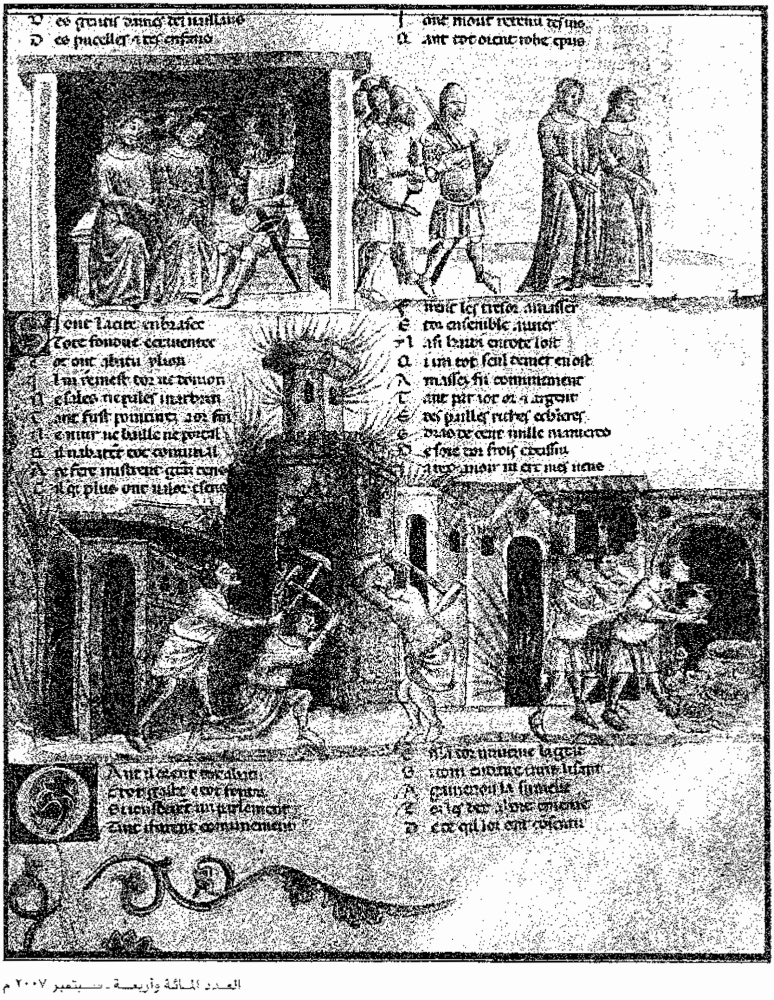
وفي سنة ١٣٢٤، أي في وقت فاصل بين هذين العملين، أخرج مارسيللوس آل پادو مؤلفه بعنوان «المدافع عن السلام» Defensor Pacis، وفيه وصف خطابًا أو قرارًا أصدره البابا بونيفاس الثامن على أنه من بدايته إلى نهايته زيف واضح، وتعد صارخ ضد العلمانيين.

ويشير مارسيللوس هنا إلى القرار البابوي بعنوان: «كنيسة واحدة مقدسة» Unam Sanctam الذي أصدره البابا بونيفاس الثامن في ١٨ نوفمبر سنة ١٣٠٢، ردًا على هجوم الملك الفرنسي فيليب الرابع الوسيم على السلطة البابوية. وفي هذا القرار يستشهد بالسلطة التي كانت في يدي القديس بطرس الرسول، والتي آلت إليه، قائلا: «إن صاحب السلطة الروحية هو الذي يقضي بحكمه في كل الأمور، ولكنه هو نفسه لا يدان من قبل أحد من بني البشر»، ثم يختتم بعبارة شديدة اللهجة: «وعليه فإننا نعلن، ونقر ونؤكد ونهتف بأنه من الضروري لكل مخلوق فرد لكي ينال الخلاص أن يخضع نفسه لسلطان الكاهن الأكبر في روما». ومع ذلك، ورغم قوة وحدة هذا البيان البابوي الفريد في نوعه، إلا أنه في نفس الوقت كان يمثل الأغنية الجنائزية للبابوية، فلقد قربت النهاية! إن المستقبل لم يكن لصالح الخندق البابوي ولا لمصلحة الإمبراطور الخصم العنيد للبابوية، وإنما كان من نصيب الملوك أو الأمراء - أولئك الذين كانوا يحتلون الصف الأول في الهايرياركية الكهنوتية السياسية، لأنه في القرن الرابع عشر كان هذا الصف يضم أيضاً وجهاء الدولة الذين تقاسموا السلطة فيما بينهم في الدوائر السياسية المبعثرة في كل من إيطاليا وألمانيا، لقد جاء تدهور السلطان البابوي وكذا السلطة الإمبراطورية، ليعلي من شأن الممالك الأوروبية الغربية. وهذا هو الوجه الآخر للقضية، والتي وصفها المؤرخون بالقصور الذاتي للسلطة العالمية.

ويعني الحق المطلق أولاً وقبل كل شيء أن صاحب هذا الحق ليس مسئولاً أمام أحد إلا الله وحده، ومن ثم يصبح الجميع مسئولين أمامه. لقد تنحى المفهوم الإقطاعي الوسيط «سيد الأسياد» ليحل محله مفهوم الحكم صاحب السلطة والنفوذ على الجميع، هذا المفهوم قد تطور أول الأمر في أطر القانون الروماني والقانون الكنسي لصالح السلطة الدنيوية أو الزمنية. وعبرت فكرة «الملك هو الإمبراطور في مملكته» عن هذا التحول، الذي بدأ ينتشر في أواخر القرن الثالث عشر فصاعداً، واستخدم أول الأمر ضد الإمبراطورية الألمانية، ثم بعد ذلك ضد البابوية.

جاء مولد الدولة الحديثة متواكباً مع مولد العلمانية وأفول شأن المسيحية الغربية. ولابد من فهم مضمون كل من هذين العنصرين: فالأول كان ببساطة اضمحلال احتكار الثقافة في أيدي الكنيسة، أما الثاني فقد ظهرت بوادره في تأسيس كنائس

نهب إحدى المدن في مخطوط مزخرف يرجع إلى القرن الرابع عشر، مكتبة مرزيانا، البندقية



قومية - بعيداً عن الهيمنة الرومانية - ومع ذلك، فإن الحكومات الملكية لم تتوان في حث رعاياها على احترام الناموس الإلهي، كما أن الملوك ظلوا يتمسكون بمسحة روحانية، تعززت من خلال طقوس تنصيبهم وتكريسهم على أيدى السلطة الدينية، ليصبح الملك بذلك العلماني الوحيد المكرس. ومع أن هذا التكريس لم يكن يطبق في كل بلدان أوروبا - كان تكريس ألفونسو الحادي عشر في قشتالة قد تم في دير لاس هيلجاس في برغش سنة ١٣٣٢ يمثل حدثاً فريداً، إلا أن هذا التقليد قد وصل أوجه في أوائل القرن الرابع عشر في عدة تكريسات - فرنسا سنة ١٣٠٠، الإمبراطورية سنة ١٣٠٧، إنجلترا سنة ١٣٠٨.

ومع أن هذه التكريسات كانت متوافقة مع التقاليد، ومكتملة ومحددة، إلا أنها كانت أقرب إلى مهرجانات الأبهة منها إلى الطقوس الدينية. ومع بدايات النصف الثاني للقرن الرابع عشر، كان ظهور الملك بين أفراد الشعب قد أسبغ عليه شعبية أكثر، من خلال موكب الحاشية الطويل عند زيارة الملك لإحدى المدن. وهذا ما حدث على سبيل المثال سنة ١٣٨٩، عندما قام الملك الفرنسي شارل السادس باستطاء جواده ملتحفاً بملابس العبادة، التي تشبه قطعة القماش التي تحتوى «خبز التناول» في المواكب الكنسية. وكانت هذه السمة الدينية واحدة من سبل الدعاية لشخص الملك وجذب الجماهير وضمان ولائهم، سواء في حال تدشين القصور والكاتدرائيات أو لتكليف أشخاص بعينهم بمهام سياسية. وهذا ما فعله كل من فيليب الرابع الوسيم، وفيليب السادس آل فالوا، عندما شنا الحرب ضد فلاندز وإنجلترا. وهذا البعد الديني الذي حرص عليه الملوك هو الذي دعا واحداً مثل خوان جيرسون (١٣٦٣ - ١٤٢٩) أن يقول: «إن الملك شبيه بالكاهن».

كان نمو الحكومات يعني زيادة في الإنفاق العام، وفي هذا الخصوص من الصواب أن نقول، كما قال جي بوا Bois شيئاً عن موقف الفئات التي تتمتع بالامتيازات في مواجهة الأعباء الجديدة، ذلك أنه مع بداية السباق للحصول على الرواتب والمناصب، والمعاشات جعل كل من يحتل موقعاً في الحكم ينظر إلى الدولة كملاذ يملك الكثير يتوجب عليها أن تدفع له. وفي ظل الأحوال، عندما اشتعلت الحروب في القارة الأوروبية، زاد عبء الإنفاق الحكومي. ولقد شهد القرن الرابع عشر العديد من الحروب، التي كانت أشبه ما تكون بالوباء العام. ومع اقتراب نهاية القرن، قال كاهن من جنوب فرنسا للمندوب البابوي إنه «قد شاهد حروباً في ناحيته وفي أبروشية كاهور طيلة حياته، وأنه لم ير السلم أبداً على هذه الرقعة من الأرض».

وجاءت حرب المائة عام لتحول فرنسا إلى ساحة مستعرة من القتال المستمر، كما أن ممالك أخرى دخلت الحلبة في هذا الصراع الإنجليزي - الفرنسي. فلقد انضمت اسكتلندا إلى جانب فرنسا، وتدخل الفرنسيون والإنجليز في الحرب الأهلية في قشتالة والنزاع بين هنرى تراستامارا وبيدرو القاسي، وسرعان ما دب القتال بين ملوك أراغون وقشتالة في حرب خاصة بالطرفين، وفي كل من ألمانيا وإيطاليا اشتعلت الحروب أيضاً. ولقد كانت إيطاليا في القرن الثالث عشر في حال من الفوضى الضاربة - على حد تعبير مارسيل پاكو Pacaut - وهو ما انعكس في الكوميديا الإلهية للشاعر الإيطالي دانتي في بيت شعر ورد في المطهر Purgatorio: «أي إيطاليا! إنها الأرض الخانعة، موطن الأسى، كالسفينة الضالة بلا مقارن وقد ابتليت بعاصفة هوجاء.. لست سيدة للولايات والأقاليم، وإنما قد صرت سيدة لبيت دعارة». هذا في حين أن مارسيليوس آل پادو وصف المملكة الإيطالية بأنها «نموذج للشقاء المعادي للسلام».

تطلبت الجيوش المرتزقة والأسلحة الجديدة المزيد من الإنفاق، بحيث لم يعد الأمير أو الحاكم، قادراً على هذا الإنفاق المتزايد من ثروته الخاصة، من أملاك، وخليط من الضرائب على الأرض، والطواحين، والغابات، والبحيرات، والإقطاعيات، والغرامات، والعملة، والمناجم. والتي كان يجريها الأمير دون اعتبار لمصدرها. وهذه الجبايات غير واردة في القوانين لصعوبة تحديد منابعها وأشكالها. وكان أشد ما يتهدد هذه الجبايات إسراف الملوك وتبذيرهم، إلى جانب الإدارة السيئة، رغم أنها العماد الأهم بالنسبة للملوك في مختلف مشاريعهم. وأمام هذا الموقف لجأت الدول الغربية إلى البحث عن مصادر جديدة للدخل. وفي هذا يقول روبرت فوسييه Fossier «عن الملامح المهمة في تاريخ القرن الرابع عشر المفهوم الجديد الذي طرأ على قضية الضرائب، وانعكاسات ذلك على الشعوب بطريقة مؤسفة في الغرب الأوروبي. مضيفاً أنه على الرغم من أن الكنائس كانت أول المتضررين - تدهور أحوال ضريبة العشور ومصادرات الأملاك - إلا أن العبء الحقيقي في هذا التوجه الجديد لم يقع على عواتق أصحاب المال والسلطة، وإنما على الفلاحين وسكان المدن».

وبدأ التوجه الضرائبي الجديد من بداية القرن الثالث عشر في مدينة جنوة وأيضاً في إنجلترا، من خلال ضرائب الجمارك، واحتكار الحكام لتجارة الملح، والضرائب المفروضة على السلع التجارية، من قبيل ضريبة القبالة alcabala في مملكة قشتالة، والتي جرى إقرارها سنة ١٣٤٢ وافق كورتيز دي برغش cortes de Burgos، وهو مرسوم أصدره الملك ألفونسو الحادي عشر وينص على جباية كم محدد من المال - ٥٪ - في سائر أنحاء المملكة على كل ما يمكن شراؤه. وهذا النوع من الضريبة المباشرة، رغم أنه مصدر يعتمد عليه وواسع النطاق، إلا أنه قد خلق مشاكل كثيرة. وكان بعض هذه المشاكل سياسياً، فبعد أن كان في عصر الإقطاع في شكل حقوق للسيادة على أقصالهم، أصبح الآن واجباً على الأقصال وسائر أفراد الرعية. من المشاكل الأخرى ما كان ذا طبيعة تقنية - من قبيل كيفية تحديد القواعد الضريبية وكذا الحصول على إحصاء يعتمد عليه في فرض الضريبة. وكلما كانت المساحة والسكان كبيرة، كلما ازدادت المسألة تعقيداً. ولهذا ليس غريباً أن الضريبة المباشرة قد بدأ تطبيقها في المدن الإيطالية صغيرة الحجم والسكان، بدءاً من أواخر القرن الثاني عشر فصاعداً. ويقول برنارد جيني أيضاً إن تاريخ الضريبة المباشرة يمثل قصة «مولد ثم طفولة ثم تكيف وفق الظروف الجديدة عن طريق المراوغة»، إنما باللجوء إلى التزييف أو التحايل للحصول على إعفاء من تأدية الضريبة. الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى تقليص دخول خزانة الدولة.

وفي أحيان كثيرة كانت الضريبة المباشرة عرضة للغش والتحايل. ولما كان سك العملة يعود بالفائدة على من يقوم بالسك، فإن الملوك من خلال تطور الدولة وازدهار النشاط التجاري، سيطروا على دور سك العملة، وصار هذا رمزاً للسلطة ووسيلة للتفاعل. وما إن سيطر الملوك على زمام دور سك العملة حتى أصيبوا بخيبة أمل تمثلت في ضعف عام أصاب العملات الأوروبية بعد سنة ١٣٠٠، الأمر الذي أدى إلى تخفيض قيمتها - بيتر سيفورد - ومع أن هذا كان يرجع إلى تقلبات في أسعار المعادن النفيسة، إلا أن بعض المؤرخين يرجعون ذلك إلى إسراف الملوك المتزايد في الإنفاق. فعلى سبيل المثال، كان ٦٠٪ من موارد الملك فيليب الرابع الفرنسي في سنة ١٢٩٨ - ١٢٩٩ تتأتى من دور السك الخاصة به، وكان مستشاروه ينصحونه بأن تخفيض سعر العملة هو السبيل

أن الأمراء أو الملوك قد حرصوا على حصر هذه الاجتماعات والمداولات في شخوصهم والصفوة الموسرة في المجتمع، للإعلاء والدعاية لصاحب التاج

الأوحد لإصلاح المسار الاقتصادي. وأن هذا التخفيض من حق الملك وحده. وفي مملكة أراغون، في العقود الثلاثة الأولى من القرن الرابع عشر، كان سك العملة يحقق ربع حصيلة الخزانة الملكية. ومن أجل هذا نجد الأسقف النورماندي نيكولاس أن أوريزم في أطروحته عن المال التي كتبت ما بين سنتي ١٣٥٥ و١٣٦٠، يقرر أن «من أول وأهم الأسباب التي تدفع الأمير إلى الغش في سك العملة، طمعه وجشعه المتزايد.. وأن هذا المسلك لا يليق بملك وإنما بالطغاة». ويمضي نفس الكاتب ليقول: «إن مثل هذه الخطوة لا تكتسب مشروعية إلا في وقت الطوارئ القصوى، كهجوم معاد مباغت للدولة، وذلك بعد موافقة الرعية». وفي واقع الأمر كانت موافقة الرعية تعني ببساطة الاختيار الأصوب بدلاً من قيام الحكام بالغش في العملات. وبمعنى آخر كان سك العملة الجيدة مرهوناً بحجم المساعدات التي يتلقاها الأمير من رعاياه، والتي كان الجميع يتذمرون منها بطبيعة الحال، لأنها لا تقل سوءاً عن أذى سك عملة رديئة.

على أن أهم مصدر لجأ إليه الملوك لزيادة حجم خزائنهم الملكية قد تمثل في الديون العامة، والتي رحب بها الموسرون في الدولة بدلاً من عبء الضريبة المباشرة. ومن هنا أبدى هؤلاء الموسرون استعدادهم لإقراض الحكام المبالغ التي يريدونها وقت الشدة. وبصفة عامة كان الأمراء يقترضون قروضاً قصيرة الأجل بربح تراوح بين ٢٠ ـ ٢٥٪. ففي ألمانيا على سبيل المثال كان كبار ملاك الأرض واليهود على رأس قائمة المقرضين، وفي كل من فرنسا وإنجلترا قام التجار بهذا الدور مع بعض البنوك الإيطالية التي أصيبت بنكسة مهولة سنة ١٣٤٦، عندما أجهز الملك إدوارد الثالث على كل أرصدة مصرف باردي Bardi تقريباً. أما في المدن الإيطالية، فقد اتخذت الديون العامة مساراً مخالفاً محفوفاً بالخطر، فقد كان يتم الإقراض قبل تسديد اقتراضات سابقة، وكان ذلك عند ظهور البنوك الكبرى. ولقد لجأت مصارف البندقية في القرن الثالث عشر، ومصارف جنوة في سنة ١٣٢٤، ومصارف فلورنسا فيما بين سنتي ١٣٤٣ و١٣٤٤ إلى رفع أسعار الفائدة على القروض التي يقترضها كبار القوم من هذه المصارف إلى تخفيض أسعار فوائد هذه القروض.

ديمقراطية الموسرين

أمام أعباء الضرائب على كهولهم، شعر الفلاحون المقهورون أنهم في ظل دولة طفيلية بحق. ولقد قدر الأستاذ روبرت فوسييه أنه في إنجلترا وشمالي فرنسا، كان أكثر من نصف دخول الفلاحين تنهب منهم، فعلى كل عشرة مكاييل من الحصاد، كان يتوجب عليه أن يدفع منها مكيالا لعشور الكنيسة، ومكيالا ونصف المكيال ضريبة للدولة، ومكيالين ثمناً للبذور، وقرابة مكيال آخر كضريبة لإحصاء السكان. إن هذه الأعباء الضريبية، سواء للملك، أو للسادة المحليين، أو للكنيسة عندما ثار فلاحو إنجلترا ـ لولارد Lollards ـ سنة ١٤٠٠، أصدروا بياناً ثورياً ساخراً يقول: «إن ضريبة العشور الكنسية يجب أن تتوقف عن الوصول إلى جيوب الكهنة، ومن يفعل غير ذلك يقع تحت طائلة الإثم والعار». وعليه هبت الثورات في الريف والحضر أثناء القرن الرابع عشر بسبب عبء الضرائب من ناحية، ولأسباب أخرى عديدة، وفي كل الأرجاء

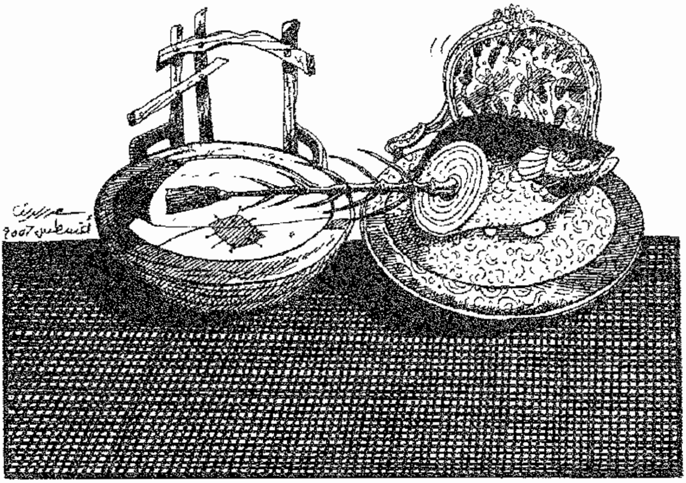
دفع الإتاوات إلى الملك. منمنمة من مخطوطة قرارات ووثائق، الصادرة عن دون سانشو الرابع. المكتبة الوطنية ـ مدريد



كانت الضريبة الكريهة سبباً رئيسياً في هذا الاحتقان الشعبي. فلقد ثار الفلاحون في فلاندرز سنة ١٣٢٣، ورفضوا دفع الضرائب المفروضة عليهم، كما أن فلاحي فرنسا - جاكري Jacquerie - دمروا مناطق بوفيه Beauvais (شمالي باريس) سنة ١٣٤٨، بسبب وطأة الضرائب على كواهلهم، في أعقاب هزيمة الملك الفرنسي أمام الإنجليز في موقعة پواتييه. وفي نفس الوقت هب تجار الأقمشة في باريس بالثورة بقيادة إتيين مارسيل Etienne Marcel، ثورة مالوتان Mailotins في باريس سنة ١٣٨٢ بسبب ثقل الضرائب أيضاً. وأخيراً هبت ثورة الفلاحين الكبرى في إنجلترا سنة ١٣٨١ بسبب ضريبة جديدة أقرها البرلمان الإنجليزي لمواجهة نفقات الحرب ضد فرنسا.

وعلينا أن نتأمل في دلالة قيام ثورة بسبب قرار برلماني، إذ نحن حاولنا تفهم الهيئات البرلمانية التي قامت في الأقطار الأوروبية في القرن الرابع عشر. وأصول هذا البرلمان ترجع إلى العهود الإقطاعية ومجالس السادة الإقطاعيين مع أقصالهم، وهي تسير وفق الواجبات الإقطاعية على الأتباع أو الأقصال حسبما أوردها فلوبير دي شارتر مع بدايات القرن الحادي عشر، فيما أسماه المجلس الإقطاعي Consilium. كما أن جذور هذه الهيئات البرلمانية ترجع أيضاً إلى محاكاة للمجامع الكنسية ومجالسها. وأيضاً ما ورد من نصوص في القانون الروماني. وهذه الجذور الرومانية تتصل بالقانون العام المحدد السابق لعصر الإمبراطور جستنيان - القرن السادس - الذي ظهر من جديد على يد مشرعي القرن السادس اللاحقين في الإمبراطورية البيزنطية. وتنص هذه المواد القانونية على الآتي: «إن كل ما يهم الجماعة، ينبغي أن تقره كل الجماعة»، وكان هذا القانون يطبق داخل الكنائس بدءاً من القرن الثاني عشر فصاعداً، بما في ذلك الضرائب على أملاك الكهنة، الأمر الذي جعل القسيسين يصرخون بسبب فرض الضرائب على أملاكهم. وكان الإمبراطور فردريك الثاني الألماني أول من فرض هذه الضريبة على الكهنة في مجلس فيرونا سنة ١٢٤٤، وبالمثل فعل إدوارد الأول في إنجلترا في أول اجتماع للبرلمان الإنجليزي سنة ١٢٩٥. ومن التطورات المهمة ظهور شخصية المدعي العام، إلى جانب الكنيسة، وطبقة النبلاء، لتكتمل بذلك صورة الهيكلة البرلمانية للدولة الحديثة.

ولكن ينبغي التنويه إلى أن الأمراء أو الملوك قد حرصوا على حصر هذه الاجتماعات والمداولات في شخوصهم والصفوة الموسرة في المجتمع، للإعلاء والدعاية لصاحب التاج. وأيضاً كهيئات استشارية في القضايا العسكرية والمشاكل المالية، والضرائب وغيرها. وواقع الأمر أن اللوردات الذين كانوا من الناحية النظرية يمثلون في هذه الهيئات أتباعهم، والأساقفة الذين يفترض أنهم يمثلون جماعة المؤمنين من الشعب. والأعضاء المختارين من المدن على أنهم يمثلون إخوانهم من أهل الحضر، إلا أنه في الحقيقة لا هؤلاء ولا أولاء وضعوا أي اعتبار يذكر للغالبية العظمى من أبناء الشعب، من الفقراء والكادحين، بمعنى أن هؤلاء الملايين قد استبعدوا تماماً من الحياة السياسية. ولم يترك أمامهم خيار إلا أن يثوروا ويثوروا ويدمروا كل شيء من حولهم. على أن المفكرين الليبراليين من أهل القرن التاسع عشر قد أعطوا هذه المجالس سالفة الذكر أكثر مما تستحق، بل إنهم يتحدثون عنها كخطوات على درب الدستورية والديمقراطية. وهذه في واقع الأمر واحدة من المفارقات التاريخية التي تؤخذ على هؤلاء المؤرخين والكتاب، كما قال الأستاذ إدوارد جيني، والذي نختم مقالنا هذا بعبارة شهيرة له تقول: «يتسم القرنان الرابع عشر والخامس عشر بظهور الطبقة البيروقراطية، وبتدهور أحوال الملكية، وباحتكار الديمقراطية لقلة من الموسرين». ■



الاقتصاد المصرى.. إلى أين؟

شريف دلاور

اعتمدت سياساتنا الاقتصادية - إلى حد كبير - على المفاهيم التى سادت العالم فى أواخر الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن الماضى من حيث إصدار التشريعات لتحسين مناخ الأعمال وتحرير التجارة فى المنتجات والخدمات وحرية انتقال الأموال والخصخصة وجذب الاستثمار الأجنبى بهدف ربط الاقتصاد المصرى بالأسواق العالمية وزيادة إنتاجيته.

ولقد تميز تطبيق هذه السياسات بالتأنى والحذر نظراً لإشكالية التفوق بين تحرير الأسواق من جانب ومتطلبات الفئات العريضة من محدودى الدخل من جانب آخر، وهى الإشكالية المتمثلة فى إحداث التوازن بين اقتصاد السوق والعدالة الاجتماعية. إلا أنه ونتيجة لتأثيرات عوامل خارجية ومحلية لم نبلغ الأهداف المرجوة فى كفاءة أداء الأسواق (المنافسة والإنتاجية) وفى فعالية قواعد العدل الاجتماعى (الخدمات العامة والفجوة بين الدخول). وفى نفس الوقت، فلقد غيرت تجارب دول العالم النامى والأزمات الطاحنة التى مرت بها قاعدة المفاهيم التى سيطرت على الفكر الاقتصادى فى حقبة التسعينيات والتى أثبتت فشلها، بل خطورتها على مسار التنمية، ويتطلب ذلك بالتالى مراجعة شاملة لاستراتيجيتنا وسياستنا الاقتصادية. فالسياسات الاقتصادية ليست هى مجموعة من الثوابت التى يتم تطبيقها فى كل الأحوال، بل هى تتحرك ديناميكياً بناء على طرق للتفكير تتيح لنا تشكيل أجوبة جديدة لمشاكل عالم متغير بإيقاع سريع.

وكما أنه لا توجد قوالب أو نماذج جاهزة لسياسات التنمية، فلا يمكن مثلاً اتباع نموذج دول شرق آسيا فى استراتيجيتها الأولية ذات التوجه التصديرى لأنها تمت فى ظل أشكال للتبادل التجارى العالمى فى الستينيات مختلفة تماماً أو اتباع نموذجى الصين والهند حالياً اللتين تختلفان عن مصر فى خصائصهما الاجتماعية والسكانية والثقافية، ولا تعنى هذه المراجعة أيضاً العودة إلى سياسات الانغلاق، فلا يجدى لنا أن نعزل أنفسنا عن الاقتصاد العالمى وعلينا أن نواجه التحدى المتمثل فى إحداث التوازن الدقيق والذكى بين متطلبات تقوية الداخل والاندماج مع الخارج، والاحتفاظ بقدرتنا على التحكم فى السياسة الماكرواقتصادية (وأدواتها مثل أسعار الصرف والفائدة ونسب البطالة..) أى متطلبات السياسة الوطنية لتحقيق التنمية والديمقراطية الاقتصادية.

وتتشكل المراجعة من مجموعة من العناصر الاقتصادية الرئيسية تكون فى مجموعها إطاراً يتدارس سياسات التنمية ومدى ملاءمتها للأوضاع العالمية فى القرن الحادى والعشرين ومدى تحقيقها لأهداف التقدم التى نسعى إليها، وتتمثل هذه العناصر فى:

١ - لا يمكن أن نعيش على الدوام بأكثر من إمكاناتنا أى لا يمكن أن نستمر فى الاستهلاك بأكثر مما ننتج، والعامل الرئيسى لموقع أى دولة بين الأمم فى الاقتصاد العالمى هو تراكم الموارد (المادية والبشرية والمعرفية) التى تؤدى إلى زيادة الإنتاجية. والنمو الاقتصادى فى مصر لم يقابله نمو مماثل فى الإنتاجية الكلية، وزيادة نسب النمو دون زيادة فى معدل الإنتاجية تعنى بالضرورة مشاكل اقتصادية فى المستقبل لأنها تقوم على حشد الموارد ولكن دون كفاءة فى استخدام تلك الموارد، فالإنتاجية هى المحدد الأول لمستويات المعيشة والدخل والبطالة، ومحاولة تعريف التنمية على أساس تحقيق فائض فى الميزان التجارى مثلاً هو أمر غير موفق، فزيادة الصادرات نتيجة انخفاض الأجور أو العملة أو كليهما فى الوقت الذى نستورد فيه سلعاً معقدة يصعب على منشآتنا إنتاجها قد يؤدى إلى توازن أو زيادة الميزان التجارى، ولكنه بالقطع سيخفض من مستوى المعيشة، وتعتمد أساليب زيادة الإنتاجية على الإدارة الفعالة للاقتصاد الكلى وعلى الارتقاء بمستوى العناصر البشرية والتقنية والتنظيمية والمعلوماتية داخل منظمات الأعمال المصرية العامة والخاصة، والسيطرة على الفاقد فى الاقتصاد القومى (فى الزراعة والنقل والكهرباء والمياه) والذى يضعف بشكل كبير الإنتاجية الجزئية والكلية (اليابان تطبق برنامجاً قومياً للتعامل مع الفاقد mude elimination).

٢ - إن التنمية لا تعنى كم الوظائف فقط ولكن نوعية هذه الوظائف، فالعبرة ليست فى تشغيل المواطنين فى أعمال متدنية وبأجور منخفضة، هذه هى نقطة أساسية ترتكز عليها «جودة التنمية» والتى قد تغيب عن أعيننا إذا اقتصرت اهتماماتنا على الأرقام الجافة للدخل القومى دون تفحص مكونات وتوزيع هذا الدخل وتقليل الفجوة بين الأغنياء والفقراء ونبذ مظاهر البذخ والترف، والاستراتيجية الاقتصادية مطالبة بوضع برنامج للهندسة الاجتماعية لمحاربة الفقر وعدم المساواة فى مجالات

لا يمكن مثلاً اتباع نموذج دول شرق آسيا فى استراتيجيتها الأولية ذات التوجه التصديرى لأنها تمت فى ظل أشكال للتبادل التجارى العالمى فى الستينيات مختلفة تماماً أو اتباع نموذجى الصين والهند حالياً اللتين تختلفان عن مصر فى خصائصهما الاجتماعية والسكانية والثقافية

فرص العمل والحصول على الثروة، وبإعادة صياغة علاقة الثروة بالعمل، فتشجع الثروة التى تؤدى إلى الإبداع فى العمل وتشجب الثروة التى تعوض عن العمل (إلا فى حالات خاصة مثل الشيخوخة والعجز)، ومن الأمور المهمة ما أثاره الخبير الاقتصادى العالمى «هرناندو دى سوتو» من كون الفقراء فى الدول النامية يملكون أصولاً عبارة عن «رأس مال ميت dead capital» غير مستغل اقتصادياً لصعوبة إعطائه شكلاً قانونياً، وبالتالى فإن تسجيل تلك الأصول الرأسمالية سيساعد على مواجهة الفقر ومساندة الإصلاحات الاقتصادية وتحويل جزء من الاقتصاد التحتى واقتصاد الغابطة إلى الاقتصاد الرسمى، وبالنسبة لمصر أشار «دى سوتو» فى دراسته إلى أن نحو ٩٢٪ من الملكية العقارية فى القطاع الحضرى و٨٧٪ فى القطاع الريفى غير مسجلة، وإلى أن ٧٠٪ منها مملوك للفقراء.

٣ - تحرير التجارة والأسواق والاستثمار الأجنبى المباشر قد يرفعان من إنتاجية الأمة وقد يهددانها، ذلك يعتمد على السياسات الانتقائية التى نطبقها، فتحرير التجارة سواء فى المنتجات أو الخدمات وفتح الباب أمام المنافسة العالمية لا يجب أن يكون فى هذه المرحلة على حساب إغلاق الصناعات الوطنية وبالذات المتوسطة والصغيرة (مثلما حدث فى عدد من الدول النامية فى التسعينيات)، وكما لا يمكن السماح لنفوذ الاحتكارات العالمية بالتغلغل فى السوق المصرية ويلزم الأمر أيضاً وضع ضوابط على حركات الاندماج والاستحواذ لحماية المنافسة العادلة وشراء الأجانب للمؤسسات المصرية، وفى المقابل تشجيع الاستثمار الأجنبى الذى يفتح أسواقاً خارجية أو يضيف فى الإدارة والتكنولوجيا لا الاستثمار الأجنبى الذى يتوجه للاستهلاك المحلى (يسيطر حالياً عدد محدود من الشركات العالمية على بعض قطاعات السوق الاستهلاكية فى مصر مما يصعب معه ضبط الأسعار لفئات عريضة من المستهلكين محدودى الدخل)، وحتى فى الحالات التى تؤدى فيها حرية التجارة والاستثمارات الأجنبية إلى زيادة معدلات النمو والإنتاجية فإنه يجب الحرص من سيطرة الشركات متعددة الجنسيات على الاقتصاد، حيث سيكون حينئذ عرضة للتأثر الشديد بالمشاكل الاقتصادية والمالية العالمية، وعليه فإن الاستثمار الأجنبى ليس شرا وليس خيرا، حيث إن تأثيره على مستويات المعيشة سيعتمد بشكل أساسى على الأطر والسياسات التى تضعها الدولة المضيفة والمتعلقة بالعرض المحلى وطبيعة المنافسة وبالقواعد العامة التى تحكم هذا الاستثمار وقد ثبت أن نفس المستوى من الاستثمار الأجنبى قد يؤدى إلى نتائج مختلفة على الاقتصاد، خاصة على الأجور ومستويات البطالة وتوزيع الدخول وذلك نتيجة اختلاف الأطر والقواعد الحاكمة فى كل دولة.

٤ - على السياسة العامة أن تأخذ فى الاعتبار الحقيقة الاقتصادية المعروفة وهى أنه لا يمكن تحقيق الجمع بين ثلاثة عوامل فى نفس الوقت أى سعر صرف ثابت وسياسة نقدية مستقلة وحرية حركة رؤوس الأموال، ولا تتشكل مخاطر أسعار الصرف بين يوم وليلة، ولكنها تتراكم على مدار سنوات لكى تنفجر بشكل مفاجئ، ونظراً لتوافر قدر عال من التدفقات الرأسمالية الداخلية والاحتياطى النقدى فإن البنك المركزى يستمر فى تثبيت سعر الصرف والذى يشكل محور سياسته فى التحكم فى معدل التضخم (قانون البنك المركزى ذاته ينص على ذلك)، ومما لا شك فيه فإن هذه استراتيجية فعالة ولكنها قد تفشل على المدى الطويل فى حالة استمرار ضعف هياكل قطاعى الأعمال العام والخاص وعدم القدرة على زيادة الإنتاجية مقارنة بالدول الأخرى، وكما ثبت أن السياسة النقدية وحدها ليست ضماناً لاستقرار الاقتصاد الكلى ما لم يواكبها سياسة مالية موائمة (أى التوافق بين السياسات المالية والنقدية) غير أن قدرة الحكومة على اتباع سياسة مالية مرنة ومستقلة محدودة نظراً لزيادة فوائد الدين العام فى الموازنة العامة ولأن نسبة عالية من الإنفاق فى الموازنة توجه للأجور، ولاعتماد الخزانة العامة فى موارد النقد الأجنبى على قطاعات خارج تحكم الاقتصاد القومى (تحويلات المصريين بالخارج - البترول - قناة السويس - السياحة)، واستقرار سعر الصرف حيوى بالنسبة لمصر نتيجة وارداتنا من الطعام (فاتورة الغذاء)، ولا ننسى أن جهود مصر لتخفيض ديونها الخارجية إلى النصف بعد حرب الخليج ١٩٩١ قد تآكلت نتيجة تدهور سعر الصرف فى أواخر التسعينيات لأنه إذا كانت دولة مدينة للخارج بقدر «س» على سبيل المثال وانخفض سعر الصرف إلى النصف، فإن الدين مقوماً بالعملة المحلية يصبح «٢س» ونفس القدر ينطبق على فوائد الدين الخارجى.

٥ - مما سبق لم تتضح أيضاً أهمية وضع ضوابط على التدفقات المالية الداخلة والخارجة (باستثناء أرباح الاستثمار الأجنبى المباشر)، ومن بين تلك الضوابط فرض ضريبة Tobin Tax على التعاملات قصيرة الأجل فى البورصة، مما يشجع على شراء الأسهم بهدف الاستثمار متوسط وطويل الأجل، ويؤدى إلى استقرار البورصة حول أسعار للأسهم تعبر عن المراكز والأوضاع الحقيقية للشركات ويقلل بشكل جذرى من الشراء والبيع بهدف المضاربة، ولقد طبقت كثير من الدول الرأسمالية هذه السياسة لعقود بعد الحرب العالمية الثانية وازدهرت اقتصاداتها ثم فتحت بعد ذلك أسواقها لحرية انتقال رؤوس الأموال، وكما أن هنالك قاعدة اقتصادية وهى أنه لا يمكن تواجد بورصة مفتوحة تدخل وتخرج منها الأموال بكل حرية وفى نفس الوقت الحفاظ على استقرار أسعار الصرف لأن هذه الأموال ستؤدى إلى ضغوط مستمرة على العرض والطلب للعملة المحلية بشكل لا يمكن البنك المركزى من التحكم فى السياسة النقدية وفى استقرار سعر الصرف.

٦ - التعامل الفعال مع معطيات العولمة من خلال دور قيادى لمصر فى مجال الاقتصاد الدولى بمشاركة دول نامية مثل الهند والبرازيل وفنزويلا وبمساندة المجتمع المدنى العالمى وذلك للمطالبة بإصلاح وتطوير المؤسسات الدولية وسد العجز الديمقراطى بها فى اتخاذ القرارات، ولمحاولة التوصل مع شركائنا من الدول الصناعية المتقدمة إلى توازن جديد للعلاقات الاقتصادية الدولية يرسى قواعد عادلة للتجارة العالمية ويوجد مدخلاً جديداً للملكية الفكرية وبالذات فى صناعة الدواء، ويعوض عن تدهور البيئة والتغير المناخى ويصلح المعمار المالى الدولى وينظم الاحتكارات الدولية.

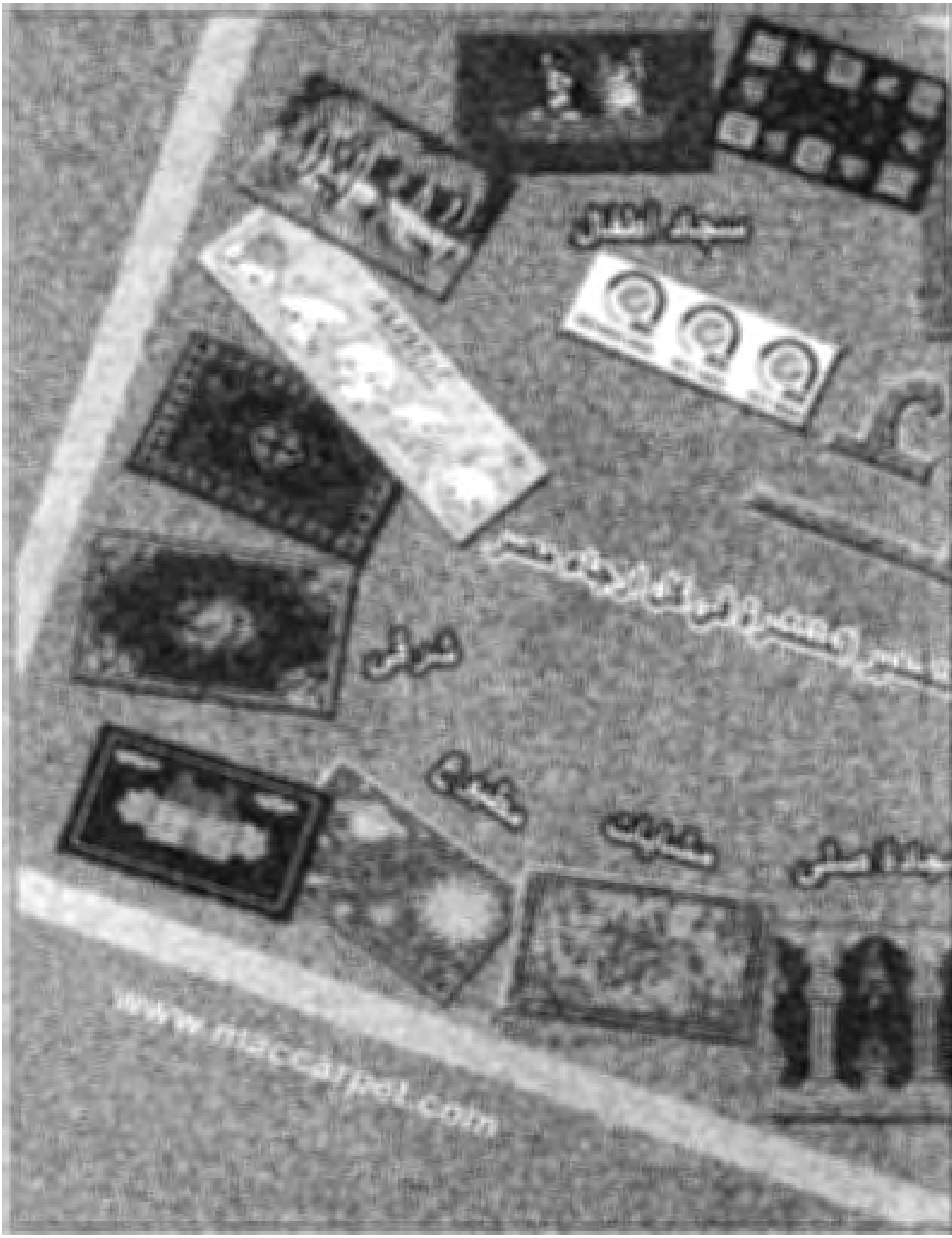
٧ - ومن الضرورى إدراج العناصر السابق ذكرها ضمن إطار أوسع من الأهداف التنموية تتبلور من خلال عدة محاور لعل أهمها: (١) التزام قاطع نحو الاستثمار الوطنى والادخار الوطنى وتهيئة الرأى العام بموضوعية حول نقاط القوة والضعف فى اقتصاد السوق. (٢) انضباط مالى ونقدى صارم وقيام القيادات بإعطاء المثل فى التقشف وبساطة الحياة. (٣) الارتقاء بمناخ المنافسة والأسواق والشفافية ومحاربة الفساد والمشاركة المجتمعية الواسعة فى الرقابة على هذه المجالات. (٤) ترشيد استخدام المياه والحفاظ على جودة المياه الجوفية فى غرب الوادى. (٥) ترشيد استخدام الطاقة والحد من نمو الصناعات والخدمات كثيفة الاستهلاك للطاقة، وتطوير مصادر الطاقة البديلة والمتجددة وبالذات الطاقة الشمسية وغاز الميثان (biomass) المتولد من مخلفات الزراعة والإنسان والحيوان. والطاقة النووية بشرط عدم الاعتماد على الخارج فى توفير الوقود (اليورانيوم ٢٣٥) وضمان دفن النفايات بشكل آمن. (٦) المضى فى الإصلاح الإدارى لأجهزة الدولة باختيار قيادات جديدة لها من خارج المنظومة الحكومية وإعادة هيكلة الحكومة التى لم تتغير وزاراتها تقريباً منذ عشرات السنوات، بحيث يتواءم مع المتطلبات الجديدة للتنمية.

٨ - وهكذا يتحدد مسارنا للتنمية من خلال مدخل «النمو مع العدل الاجتماعى Growth with equity approach» المعتمد على الركائز الآتية:

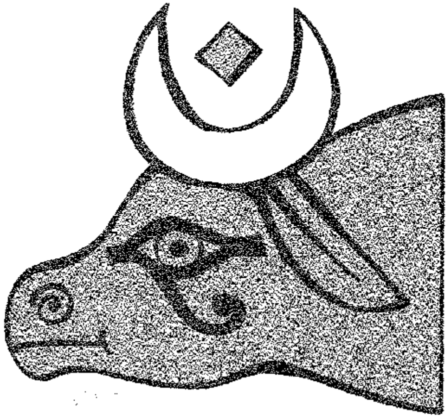
- التشغيل ومحاربة البطالة.
- تصحيح تشوهات السوق.
- إشباع الحاجات الأساسية للمواطن وجودة الخدمات المقدمة إليه.
- عدم خضوع التعليم والصحة والثقافة لقوى السوق وحدها.
- تطوير الزراعة والمناطق الريفية وصعيد مصر ودفع الاستثمارات الرأسمالية إليها.
- صياغة عقد اجتماعى جديد بين الدولة ومنشآت الأعمال والقوى العاملة.
- السعى والمشاركة فى وضع نظام اقتصادى عالمى وعادل. ■

إن التنمية لا تعنى كم الوظائف فقط ولكن نوعية هذه الوظائف، فالعبرة ليست فى تشغيل المواطنين فى أعمال متدنية وبأجور منخفضة




www.maccarpet.com

أسطورة



تؤكد معظم أساطير الخلق والتكوين على ظهور النشأة الأولى من لجة الظلمة الأزلية. ففي أسطورة التكوين البابلية، كانت تعامة هي الرحم المائي المظلم الذي نشأ عنه الكون والآلهة. وفي الأسطورة المصرية نجد «نون» العماء البدئي المظلم والرحم المائي الذي أنجب أول الآلهة «رع». وعند الكنعانيين نجد أنه في البدء لم يكن هناك سوى ريح عاصفة وخواء مظلم. وفي التكوين التوراتي نجد أنه في البدء خلق الرب السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية.. وفي الأسطورة السومرية، تنبثق الأجرام السماوية من ظلمة العالم الأسفل عندما يهبط الإله انليل سيد مجمع آلهة سومر إلى العالم الأسفل.»[1].

نون هي أسطورة النشأة لدى المصريين القدماء. نون هي عتمة ورحم في الوقت ذاته، والظلام في الوعي العقلي الجمعي هو الرحم الذي يلد النور (كل ليل وله آخر). بهذا المعنى فإن النون هي الرحم الذي يخرج منه الجديد. النون بذلك تشبه الإله الروماني يانوس- الذي اشتق من اسمه شهر يناير - January - فهو ينظر في اتجاهين. إلى الخلف (العام المنصرم) وإلى الأمام (العام المقبل). في رواية «نون» للكاتبة المصرية سحر الموجي والصادرة حديثا عن دار الهلال لا تتشبث النون بموقعها كبداية أولى أولية، بل هي نون مزدوجة. «نون» رواية عن البدايات المنبثقة من نهايات وهمية. وهو الازدواج الذي يتوازى دلاليا مع صوت الآلهة حتحور، الراوية واللاعبة في النص والتي اختارت أن تبدأ الحكاية «من نقطة مضيئة» (ص٩). والنقطة المضيئة كما تراها حتحور هي أن «يفتح ستار الحكاية على حالة حب.. نقطة البراءة.. الصفحة البيضاء التي لم يخط عليها الألم بعد

نـون
(روايـة)
سحر الموجي
القاهرة: تصدر الطبعة الثانية قريبا من دار الشروق

حروفا للحكمة أو ربما للموت» (ص٢٦). هي نون أسطورية تتخفى في صوت حتحور وتتسرب إلى النص لتعيد بناء الأسطورة وترتحل بها في الزمان والمكان وعوالم الشخصيات.

لماذا تروي حتحور الحكاية، ولماذا تتدخل في حياة الشخصيات بل أحيانا ما تتمثل لهم فيعيدون ممارسة طقوسها في القرن الحادي والعشرين، لماذا تتفضل عليهم حتحور بفتح باب الحكمة الذي تأخذ الذات من متاهات الخارج وتدفعها إلى الغوص في الداخل حتى يبدو ذلك وكأنه الخيار الوحيد لإنشاء بداية جديدة؟ لماذا تحولت حتحور في الرواية إلى الحافز الذي يدفع بالشخصيات إلى تتبع درب سقراط «اعرف نفسك»؟ ألم يكن ممكنا لكل الشخصيات أن تعيش كل تلك الجوانية دون إطار أسطوري؟

تعد محاولات- أو بالأحرى محاولة- الإجابة عن تلك التساؤلات هي الرؤية التحليلية التي يسعى هذا المقال لتقديمها. وعليه لابد من التأمل قليلا في معنى الأسطورة. يذهب التفسير التقليدي للأسطورة كما يوضح دون كابت Don Capitt [2] إلى أنها قصة مقدسة مؤلفها غير معروف وغالبا ما تصاحبها طقوس معينة، وأحيانا ما تدور حول شخصيات خارقة أو آلهة أو أنصاف آلهة أو أشباح أو أرواح، وهي غير مرتبطة بالزمن التاريخي بل بالزمن المطلق في عالم الظواهر الخارقة، وهي بالتالي لا تسير وفق المنطق العقلي المألوف. فإذا ما تحققت تلك الشروط أو بعض منها في السردية تحولت إلى أسطورة تكون وظيفتها من وجهة نظر كابت أنها «تشرح وترشد إلى الفعل أو تضفي شرعية ما» (ص٢٩). وبهذا تكون الأسطورة نسقا يشكل الإطار الأنطولوجي والاجتماعي للإنسان الذي يحاول أن يموضع حياته ليضفي عليها معنى.

تظهر خطورة مفهوم الأسطورة في إمكانية انغلاق التأويل كونها قصة تنحو إلى الكلية المطلقة وهي بالتحديد ما حذر منه الناقد الأدبي كينيث بورك عام ١٩٦٦ في كتابه «اللغة كفعل رمزي»[3] على أساس أن الكلية تعني الإطلاق والجمود، لكنه لم يتحفظ على إمكانية التعامل مع الأسطورة بوصفها تقدم البحث عن الاكتمال perfectionism. وهنا تتضح أهمية التأويل الرمزي الذي حاول بول ريكور التجذير له. فالأسطورة بالنسبة له ليست مجرد أقاويل خاطئة كما نادت الحداثة وكما رسخت نظرة دونية لكل الأساطير بوصفها أوهاما لابد للعقل من التخلص منها. يرى ريكور أنه لابد من تجاوز ذلك التعريف وصولا إلى أهمية الأسطورة في الكشف عن الكثير من الغموض عبر التركيز على رمزيتها المكثفة. ريكور إذن يعتبر الأسطورة أحد أبعاد الفكر الحديث بوصفها تساهم في تقديم «كشف عن عوالم غير مسبوقة، وتقديم لعوالم أخرى ممكنة تتجاوز حدود عالمنا الحقيقي»[4]. الأسطورة تفتح شكلا آخر ممكنا للوجود وهو ما يحولها إلى أداة تحررية بامتياز.

انطلاقا من هذا التأويل يمكن النظر إلى توظيف الأسطورة في رواية «نون» بوصفها إطارا عاما يلتحم بمسار حياة الشخصيات ليفتح لها إمكانيات أخرى في الحياة- سواء كانت تلك الإمكانيات معرفية أم نفسية. تتكشف هذه الإمكانيات الجديدة تدريجيا للشخصيات عبر مسار التعلم فتكون نهاية الدرب هي الإدراك الجلي أن كل نهاية ليست سوى بداية تفضي بدورها إلى نهاية. وهكذا تتأكد لا نهائية توالي الدوال والمدلولات وكأن النص يحضر استدارة حرف النون للتأكيد على استمرارية الحياة التي تستمد عنفوانها من مواجهة الخوف. تعلن حتحور ذلك صراحة للقارئ:

«مثل كل الحكايا ذات البدايات السعيدة لابد أن تأتي ما اعتدتم أن تسموه نقطة النهايات وهي في الأغلب حزينة. لكن هل فكرتم يوما أن نقطة النهايات تلك قد تكون هي نفس نقطة البدايات، هي أولى الخطوات نحو عتمة الداخل بعيدا عن أضواء الخارج الباهرة التي تغشى أعينكم فتفوتكم الحقيقة الراقدة في القاع في هدوء منذ خلقتم أنتم البشر وتنخ فيكم الواحد الخفي من روحه. راقدة هي في عمق الظلمة، بعيدا جدا، إلا على هؤلاء الذين يخطون تجاهها يقاومون خوفهم من تنين ذي رؤوس سبع قد ينفث نارا في وجوههم. ولن أدعي كي أبسط المسائل عليكم أن التنين خرافة من صنع خوفكم. هو موجود بالفعل كما الأفعى ربة الحكمة وحاميتها من أيدي العابثين (٩٤-٩٥).

تدخل سارة تلك المنطقة المعتمة من الذات عبر وجعها الشديد من هجران نديم المباغت غير المفهوم: وهو الوجع الذي يتكثف باستعادة ذكريات العلاقة تفصيليا حتى يصل الأمر بها إلى إقامة جنازة رمزية لنديم في نهر النيل (وهو ما يذكرنا بطقوس الكهانة). أما دنيا فقد سلكت درب المعرفة عبر التمرد على نمطية «علب السردين» (ص٧٩) التي حرصت والدتها سميحة على عدم انفراطها بل رسخت تلاصق الأرواح المتراصة التي تخشى الاختلاف وتهرب من نور المعرفة. سلكت دنيا درب «اعرف نفسك» عندما قررت أن تبدأ ذاتها من جديد وتنفض كل ما سبق من رضوخ لأرواح علب السردين. في حين بدأت سارة طريق المعرفة من نهر النيل سلكت دنيا الطريق من كينج مريوط حين تلقت تدريبا على التأمل بالبوجا مع

مرتحلة!

شيرين أبو النجا

الهندى الذى جاء لزيارة مصر. أما حسام فقد بدأ رحلته من الواحات وبالتحديد عندما جلس فوق التل وأدرك جهله بذاته لغيابه الدائم عنها، كما أدرك أن المشكلة تكمن داخله وهو مناقض لما كان يفعله من إلقاء الهموم على السياق الخارجى المزوج أيضا.

من اللافت للنظر أن سارة وحسام ودنيا قد عثروا على نقطة البداية فى أماكن رحبة (نهر النيل- الواحات- كينج مريوط) وهو ما لم تفعله نورا بالتحديد. فقد كانت أماكنها ضيقة مما انعكس على روحها فظهر الوجه السلبى لحتحور وتجلت سخمت التى تنهل من غضب نورا وتدفعها إلى نفث المزيد منه. لم تتواجد نورا سوى فى محل عملها الذى يموج بالإحباط وسيارتها التى غالبا ما تصدمها وفى جلستها مع حسام وسارة ودنيا حين تنهمك فى «لف» السجائر المخدرة وتبدأ فى إلقاء التهكمات على الجميع، وتصم أذنيها قائلة «حلوة النظريات قوى.. سهلة ومريحة» (ص٢٥٣). لم تسمح نورا لحتحور بالاقتراب منها كثيرا وهو ما تعيه حتحور جيدا ولا يمكنها فعل شىء حياله: «ولأن سخمت تجول داخلك فى الظلام بلا منافس من السهل على شبح الوحدة أن يتمكن منك لكن تلك هى معركتك يا نورا. لم أكن لأختار أبدا أن أرفع سيفى وأحارب مكان أحدكم، ربما عندما أراه قد أعد العدة وحشد الحشود وأسانده بكل طاقتى، حتى ذلك الحين سأقف متيبسة فى عجزى» (ص٢٩٦). تشبثت نورا بظلمة سخمت فى حين تحررت الشخصيات الأخرى عبر عتمة حتحور. ارتضت نورا عدم التحليق فى سماء المعرفة وأغلقت كل دروب التعلم فانطبق عليها قول أمل دنقل عن الطيور:

والطيور التى أقعدتها مخالطة الناس

مرت طمأنينة العيش فوق مناسرها..

فانتخت.

وبأعينها.. فارتخت.

وارتضت أن تقاقىء حول الطعام المتاح

ما الذى يتبقى لها.. غير سكينة الذبح،

غير انتظار النهاية.

إن اليد الآدمية.. واهبة القمح

تعرف كيف تسن السلاح! [4]

فى ظل هذه القصيدة تبدو روح سارة ودنيا وحسام ومن قبلهم كاتى خالة سارة وبهاء والدها وكأنها انفتحت جميعا على دروب «اليد الآدمية.. واهبة القمح» وهى يد حتحور، وفى مقابل ذلك لم تعرف روح نورا سوى «كيف تسن السلاح» مما جعلها تلقى باللوم على كل ما هو خارجها دون أن تحاول النظر إلى الداخل. هى إذن نفس اليد الآدمية لكنها تهب القمح مع حتحور وتسن السلاح مع سخمت. يقول فراس السواح أن سخمت هو أحد ألقاب حتحور «الذى يعنى الجبارة. وقد تحول هذا اللقب إلى إلهة مستقلة تحمل اسم سخمت وتحت هذا الاسم تبدو الأم المصرية الكبرى فى أقسى أشكالها كإلهة للحروب والمذابح الجماعية» [5].

يتركز جوهر الرواية على مفهوم العبور الذى يتخذ شكلا طقسيا. ويتحقق هذا الطقس عبر الغوص فى الذات واستكشاف مخاوفها ورغباتها وهواجسها وكسر أوهامها. تضفر الكاتبة هذا الطقس مع بنية النص فتكتسب بعض العناصر معانى ذات دلالة مكثفة مما يحولها إلى جزء أصيل من البنية. يتحول هذا الثراء الدلالى إلى خطوات تفضى رويدا رويدا إلى طقس العبور الكامل. فى ذروة مواجهة سارة لخيانة نديم تشرح حتحور الطقس: «طقس العبور يا ابنتى ليس واحدا. كلما مرقت من باب انفتح آخر. وكلما خرجت من سرداب دخلت التالى. شبح هنا وقصة منسية هناك. لكن الرحلة مع الوقت- ورغم الأسى- تصير ممتعة وعيناك قد اعتادتا العتمة فانتبه قلبك. وأذناك وقد اعتادتا الصمت بإمكانك الآن أن تنصتى إلى أصوات الآلهة» (ص١٧٠).

أولى هذه الدلالات الطقسية هو «العتمة» أى التخلص من أضواء الخارج المبهرة والنجاح فى مواجهة سراديب العتمة الداخلية المتراكمة فى الذات منتظرة أمل رفع الصدا عنها بيد الساعى وراء النور. هى عتمة الرحم الأزلى لنون الذى اختبأ فيه رع حفاظا على بريقه ومن ثم اختبأ فى برعم زهرة اللوتس حتى تمكن أن يكون ذاته [6]. العتمة إذن هى أعلى درجة من النور الذى يساعد على ترعرع شجرة المعرفة. وهو ما يحدث للكهنة والكاهنات على بداية الدرب «أيام وأسابيع فى الظلام الحالك ستلغى اعتمادهم على أعينهم، وتعيد إليهم باقى الحواس»، ومن ثم تتجلى حالة الانتباه الكامل التى «ستمكن هؤلاء الكهنة والكاهنات من الولوج من ذاك الباب السحرى بين عالمين. فيستمعوا إلى ما لا يسمعه الآخرون ويرون ما لا يراه آخر» (ص٢٨٧). يحتل هذا الاقتباس عتبة ذروة إخفاق نورا إذ كانت رحلتها مفارقة تماما للمعنى المأمول. فقد فضلت أن تبقى فى ظلمة الأضواء الباهرة دون الاقتراب من عتمة الداخل، وهو ما يستدعى إلى الذهن معنى الليل والظلمة فى القرآن الكريم. فالليل مفضل على النهار ويتقدمه دائما حيث هو الأصل الذى ينبثق منه النور (انظر على سبيل المثال: النمل ٨٦، فصلت ٣٧، القصص ٧٣، فاطر١٢، يونس ٦، الروم ٢٣، السجدة ٢٩، يس ٣٧)، أما الظلمات فهى غير محمودة بل هى بمثابة عقاب إلهى (النور ٤٠). وكل ذلك يفسر عتبة النص المقتبسة من فؤاد حداد والتى تسبق اجتماع سارة ودنيا وحسام ونورا:



يا فطرة سمحة ونفوس رقيقة

أنا لما جيت أخدم الطريقة

شيخنا اللى عارف سر الحقيقة

بسط يمينه وقال يا مريدى

عينك فى عينى وإيدك فى إيدى

كل الخلايق أخوات شقيقة

أحلف بنون والمؤمنون

قلب الأميلة ذى أخضر حنون

(ص٢٤٩).

وهذا يدخلنا فى ثانى الدلالات الطقسية التى تضفر البنية مع المعنى وهى الاقتباسات التى تسبق كل جزء. الرواية أربعة فصول وكل فصل يضم عدة أجزاء فيكون المجموع ثمانية وعشرين جزءا. تتميز هذه الاقتباسات بالثراء الدلالى والتنوع الشديد مما استدعى ثبت المصادر فى الهوامش- ما بين الصلوات فى المعابد وشعر محمد الماغوط وفؤاد حداد ومرورا بالشعر الغربى المأخوذ من تيد هيوز وريلكه واميلى ديكنسون. وكلها اقتباسات تفتح وتمهد عتبات بوابات الولوج إلى الداخل فيأتى ما بعد هذه العتبة- أى الأحداث فى المتن- إما متممة للاقتباس أو مفارقة له مما يكسب الاقتباس معنى جديدا ويضع المتن فى سياق ثقافى أوسع. أما وظيفة الاقتباسات فى الرواية فهى مزدوجة. فيمكن قراءتها أفقيا وكأنها نص مواز ينهل من لغة روحية (الصلوات) ولغة شعرية. ويمكن قراءتها رأسيا فتظهر بجلاء عدم القطيعة مع الماضى فيتجلى المتن وكأنه تنويعات على النجاح أو الإخفاق فى طقوس الكهانة المستلهمة من الماضى.

تتكشف أكثر هذه التنويعات فى العناصر التى تبلورها الكاتبة فيما يخص عوالم الشخصيات. تتيح شخصية سارة مثلا الأكاديمية بقسم علم النفس بجامعة القاهرة فكرة إنجاز بحث عن ساحرات العصور الوسطى، يتوازى البناء المعرفى لهذا البحث مع الأحداث ومع التوغل فى الرحلة إلى الداخل يتطور البحث فكأنه يفسر ما يحدث ويلقى مزيدا من الضوء عليه. تقول سارة فى جلستها الحميمة مع صوفى خالتها: «البحث ده أخدنى من منطقة ساحرات العصور الوسطى والقهر فى أوروبا وقتها لحد فى السنين الأخيرة وبعدين رجع بى لمنطقة الكاهنات فى الحضارات القديمة. شىء مذهل إزاى البشر قلبوا صورة الكاهنة- اللى كانت بتعتبر تجسيد بشرى

يمكن النظر إلى توظيف الأسطورة فى رواية «نون» بوصفها إطارا عاما يلتحم بمسار حياة الشخصيات ليفتح لها إمكانيات أخرى فى الحياة- سواء كانت تلك الإمكانيات معرفية أم نفسية

كتاب الزاوية

تقويض الاستقلال الاقتصادى

عادل حسين

في الحالة المصرية، خططت الولايات المتحدة، مباشرة ومن خلال الهيئات الدولية (صندوق النقد الدولي والبنك الدولي للإنشاء والتعمير)، لكي تعيد الدولة المصرية (وسياساتها الاقتصادية) إلى وضع التبعية، وقد نجح مخططها، وأصبح الاقتصاد المصري خاضعًا بالفعل لإدارة أجنبية، ولكن نجحت السرية في إخفاء معالم ما تحقق وكيف تحقق. (...).

إننا بصدد معركة معاصرة وما زالت مستمرة، وبالتالي ينبغي أن نتسلح بالحجج اللازمة لدحر الأعداء في هذه المعركة، وخاصة أن الحالة المصرية ليست حالة استثنائية، إنها مجرد مثال بارز لما يسمى «سياسة الانفتاح».(...) ولكن بوسعنا أن نؤكد أن الاتجاه العام للانفتاح – بما يتضمنه من تبعية وتعليمات خارجية – منتشر في أغلب الأقطار العربية بدرجة أو أخرى.

الهجوم المخطط لتقويض الاستقلال الاقتصادي:

كان طبيعيًا أن يطلب من الجانب العربي، ومن مصر بشكل خاص، إثبات حسن النية بعد تاريخ «أسود» من الكفاح ضد الإمبريالية. كان لا بد أن تساعد مصر في إعادة ترتيب الأوضاع داخل المنطقة على نحو يكفل اطمئنان الولايات المتحدة على مصالحها(...).

ولكنها (الولايات المتحدة) لم تغفل لحظة عن تعميق التناقضات العربية، ولم تغفل أبدًا عن إحكام سيطرتها على مواقعها النفطية في الخليج، ولم تغفل أبدًا عن إحداث ثورة مضادة متكاملة في مصر وغيرها، ولم تنشغل طبعًا أو تقصر في تسلح إسرائيل.

لآلهات العالم القديم وطبعا لكل القيم الأنثوية الأمومية المانحة والحافظة للحياة- للصورة الضد. الساحرة الشريرة» (ص١٣٥). يرمز هذا التطور الفكري لسارة إلى رحلة العبور بشكل عام. فساحرات العصور الوسطى في أوروبا كان يتم حرقهن لقدرتهن على الاختلاف عن السائد ولتجاوزهن الحدود المرسومة للعوالم التي تشبه علب السردين في العصر الحديث. ومن ثم تكون المواجهة مع الذات والتصالح معها بمثابة إعادة احياء للكهانة القديمة وهو ما أنجزته سارة ودنيا وحسام، ومن قبلهم صوفي خالة سارة وبهاء والدها وايزابيلا جدتها. بذلك يتماهى التطور الدائري للبحث مع البنية الدائرية للنص (تشبث بعوالم ضيقة- تأمل في البدائل عودة إلى الذات)، ويعكس أيضا رحلة العبور التي تعبر بالشخصيات إلى منطقة جديدة دون أن تهجر الماضي. فايزابيلا جدة سارة الإنجليزية قد غرست بذور الكهانة في سارة الصغيرة وكبرت سارة ولم تنس أبدا الدرس. يؤكد هذا التواصل على النسب الأمومي بكل قيمه ويجعل رحلة العبور ممكنة في كل الأزمنة (زمن الجدة وزمن سارة) وفي كل الأماكن (إنجلترا ومصر). ولذلك لا تموت الجدة إلا عندما تكون سارة قد عبرت تماما داخل ذاتها. وعندها فقط تتخلى حتحور (الموازية للجدة) عن لعبة الحكي. في أثناء تطور البحث- أو بالأحرى عندما أوشك على الاكتمال- تدرك سارة هذه الحقيقة: «كنت فاكرة مثلا إن الكهانة القديمة انتهت. لقيت لأ. كنت فاكراها لا تورث. وهي كده بمعنى ما. لكن برضه لأ. البذرة بتبقى جوانا والمسألة بتتلخص في إذا كنا قادرين ناخد بالنا منها ونسقيها من مية قلوبنا ولا حنسيبها تموت» (ص١٣٥).

لم تأت إذن عناوين الفصول بشكل عشوائي، بل هي مضفورة مع رحلة العبور تماما وتعمل كمؤشر لقياس مدى التوغل في الداخل. «في البدء كان الأبيض» يطرح غواية الحكاية، براءة الألم الأول، وجع التورط في علاقات ميتة. «هو الأبيض الذي يعلن البداية الأولى في الهزائم والتي تبدو في ظاهرها النهاية. «الجمر الأحمر» يصور محاولات سخمت في السيطرة بحنقها على النفوس المتورطة المهزومة المختنقة داخل علب السردين (دنيا) والمتراجعة عن تحقيق فرديتها خوفا من مجتمع قاس لا يرحم. هي الأرواح التي تحيا في شخص فتتوقف الحياة لأنه غادر (نديم وسارة) والتي تحاول جاهدة استعادة البدايات الأولى (حسام وليلى)، وهي الأرواح الحانقة الغاضبة أبدا (نورا) والملقية بهزائمها على كل ما هو خارجها (صفر المونديال واعتقال صدام). من هنا تبدأ «سراديب الأسود» في محاولة لاستكشاف بدائل مدفونة داخل العتمة. وهي البدائل التي يتحول بعضها إلى نور كما في حالة سارة التي نجحت في اقتلاع نديم من داخلها، أو دنيا التي تحاول العثور على السرداب الداخلي عبر الأحلام، وقد يتحول بعض هذه البدائل إلى ظلمة مطبقة كما في حالة نورا. لكل الذين نجحوا في الولوج إلى الداخل تكون «تجليات الذهب» في انتظارهم. تماما كما في الأسطورة حين اختبأ رع في رحم نون ثم خرج إلى العالم ليكون الشمس الذهبية.

في الفصل الأخير «تجليات الذهب» تتواصل الأزمنة والأمكنة، الماضي والحاضر ليكتمل الطرف الثاني من حرف النون على مستوى الدلالة الشكلية. تولد البدايات من رحم النهايات الوهمية؛ بدايات تصنعها الذات بإرادتها وتنساب بخفة تماما كأمواج المحيط. كالنون في استدارتها التي كان يكتبها نعمان لسارة حفيدته عندما تطلب منه أن يكتب اسمها بالهيروغليفية. في «تجليات الذهب» يتأكد الجميع- ما عدا نورا- أن «قلب الليلة دي أخضر حنون»، وأن كل النهايات لابد أن تبقى مفتوحة لتتولد بدايات جديدة لا نهائية في استمراريتها تماما كالنون. حتى حتحور التي بدأت النص لاعبة أدركت أنه:

هكذا لن تنتهي الحكايا. ذلك لأن الحكايا دوائر وفي داخلها دوائر أخرى ومن حولها دوائر أوسع. وليست كل الدوائر واضحة. أحيانا، بل كثيرا، ما تتداخل. وهنا يبزغ التساؤل، أين نقطة النون، أين بدايات الحدث. وإلى أين تذهب انحناءاته. أم نحن الذين ستذهب بها. عندئذ يمكننا أن نبدأ دوما بـ: اخترت أن أبدأ الحكاية من نقطة...هكذا يجب أن تبدأ الـ... (ص٣٦٥). ■

هـــــوامـــــش:

١- فراس السواح، لغز عشتار، الالوهة المؤنثة واصل الدين والأسطورة. دمشق: دار علاء الدين. ط ٥، ١٩٩٣، ص ٧٨.

٢- Don Cupitt, The World to Come. London: SCM Press, ١٩٨٣.

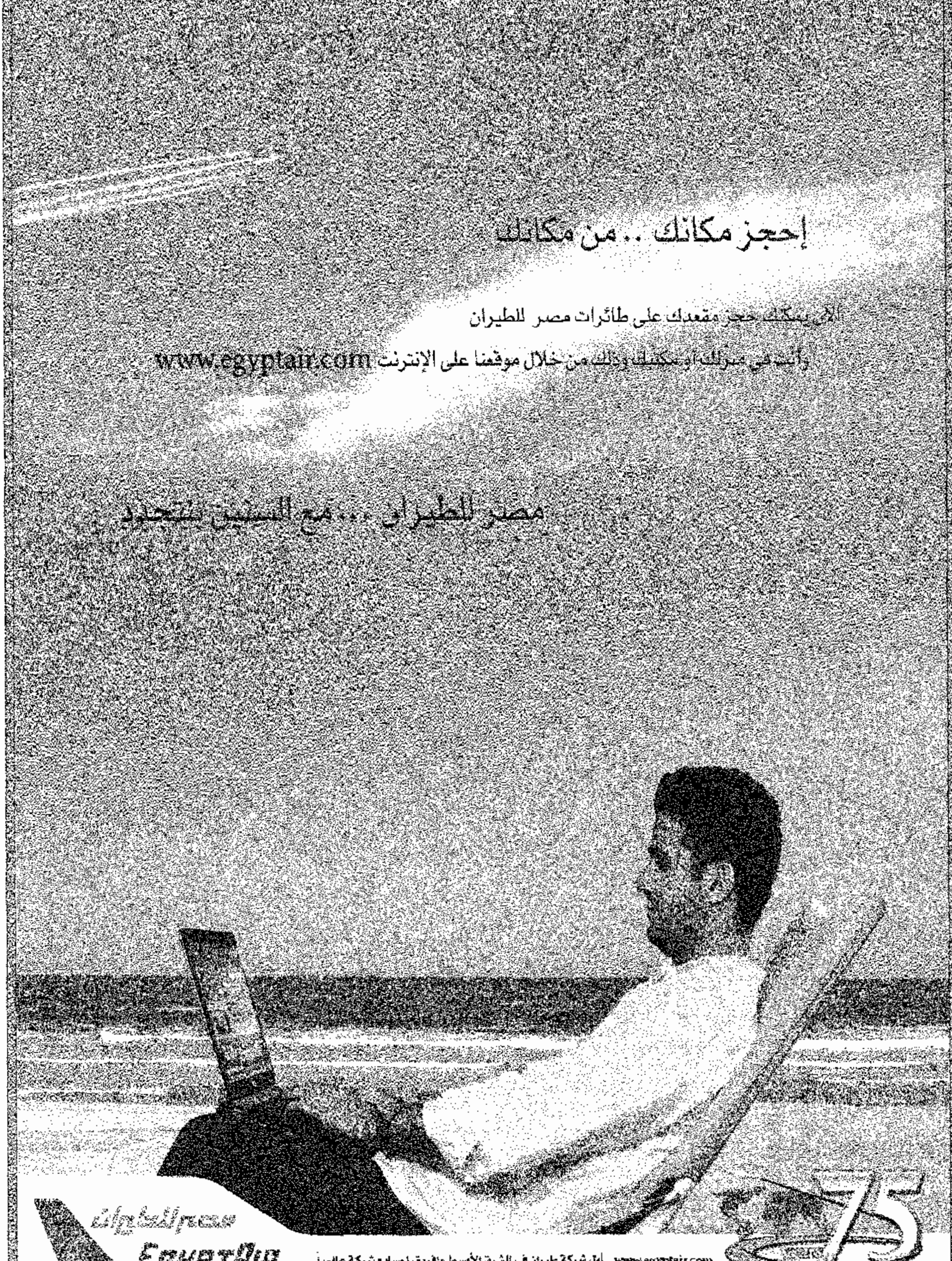
3- Kenneth Burke. "Doing and Saying: Thoughts on Myth. Cult and Archetype", Salmagundi 7: 100-119, 1971.

4- M.J. Valdes (ed.). A Ricoeur Reader: Reflections and Imagination. New York and London: Harvester/Wheatsheaf, 1991, p.490.

٥- أمل دنقل، الأعمال الشعرية. القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٥، ص ٤٥٧.

٦- فراس السواح، لغز عشتار ص ٢٢٠.

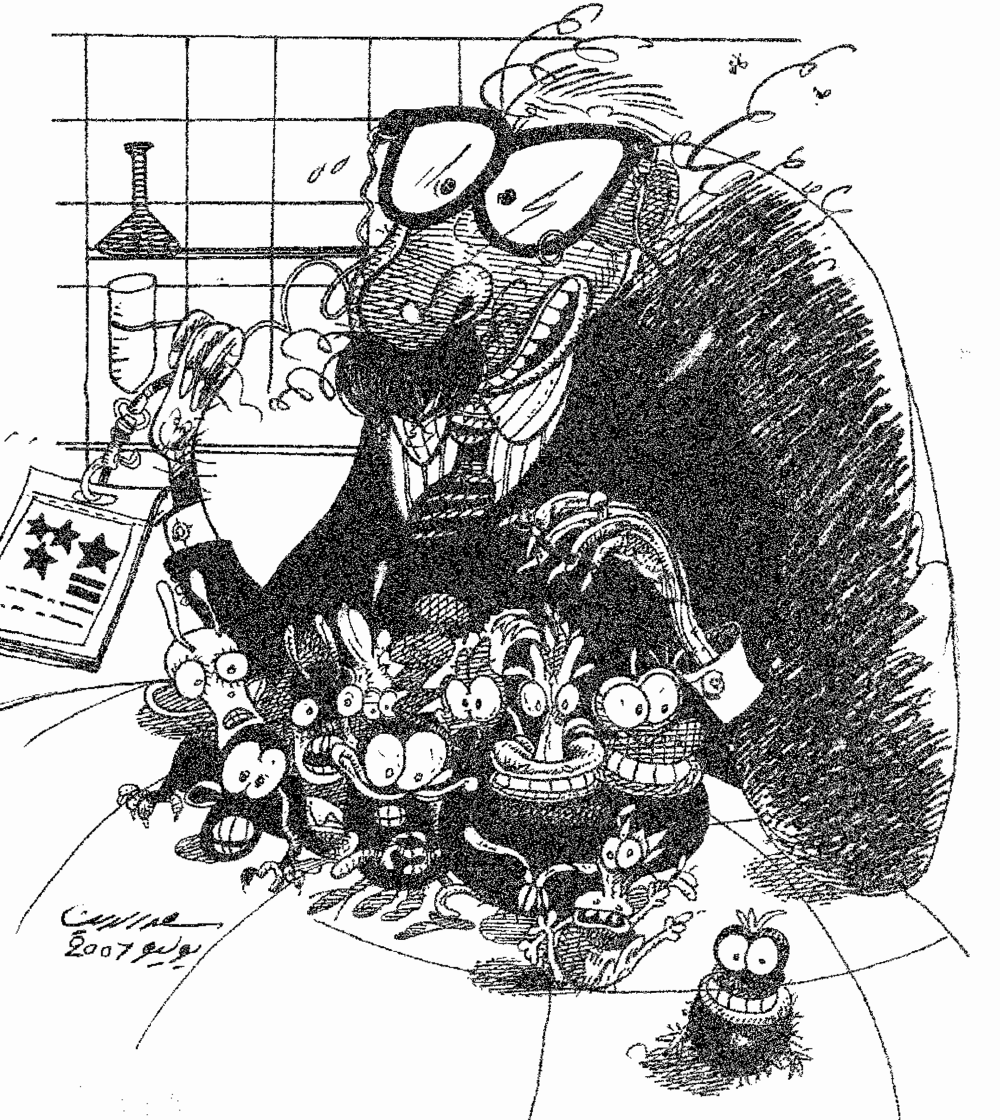
٧- المصدر السابق: ص ١٢٦.



إحجز مكانك .. من مكانك
الآن يمكنك حجز مقعدك على طائرات مصر للطيران
وأنت في منزلك أو مكتبك وذلك من خلال موقعنا على الإنترنت www.egyptair.com
مصر للطيران ... مع السنين تتجدد
EGYPTAIR
أول شركة طيران في الشرق الأوسط وأفريقيا وسابع شركة عالمية www.egyptair.com
75

زنبقة النهار!!

محمد يوسف عدس



الصدفة القدرية هي التي جمعت الشخصين ليواجها مؤامرة واحدة ومصيرا واحداً. فقد كان دكتور ماكنكولز بدوره مستهدفًا من داخل الجامعة وخارجها بسبب أبحاثه التي كشف فيها عن حقيقة أن المحاربين القدامى العائدين من حرب الخليج الأولى في عهد الرئيس بوش الأب ليسوا مصابين بأمراض عصابية نفسية وإنما هي أمراض عضوية

❊❊ المشهد الذي نستعرضه في صدر هذا المقال - رغم أنه درامي في حواره ولغته - إلا أنه ليس جزءاً من مسرحية ولا رواية أدبية، وإنما هو تصوير لواقعة حقيقية جرت بين اثنين من العلماء، كل واحد منهما يمثل عالمًا مختلفا كل الاختلاف عن الآخر، سواء ذلك في التفكير أو المبادئ التي يعتنقها كل واحد منهما ونظرته إلى الكون والحياة.

وأهمية هذا المشهد ترجع إلى أنه كان نقطة البداية لصدام محوري رهيب، أو بالأحرى حملة كاسحة استخدم فيها الطرف الأقوى كل أساليب المكر والسلطة والنفوذ لسحق ضحية خالية الذهن، لم تكن تدرك في بادئ الأمر سر هذه الحملة، بل غير واعية أصلاً بأن هناك مؤامرة لاستئصالها والقضاء عليها.

زمن هذا المشهد في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين، والمكان هو مكتب الدكتور «فريجيل روك» رئيس قسم البيولوجيا في إحدى كليات الطب بالولايات المتحدة، الذي دعا أصغر وأحدث عضو التحق بهيئة التدريس والبحث بالكلية وهي الدكتورة «ماري لوبين».. كان الهدف المعلن من الدعوة هو مناقشة السياسة الأكاديمية وشرح التوجهات البحثية، والاستفسار عما أعدته الباحثة لمؤتمر عالمي دُعيت إليه وكان مقر عقده في دولة من دول الشرق الأوسط. أما الهدف الحقيقي من استدعاء رئيس القسم للدكتورة «ماري لوبين» فكان شيئًا آخر تماماً. شيئًا لم يدُر بخلدها ولا ذكر أمامها من قبل منذ لحظة تقدمها لهذه الوظيفة.. مروراً بإجراءات ومناقشات المقابلة الوظيفية حتى يوم صدور قرار بقبولها وتعيينها بالكلية!

لفت نظر الدكتورة «ماري لوبين» عند دخولها مكتب رئيس القسم أن جدران الغرفة مزينة بعدد كبير من الصور التي تستعرض نشاطاته الواسعة: صورة مع جورج بوش الأب، وصور أخرى لزياراته إلى دول العالم الثالث ومنها مصر، وصور له في زياراته لسجون تكساس، حيث كان يجري أبحاثه على نزلائها بزعم مساعدتهم في تشخيص وعلاج أمراضهم، مما أفاضت فيه الصحف الأمريكية ووصفته بالعالم الخير المحب للضعفاء والمقهورين.

كانت دكتورة ماري في الثلاثينيات من عمرها، طويلة القامة معتدلة القوام تمشي شامخة الرأس بثقة في النفس واضحة، وتبدو على وجهها سيماء النبل والجمال، مما لا يتوفر عادة في كثير من النساء المشتغلات بالعلم والأبحاث.

أجلسها دكتور بروك في مقعد أمامه وهو ينظر إليها نظرة فاحصة ثم سألها: «ماري.. سوف أتحدث إليك مباشرة عن نقطة مهمة هي سبب دعوتك للحضور هنا.. أريد أن أستوضح منك: ما هو رأيك في الحرب البيولوجية؟»

سؤال لم تتوقع سماعه في مثل هذا المناخ الأكاديمي بالذات.. ناهيك عن أن يصدر من دكتور بروك! لقد كان آخر شيء يمكن أن تتصوره من هذا العالم المشهور في الإعلام بروحه الإنسانية وسعيه في إنقاذ حياة المرضى بسجون تكساس.. تمالكت دكتورة ماري نفسها وردت بإجابة حاسمة.. وربما صادمة أيضًا حيث قالت:

«سيدي.. إن الحرب البيولوجية عمل لا أخلاقي تماما.. ولعلي أضيف أيضًا بأنه عمل غبي إلى أقصى حدود الغباء.. فنحن لا نستطيع أن نسيطر على الكائنات الحية الدقيقة إذا أطلقناها من عقالها».

ابتسم دكتور روك ابتسامة صفراء وهو بادي الامتعاض.. ثم تابع أسئلته في نفس الموضوع وكأنه لم يسمع إجابتها: «هل يمكن أن تشاركي في أبحاث من هذا القبيل؟».. فهزت دكتورة ماري رأسها بالنفي القاطع وأردفت قائلة: «لا.. على الإطلاق» ثم تابعت:

«هل من المفيد أن أذكرك يا دكتور روك بأنك خبير في علم البكتيريا والفيروسات.. فأجاب بشيء من السخرية لم يحاول إخفاءها.. قال: أعرف أنني خبير الفيروسات والبكتيريا.. فماذا تقصدين؟».

قالت ماري: «مع احترامي الشديد لك ولمكانتك العلمية.. ولكنك لا تعرف جوانب من سلوك بعض أنواع من البكتيريا التي أُجري عليها تجاربي، وهي في صميم تخصصي وخبرتي!».

حك دكتور روك رأسه وقد بدا عليه مزيد من الاستياء والإحباط، ثم تابع أسئلته دون أن يعلق على ما قالته بشيء: «إذا سمعت عن أبحاث عن الحرب البيولوجية تجري قريبًا منك أو في محيطك فهل تلتزمين الصمت بإزائها؟».

ترددت دكتورة ماري هنيهة وهي تفكر في هذا الكلام العجيب ثم أجابت بلهجة تأكيد لا تدع مجالاً للشك: «لا.. لا أعتقد أنني يمكن أن أصمت!».

كان دكتور روك قد أفرغ آخر ما في جعبته في سبر أغوارها حيث بلغ قمة شعوره بالإحباط والكآبة ثم قال: «حسنًا يا ماري.. إنك لا تصلحين كلاعب في فريق.. وأنت على كل حال أدرى بمصلحتك الخاصة.. ولكني أؤكد لك أن أفكارك لا تسير على نفس الخط من التفكير السائد هنا.. وموقفك غير ملائم برمته من الناحية السياسية في هذا المناخ.. هل تفهمين ما أقول..؟».

لقد تبين لماري واضحًا في تعبيرات وجه دكتور روك غضب عارم وروح عداء سافرة وكأنه يتمنى لو ينشب أظافره في عنقها..

من عرف دكتورة ماري يعلم أنها تتمتع بقدر كبير من الذكاء والتفوق في مجال تخصصها، ولها إنجازات علمية لا تُنكر، ولكن هذا لا يتنافى مع أن تكون في الناحية السياسية ساذجة.. فهي كغيرها من العلماء المنكبين على أبحاثهم المستغرقين في نشاطاتهم التخصصية، وليس لديهم أي فكرة ولا حتى فائض من الوقت يسمح لهم بالتدقيق في فهم البيئة التي يعملون في إطارها.. إنهم على قدر من السذاجة - في هذا الجانب - يجعلهم عاجزين أو منصرفين عن فهم ما يدور حولهم..

اهتز عالم دكتورة ماري من أقطاره كلها فجأة، وأصيبت بصدمة في هذه الشخصية التي تمثل عندها نموذجا للعالم الإنسان المخلص في مساعدة البائسين والمقهورين من نزلاء السجون.. لقد انكشف لها فجأة الجانب المظلم لهذه الشخصية اللامعة.. وشعرت بتصادم هائل بين أهداف هذا الرجل وبين أحلامها الشابة ومثاليتها!

حاولت أن تدافع عن نفسها دون مزيد من التصادم مع رئيسها في العمل فقالت: «سيدي أعرف أنني مختلفة.. ولكنني أحاول فهم مواقف الآخرين وآرائهم.. ولا أعتقد أنني مخطئة في موقفي السياسي، وإنما لدي مقترحات مختلفة لمعالجة المشكلات التي تواجهنا».

كانت غاية الرجل من كل أسئلته أن يسبر أغوار دكتورة ماري ليعلم مدى استعدادها لأن تضع التزامها الأخلاقي جانبًا، وأن تفعل شيئًا مخالفًا لهذا الالتزام لكي تحافظ على وظيفتها الجديدة، ولكنها رسبت في هذا الاختبار ووقعت الواقعة، فلم يعد لكلام ماري الأخير أي تأثير أو معنى جدير بالالتفات إليه.. ولم تدرك أنها قد وصلت إلى باب مسدود بالنسبة لمصيرها الأكاديمي في قسم دكتور روك إن لم يكن في الجامعة كلها..

نظر الرجل نحو النافذة ثم قال: «بالمناسبة يا ماري.. هل تحبين الناس؟.. إنني أعتقد أنك عاطفية من الأعماق؟»..

ومرة أخرى تحس ماري برشقة جديدة في صميم مشاعرها مع استمرار مسلسل الأسئلة الغريبة التي يسددها إليها دكتور روك.. ووجدت ماري نفسها تنطلق في الكلام فتقول: «دكتور روك لقد قررت أن أكون واحدة من العالمات عندما حددت هدفي في الحياة وهو مساعدة أولئك الذين يعانون الأمراض.. لقد كرست حياتي لهذه الغاية خلال تجاربي في البحث العلمي». تحول روك بكليته نحو ماري قائلاً بحدة: «من أين جئت بهذه الأفكار الغبية؟!».. ثم أضاف دون أن يدع لها فرصة للرد: «لا يهم الآن..» ثم تحول عن الموضوع وأضاف بسخرية واضحة: «لا شك يا ماري أن رحلتك إلى الخارج ستكون مثيرة لك.. ولكن قبل أن أنسى.. عليك أن تأخذي بعض التطعيمات الضرورية قبل السفر، فليس هناك أتعس من أن يقع المرء فريسة للمرض وهو بعيد عن وطنه.. ولكي أريحك فقد أعددت لك كل الطعوم اللازمة بنفسي.. ويمكنك أن تعودي إلى مكتبي مرة ثانية في آخر النهار للحصول عليها.. كما أرجو أن تعدي ملخصاً وافيًا للمؤتمر..».

خفف دكتور روك من لهجته الحادة، فأصبح أكثر ليونة ولطفًا عندما قال: «ماري.. إنه تشريف كبير لمن كان مثلك في مبتدأ حياته الوظيفية هنا أن يُدعى إلى هذا النوع من المؤتمرات العالمية ذات المستوى الرفيع.. فأرجو ألا تُفسدي هذه المناسبة.. هل تفهمين ما أعنيه؟!». لم تجد ماري ما ترد به عليه سوى أن هزت رأسها بالإيجاب.. ولكنها لم تفهم كيف تحول الرجل من حدته فجأة إلى إنسان لطيف رقيق!

وقد انفتحت أبواب ☞

Project Day Lily: An American Biological Warfare Tragedy

(مشروع داي ليلي: مأساة الحرب البيولوجية الأمريكية)

Garth Nicholson

Xlibris Corporation: 568pp, $26.99, 2005

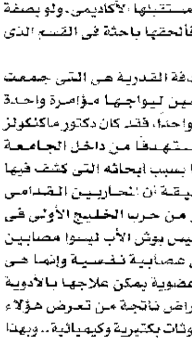
الجحيم على دكتورة مارى وبدأت الحرب الخفية تلاحقها فى كل مكان بكلية «بلفورد»: شائعات لا يعرف مصدرها عن الوافدة الجديدة، وقبل أن تتعرف إلى الناس أو يتعرفوا عليها تشكلت ضدها مواقف معادية من جانب زملائها الأكاديميين الذين قاطعوها، ومن موظفى الإدارة الذين عاملوها بازدراء، ومن طلاب الكلية الذين أمطروها بملاحظاتهم البذيئة.. وقاطعوها فى محاضراتها، حتى إنها لم تستطع أن تكمل فكرة واحدة طرحتها فى محاضراتها.. لقد بلغ انحطاط الشائعات ان نسبت إليها اتهامات فى شرفها..

سافرت مارى إلى المؤتمر ولكنها بعد عودتها بدأت تشعر بأعراض مرضية غريبة، فقد بدأت الطعوم التى حصلت عليها قبل السفر تفعل فعلها الآن.. إنها لم تدرك هذه الحقيقة إلا متأخرا..

استقبلها رئيس القسم بتجاهل وإعراض شديدين وأخبرها صراحة أنها لم تعد تصلح للعمل فى قسمه وعليها أن تبحث لها عن مكان آخر.

هنا يتدخل دكتور «جاريد ماكنكولز» رئيس قسم السرطان بنفس الكلية الذى كان معجباً بأخلاقها وعلمها وجمالها وأصبح زوجها بعد ذلك.. تدخل لينقذ حياتها ومستقبلها الأكاديمى، ولو بصفة مؤقتة، فألحقها باحثة فى القسم الذى يرأسه.

الصدفة القدرية هى التى جمعت الشخصين ليواجها مؤامرة واحدة ومصيراً واحداً، فقد كان دكتور ماكنكولز بدوره مستهدفاً من داخل الجامعة وخارجها بسبب أبحاثه التى كشف فيها عن حقيقة أن المحاربين القدامى العائدين من حرب الخليج الأولى فى عهد الرئيس بوش الأب ليسوا مصابين بأمراض عصابية نفسية وإنما هى أمراض عضوية يمكن علاجها بالأدوية وأنها أمراض ناتجة من تعرض هؤلاء الناس لملوثات بكتيرية وكيميائية.. وبهذا تحدى الموقف الرسمى الذى أعلنه



البنتاجون وأصر عليه وروج له إعلامياً، بهدف القضاء على الشكوك التى بدأت تساور الأمريكيين حول سر هذه الأمراض وأسبابها الخفية، حتى لا تتطرق إلى الرأى العام أى فكرة عن وجود أسلحة بيولوجية سرية، تطورها الولايات المتحدة، فتفقد بذلك فاعليتها، وكان البنتاجون يفضل التضحية بمرضى حرب الخليج مع علمه أن المصابين منهم ومن أسرهم قد بلغ عددهم مائة ألف أو يزيدون على أن يفشى هذه الأسرار العسكرية، واعتبر أن من يتصدى لإفشائها خائن لبلاده.

أما بالنسبة للدكتور ماكنكولز، فإنه ترك ما يزيد على مائة ألف من الأمريكيين يعانون أمراضا مجهولة العلاج حتى الموت هو جريمة وطنية لا أخلاقية ولا إنسانية، وبسبب هذا الموقف استحق دكتور ماكنكولز هو الآخر العقاب.

وسوف نكتشف ونحن نتابع مأساة دكتور ماكنكولز وزوجته مارى أن هناك سبباً إضافياً آخر لرغبة السلطات داخل الجامعة وخارجها فى استئصالهما معاً، إن مارى هى الوريث الشرعى الوحيد لثروة طائلة تقدر بمليارات الدولارات، أوصى بها أبوها الذى توفى فى ظروف غامضة وهى لاتزال طفلة، حيث تولت أسرة أخرى تربيتها وأخفى عنها تماماً نسبها الحقيقى وميراثها.. تعرف مارى هذه الحقيقة متأخراً، وتبدأ البحث عن ميراثها والمطالبة به، بل تعرف أكثر من هذا أن هناك مجلساً من الأوصياء الأشرار يديرون هذا الإرث وينهبون منه الملايين لخدمة مصالحهم الخاصة، بل الأدهى من ذلك أن الجزء الأكبر من هذا الإرث يمول مراكز أبحاث الأسلحة البيولوجية فى البنتاجون وفى عشرات من الجامعات الأمريكية من بينها الجامعة التى تعمل هى فيها.. ومن هذا نفهم سر عداء إدارة الجامعة لها وعلى رأسهم مدير الجامعة، فهم جميعاً متعاونون مع مجلس الأوصياء ومع شخصيات ذات نفوذ فى الإدارة الأمريكية للإبقاء على هذه الثروة تحت أيديهم حتى لو اقتضى الأمر تحطيم صاحبة الإرث الشرعية نفسياً وأكاديمياً ثم التخلص منها هى وزوجها نهائياً.

وقد جرت محاولات عديدة لوضع السم فى طعامها وفى طعام زوجها وأصيبت بأمراض قاتلة لولا وجود زوجها بجانبها فى الوقت المناسب لإنقاذ حياتها وعلاجها.. ولم يقتصر الأمر عند ذلك فقط، بل افتعلت لهما حوادث تصادم بسيارات نقل استهدفت سيارتهم الصغيرة لولا تداركتهما العناية الإلهية فى كل مرة.. كما تم تحطيم سقف منزلهما واقتحامه والاستيلاء على أوراقهما وأجهزة الكمبيوتر التى يستخدمانها، بقصد الوصول إلى أى دليل لإدانتهما والتشهير بهما. وأخيراً لم يجد الدكتور نيكولز وزوجته بداً من الفرار بحياتهما بعيداً عن الجامعة وعن ولاية تكساس كلها لينشئا فى كاليفورنيا مركزاً خاصاً للأبحاث ويواصلا مساعدة مرضاهم من رجال البحرية الأمريكية، واستطاع بعض الضباط الكبار من الذين نجح دكتور ماكنكولز فى علاجهم أن يكونوا عوناً له فى إنشاء هذا المركز ومساندة نشاطه وأعماله فى مجال البحث والعلاج.

التجربة فى كتاب منشور:

قرر الزوج وزوجته أن يسجلا هذه التجربة الرهيبة فى كتاب مفصل يفضح فريقاً من العلماء الأشرار المتآمرين على حياة البشرية مع مجموعة من المتنفذين فى الإدارات الحكومية والبنتاجون بصفة خاصة فى تطوير وصناعة أسلحة بيولوجية سرية يمكن أن تهدد حياة البشر على هذه الكرة الأرضية بالفناء التام، جاء العنوان الفرعى للكتاب: «تراجيديا الحرب البيولوجية الأمريكية»، أما العنوان الرئيسى فهو: «مشروع داى ليلى» Profect Day Lily، و«داى ليلى» نوع من الزهور الجميلة هى زهرة السوسن أطلقه علماء الأسلحة البيولوجية وصفاً لميكروب جديد تخلّق فى معاملهم تحت إشراف البنتاجون هو ميكروب «مايكوبلازما فرمنتانس».. وهو ميكروب بالغ الخطورة يتسبب فى أمراض كثيرة.. ومن خطورته أنه لا يظهر فى أى تحليلات معملية للدم وبالتالى يستحيل علاجه.. وبقاؤه سراً على هذا النحو ضرورى لاستمرار فاعليته وتأثيره كسلاح سرى فى الحرب البيولوجية التى تشنها أمريكا على العالم..

ويغلب عندى الظن أن فيروس أنفلونزا الطيور سوف يكون أحد الأسلحة الأمريكية الجديدة، خصوصاً بعد أن أوشكت «المايكوبلازما» أن يكشف عنها الغطاء وتعرف وسائل علاجها.

الاسم الحقيقى للمؤلفين هو: دكتور جارث نيكولسون ونانسى نيكولسون. وقد انتحلا فى قصة الكتاب اسمين مستعارين هما: جاريد ماكنكولز ومارى لوبين، علماً بأن كل الأسماء الأخرى الواردة فى الكتاب منتحلة وليست حقيقية أيضاً، وقد نبه المؤلفان القارئ إلى هذه الحقيقة فى مقدمة الكتاب، وأوضحا السبب فى ذلك وهو: أن ذكر الأسماء الحقيقية للشخصيات من شأنه أن يعرضهما لمساءلات قانونية لا قبل لهما بها، ورغم أن الأسماء مستعارة إلا أن الأحداث الواردة فى الكتاب كلها حقيقية، وكذا الحوارات التى دارت فيه تم بناؤها من واقع خبرتهما الشخصية وذكرياتهما ومن شهود عيان تطوعوا بنقلها إليهما. أما الحقائق العلمية التى نوقشت فى الكتاب فهى حقيقية أيضاً، وقد تم توثيقها فى دراسات وأبحاث منشورة، وفى تقارير وشهادة رسمية أمام لجان تحقيق رئاسية وفى الكونجرس الأمريكى.

إنها تجربة بالغة الغرابة أودعها المؤلفان فى كتاب من ٥٦٨ صفحة مشتملة على الوثائق والتقارير الرسمية فى ملاحق الكتاب.

يصور المؤلفان شخصيات الكتاب تصويراً دقيقاً يرقى إلى مستوى الأدب الرفيع، وذلك من خلال حركاتها وسلوكها والحوارات التى دارت بينها.. وقد صيغ كل هذا صياغة أدبية محكمة تجعلنا نشعر أنها تعبر تعبيراً صادقاً عن السمات الفريدة المتميزة لكل شخصية على حدة، ومن خلال حواراتهم وسلوكهم يتبين لنا أن أكثر هؤلاء العلماء منخرط فى هذا النشاط اللاأخلاقى بل الإجرامى ـ وأقصد به إنتاج أسلحة بيولوجية قاتلة ـ (عن اقتناع) وكان الواحد منهم يحقق أيديولوجيته الخاصة ورؤيته للعالم والبشر.

ولكننا سنصادف أيضاً علماء آخرين ـ على قلتهم ـ قد انخرطوا مرغمين فى هذا النشاط، ولم يدركوا حقيقة ما تورطوا فيه إلا متأخراً، وتبين لهم أنه لا فكاك لهم، لأن حياتهم وبقاءهم مرهونان بالكتمان والاستمرار فى العمل وعدم البوح بأسراره، وأمامهم أمثلة بارزة على ذلك حيث فقد خمسة من العلماء حياتهم فى ظروف غامضة لأنهم أبدوا اعتراضهم على الأسلحة البيولوجية وأرادوا الانسحاب من هذه المهمة الإجرامية، بل إن جنرالاً فى البحرية الأمريكية فقد حياته بنفس الأسلوب لمجرد أنه تجرأ وحاول التحقق والبحث عن طبيعة «ظاهرة مرضى حرب الخليج» حيث بدأ يتشكك فى الرواية الرسمية للبنتاجون والحكومة.. تلك الرواية التى تزعم: أنه مرض نفسى أصيب به الضباط والجنود بسبب ضراوة الحرب وأنه لا صلة له بالأمراض العضوية أو التعرض لمواد ملوثة بالبكتيريا أو غيرها من أسلحة الدمار الشامل.

إن ترك ما يزيد على مائة ألف من الأمريكيين يعانون من أمراض مجهولة العلاج حتى الموت هو جريمة وطنية لا أخلاقية ولا إنسانية. وبسبب هذا الموقف استحق دكتور ماكنكولز هو الآخر العقاب

ومن الشخصيات المغلوبة على أمرها نصادف الدكتور «منج لون» وهو عالم صيني عبقري من علماء الأحياء الدقيقة، فر من الصين ونجا إلى الولايات المتحدة، حيث سقط في شباك عصابة الأسلحة البيولوجية. يقول عنه الكتاب: إنه عالم فذ ذو نزعة إنسانية ولكنه غير قادر على مقاومة أوامر رؤسائه حتى عندما تبين له أنها ضد الإنسانية وضد الأخلاق، ويعزو الكتاب ذلك العجز جزئياً إلى أنه قد اعتاد على طاعة رؤسائه السابقين في النظام الشيوعي الاستبدادي دون مناقشة.

يعتقد دكتور منج لون أن فيروس الإيدز (Hiv) وحده لا يقتل الإنسان وإن كان أحد أسباب هدم جهاز المناعة عند الإنسان. فقد لوحظ من الحالات التي فحصها لمرضى الإيدز وجود بكتيريا مصاحبة من نوع خطير من «المايكوبلازما» واستطاع أن يعزو التدهور السريع لجهاز المناعة إلى هذه البكتيريا لأنها على خلاف فيروس الإيدز قادرة على خداع خلايا المناعة، حيث تتغلغل في أنسجة الجسم وأعضائه وتختفي تماماً من مجرى الدم. فلا تظهر في أي تحليل لدم المريض.

قال وهو يتحدث إلى رئيسه الجنرال «آرمهوايت»:

«الذي يحيرني حقاً هو كيف دخلت المايكوبلازما هذه إلى مرضى الإيدز..!».

هنا يتنبه جنرال آرمهوايت أن منج لون قد وصل إلى منعطف خطير في استفساراته، فنظر إليه محذراً في لهجة واضحة التهديد.. قال: يجب أن تتنبه أننا عندما نتحدث عن الإيدز فيجب أن نحصر كلامنا عن فيروس الـ Hiv. ونقطع ألسنتنا تماماً عن الخوض في المايكوبلازما المصاحبة لهذا الفيروس.. إن آلاف الأطباء في العالم يتعاملون مع الإيدز.

«يتشكك في شيء إضافي مصاحب للفيروس..».. لاحظ الجنرال آرمهوايت أن منج لون يهز رأسه صامتاً وقد بدا على وجهه الوجوم وعدم الاقتناع فواصل تحذيراته بعبارات صارمة وجارحة في نفس الوقت، حيث قال: «منج.. إنك تثير غضبي بسبب ما يعتريك من نوبات إنسانية تافهة من وقت لآخر.. لا تنس أننا توصلنا إلى سلاح بيولوجي رائع.. إنه آخر شيء يمكن أن يتوقعه أي إنسان.. فهو ينتج عدداً لا حصر له من الأعراض المرضية المحيرة للإنسان تسلمه إلى الموت أو العجز المزمن، وبهذا يمنحنا ميزة فائقة على المدى الطويل. فيما يتعلق بأهدافنا العسكرية ـ ضد الدول المارقة والمشاغبة مثل كوبا وكوريا الشمالية.. فانتشار العجز بين سكان هذه البلاد المعادية يمكن أن يؤدي بها إلى الإفلاس، حيث يتحول العدد الأكبر من الناس إلى عجزة غير قادرين على الإنتاج».

هز دكتور منج لون رأسه مستنكراً وحاول مرة أخرى أن يوضح فكرته مبدياً شكه في القدرة على احتواء هذا المرض إذا تحول إلى وباء «لا ينجو منه الجنود الأمريكيون بل ينتقل معهم إلى أسرهم هنا.. ولن ننجو منه نحن كذلك!.. أنا لا أظن يا سيدي أنه مرض يمكن السيطرة عليه.. ولا أعتقد أن المضادات الحيوية ستكون ذات فاعلية في هذه الحالة».

زمجر جنرال آرمهوايت ورد بحزم بادي العنف: «دكتور لون.. العلماء من أمثالي وأمثالك لن يصيبهم هذا المرض أبداً بسبب هذا الكائن الدقيق.. إننا مختلفون.. إننا علماء كبار.. من جنس أعلى شأناً من بقية الناس.. إننا نملك مفاتيح هذه الأسرار المستغلقة على سائر البشر.!

لم يستسلم دكتور لون بعد بل مضى في محاولة إقناع الجنرال فألقى بآخر ما في جعبته من هواجس ومخاوف قال: «سيدي.. إن إطلاق هذا الكائن بين الناس قد يتسبب في كوارث لا حدود لها.. فهو ميكروب قابل للتشكل والتكيف وتتغير خصائصه بمرور الوقت.. ومن ثم يصبح شرساً لا نستطيع مقاومته!».

أجاب الجنرال نافد الصبر: «منج.. يجب أن تتوقف عن هذا المراء والجدل العقيم.. لقد أصبح الأمر خارج أيدينا الآن.. إنه الآن في يد أعلى مستوى من الإدارة السياسية للبلاد».

في هذه الأثناء جاء الدكتور «دويتشمان» وقد تناهت إلى مسامعه أطراف من الحديث فأراد أن يساند الجنرال.. قال وهو يوجه النقد إلى دكتور منج لون: «لا تكن شديد النبل يا دكتور منج.. فالأرض قد ضاقت بسكانها.. وإبادة هذه الجحافل من السكان المتخلفين سيترتب عليها بالتأكيد تحسن في وسائل العيش على هذا الكوكب.. انظر إلى أفريقيا وآسيا وغيرهما من قارات العالم الثالث وهي تعج بحشود من البشر.. هذه «المايكوبلازما» سوف تقوم بعمل رائع في خدمة أهدافنا السياسية العليا على المدى البعيد.. هل تحتاج إلى أن أذكرك؟ إنها أهداف من شأنها أن توفر الفرصة لعدد أقل من سكان هذا الكوكب ـ هم صفوة الصفوة ـ للتحكم في موارد الأرض.. تذكر أيضاً أن هذا الانفجار السكاني الذي نشهده اليوم يعوق أهدافنا التي رسمناها للقرن الواحد والعشرين.. إن بقاء هذه الأعداد الهائلة من البشر سوف يحدث خللاً خطيراً في النظام العالمي الجديد!.. أنت مثلاً جئت هارباً من الصين الشيوعية.. تصور ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن مجموعة من القادة الشيوعيين الأغبياء قد تمكنوا من السيطرة على العالم!.. إن العالم كله سوف يصبح مثل الصين الحمراء!».

تمهل دكتور منج لون قليلاً حتى تهدأ انفعالات «دويتشمان» ثم ابتدره بقوله: «ولكن يا سيدي ليس كل الناس أقوياء بدنياً وعقلياً في آن واحد.. ونحن نعلم أن بعض عظماء التاريخ كان من بينهم أناس معوقون بدنياً.. وإذا انتشر هذا الوباء الذي تشارك في صنعه فسيكون أمثال هؤلاء العباقرة هم أول الضحايا».

هنا تدخل الجنرال آرمهوايت ليحسم الأمر وينهي الجدل.. قال: «من يحتاج مثل هؤلاء المعوقين؟ فليذهبوا إلى الجحيم.. إن العالم سيكون أفضل إذا تخلصنا منهم.. امضوا إلى أعمالكم ياسادة وكفى جدالاً».

علماء ولكن أشرار

هناك نماذج أخرى من الشخصيات المعقدة تعمل في الجامعة ومراكز الأبحاث بها.. مما يصوره الكتاب أحسن تصوير.. من هذه النماذج شخصية دكتور «جيلتر» ودكتورة «آمي كرابنر».. فدكتور «جيلتر» يتمتع بقدرة هائلة على إخفاء حقيقة ما يكنه من مشاعر تجاه الآخرين، حيث يظهر لهم المودة، بينما يدبر لهم المكائد في الخفاء للإيقاع بهم.. وهو دائم المفاخرة بما يتمتع به من مواهب عبقرية مزعومة وبما تم إنجازه على يديه.. وفي الحقيقة ما يزعم هو أنها إنجازات ليست أكثر من مبالغات، أو انتحالات من أعمال الآخرين الذين أوقعهم الحظ العاثر تحت سيطرته الإدارية.. أما عبقريته الحقيقية فتتجلى في قدرته على الخداع وتدبير المؤامرات للآخرين وتشويه سمعتهم بنسبة أشياء سيئة من صنع خياله إليهم.

وتتجاوب مع هذه السمات الشيطانية دكتورة آمي كرابنر.. هذا إلى جانب كونها قبيحة الوجه حقودة وتافهة.. ومن ثم فلا عجب أن يتوافقا معاً في التآمر على زميلة لهما بالكلية تتمتع بقسط ملحوظ من الجمال والاستقامة والإنجازات العلمية الحقيقية هي الدكتورة «ماري لوبين».. وهكذا بدأ دكتور جيلتر ودكتورة كرابنر في نسج شائعات مهينة عنها.. فعندما أصيبت بمرض غريب (بسبب سموم وضعت لها في الطعام كما علمنا) أشاع جيلتر وكرابنر أنها لا تعاني من مرض عضوي، ولكنه مجرد أعراض عصابية لمرض نفسي.. وينضم إليهما أستاذ ثالث من الشخصيات المرموقة في الكلية هو دكتور «جراهام» إذ يساهم بنشر شائعات كاذبة ضد دكتورة ماري لتثبيتها ودفعها إلى الجنون أو الانتحار.. لذلك وجدناه يسعى بين أعضاء هيئة التدريس والطلبة والإداريين بقصة لا يمل من ترديدها.. مفادها أنها سرقت رسالتها للدكتوراة من أحد طلابها ثم حطمت مستقبله، وأن الأستاذ الذي كان يشرف على رسالتها راودها عن نفسها فأذعنت له.. ولولا ذلك ما حصلت على درجة الدكتوراة!

تلك عينة من البشر اختارهم مدير الجامعة المرموز إليه في الكتاب باسم «دكتور ماستر» ليقوموا نيابة عنه بالأعمال القذرة بل والإجرامية ضد ماري وزوجها.

في هذه الأثناء يلقى دكتور كانون مصرعه في ظروف غامضة داخل مكتبه في الجامعة ـ كما سبق أن ذكرنا ـ ويشيع مدير الجامعة أن تحقيقات الشرطة كشفت عن قاتله وهو إرهابي من أصل إيراني، والحقيقة أن تحقيقات الشرطة لم تسفر عن شيء وقيدت الحادثة ضد مجهول.. ثم تتوالى الاغتيالات لخمسة آخرين من العلماء بالجامعة وتلفق التحقيقات على نفس المنوال.

كانت دكتورة ماري تعتزم السفر إلى بريطانيا للمشاركة في مؤتمر ينعقد في جامعة أكسفورد، ووجدها مدير الجامعة فرصة للتخلص منها بعيداً عنه فجمع أتباعه وأخطرهم بالمهمة الجديدة ثم ترك لهم تدبير التفاصيل وحذرهم في نهاية الاجتماع قائلاً: «أنا لا أريد أن أعرف ما ستفعلونه ولا متى.. أنا مهتم فقط بالنتائج.. لا يرد اسمي على ألسنتكم، ولا



تتصلوا بي أثناء العملية.. هذه العملية يجب أن تكون محكمة غير قابلة للاكتشاف».

وفي محاولة أخرى يجري حوار طويل بين دكتور بلتشر نائب رئيس الجامعة للأبحاث وبين دكتور إيطاليانو المكلف بمهمة جديدة لاغتيال دكتورة ماري.. وعندما أبدى إيطاليانو بعض الاعتراض عنفه محذرًا: «دعني أضع لك المسألة بطريقة أخرى. كما فهمت من دكتور ماستر. إذا لم تشارك في هذه المهمة وتفعل ما تؤمر به فسوف لن يكون لمكانك أو مركزك وجود في خطة الجامعة القادمة... وكذلك يريد بلتشر ألا يذكر إيطاليانو شيئًا عن رئيس الجامعة أو عنه شخصيًا فيقول: «أنا ليس لي أي علاقة بالموضوع.. ولم أتحدث إليك بشيء.. هل فهمت؟!».. فلما واصل إيطاليانو اعتراضاته ألقى إليه بلتشر بآخر تهديد - قال: «أنت تعرف أن هذه ليست أول مرة تقوم بخدمة مثلها لدكتور ماستر.. أم أنك قد نسيت؟!» هنا انهارت مقاومة إيطاليانو فجأة وشرع يسأل مع زملائه: «ما هي الجائزة والزيادة في المرتبات والحسابات البنكية؟!»..

أقول معلقًا: عندما يوجد شخص ما على رأس مؤسسة علمية مثل الجامعة يديرها بعقلية رئيس عصابة، وعندما يكون مسئولا عن تطوير مشروع إجرامي في الأسلحة البيولوجية السرية متسترًا تحت غطاء الجامعة وسمعتها العلمية. لابد أن يسري الفساد في هذه المؤسسات إلى النخاع.. ولا يُستغرب أن تطفو على السطح وتبرز مثل هذه الشخصيات المنحرفة فتملأ المكان بالعفونة والشر.. وتطارد الشخصيات التي تتمسك بنبلها الأخلاقي وكرامتها العلمية من أمثال دكتورة ماري وزوجها دكتور جاريد.

عندما قرر (رئيس العصابة) التخلص من دكتور جاريد ماكنكولز (الاسم الرمزي لمؤلف الكتاب) بعث إليه بثعبان ناعم الملمس هو دكتور كلينجر.. جاءه بوجه بشوش هادئ ليسمح له بالمشاركة في اجتماع علمي مع زملاء لدكتور جاريد قادمين من هولندا.. وحرص أن يجلس على مائدة الطعام بجوار دكتور جاريد ليدس له السم في طعامه على غفلة منه.. ولكن دكتور جاريد أصبح يتوجس خيفة من تناول الطعام خارج بيته بعدما تكررت محاولات تسميمه هو وزوجته.. فاقتصر على تناول لقيمات قليلة.. ومع ذلك شعر في تلك الليلة بآلام حادة في معدته وتأكدت بذلك شكوكه في دكتور كلينجر.

تصاعدت محاولات اغتيال دكتور جاريد وزوجته وتعددت أساليبها وقد سبق أن أشرنا إلى محاولة بعض سيارات نقل كانت تتحرش بسيارتهما الصغيرة والتصادم بها، كما لاحظ دكتور جاريد أن حرس الجامعة يتربصون به لقتله عند خروجه من الجامعة وجرت مطاردة له في إحدى الأمسيات ولكنه تمكن من الإفلات منهم.. وبلغ الأمر بالتحرشات والاعتداءات. كما ذكرنا سابقًا. إلى درجة السطو على منزلهما وسرقة وثائق وملفات خاصة بهما. وسرقت عينات الدم والأنسجة التي حصلا عليها من مرضى حرب الخليج (لفحصها) في معملهما بالكلية.

وضيق عليهما رئيس الجامعة الخناق والمحاصرة.. وفرضت الرقابة الكاملة على اتصالاتهما وبريدهما والفاكسات التي تصل إليهما في الجامعة. فكانت هذه كلها ترسل إلى رئيس الجامعة.. فقد قرر الرجل حرمانهما من كل نشاط علمي: فلا ندوات ولا محاضرات ولا مقابلات صحفية ولا نشر لأبحاثهما في مجلات علمية.

فلما فشلت كل محاولات الاغتيال قرر إبعادهما نهائيًا من الجامعة، فسلط على دكتور جاريد لجان تحقيق وجهت إليه اتهامات أبطلها بحججه ومنطقه.. وأخيرًا قام رئيس الجامعة بتشكيل لجنة عليا برئاسته وعضوية نوابه الكبار للنظر في أبحاثه وتقييمها وإثبات تجاوزاته للنظام الجامعي.. كانت أسئلة المحققين تصوب إليه كالرصاص من كل جانب باستفزاز واضح.. ولكن دكتور جاريد امتص غضبه بهدوء وأجاب عليهم إجابات منطقية أفحمتهم جميعًا.. ثم شرع يهاجم مواقفهم ويكشف عما فيها من تناقضات، مما جعل أحد أعضاء لجنة التحقيق يبدي امتعاضه من أسلوب المحققين المستفز والهجوم الذي لا مبرر له على زميل لهم من كبار العلماء.

فلما تبين الرئيس أن الطوق الذي أحكمه على رقبة دكتور جاريد بدأ ينكسر وأنه لا فائدة من الاستمرار في التحقيق، وقف فجأة بادي الإحباط ثم أشار بانتهاء الجلسة وانفض الجمع إلى حال سبيله.

ولكن دكتور جاريد أيقن أنه لا سبيل إلى بقائه في هذا الجحيم وأنه لم يعد أمامه هو وزوجته غير الفرار..

وكانت بداية اهتمام دكتور ماكنكولز بالظاهرة التي أطلق عليها «مرض حرب الخليج» عندما عادت ابنته مريضة، وكانت مجندة في حرب الخليج الأولى. كانت تعاني من مرض غريب أبرز أعراضه الإعياء الشديد المزمن مع تدهور في صحتها العامة. وقد صنفها أطباء الجيش مع الأمراض النفسية كغيرها من العائدين من الحرب. ولكن أباها وهو الطبيب العالم فحصها وتأكد أنها لا تعاني أي اضطرابات نفسية، وإنما مصابة بنوع من الميكروب يسمى «مايكوبلازما فرمنتانس» Mycoplasma Fermentans.

أكد هذا الاتجاه عند دكتور ماكنكولز أن دكتور «موشي» - من أطباء الجيش - قد تشكك هو أيضًا في الحالات المرضية للجنود العائدين، حيث لاحظ أنها لا تستجيب للعلاجات النفسية العصبية. فأحال بعضهم للدكتور ماكنكولز لفحصهم وعلاجهم. هؤلاء الجنود والضباط الذين تحقق الشفاء لهم على يد دكتور ماكنكولز كانوا أكبر دعاية له في أوساط القوات البحرية وأسرهم ممن يعانون من أعراض مماثلة.. وكانوا أكبر عون له في محنته مع إدارة الجامعة، وفي إنشاء مركز أبحاثه الخاص بكاليفورنيا.

من هما المقصودان؟

ما ورد في هذا المقال ليس قصة أدبية من نسج الخيال، وإنما هو وقائع وأحداث حقيقية جرت على الأرض.. هي حقائق عاشها شاهدا عيان وكانا من ضحاياها.. وشاءا أن يسجلاها للتاريخ والعبرة في كتاب.. وليس المؤلفان شخصين عاديين، ولا صحفيين ممن يجريان وراء الأخبار المثيرة لإمتاع القراء ونيل الشهرة، إنما هما من أبرز العلماء وأكثرهم شهرة في الولايات المتحدة، وضعهما القدر - في مرحلة من حياتهما معًا - في واحد من أكبر مراكز تطوير الأسلحة البيولوجية في العالم.. إنهما الزوجان دكتور جارث نيكولسون ونانسي نيكولسون.

الأول مدير وكبير العلماء في أشهر مركز أبحاث طبية بهانجتون في ولاية كاليفورنيا.. كان في السابق أستاذ الطب التكاملي في جامعة كابتول.. كما عمل أستاذًا في جامعة «نيوكاسل» بأستراليا، ثم في جامعة تكساس.. تعتبر أبحاثه وكتاباته من أهم المراجع التي يحرص الباحثون على الاتصال بها، لمعرفة آخر تطورات البحث العلمي في الكائنات الدقيقة.. نُشر له أكثر من ٢٥٠ دراسة علمية وطبية.. وحرر ١٤ كتابًا لمجموعة من كبار العلماء.. وعمل في مجالس تحرير عشرين مجلة طبية وعلمية.. وهو الآن رئيس تحرير مجلتين علميتين.. حصل على جوائز عديدة في الطب والعلوم من الولايات المتحدة وبريطانيا.

أما زوجته وشريكته في تأليف الكتاب فهي رئيسة مجلس إدارة المركز المذكور.. عملت في كثير من الجامعات الأمريكية، ونُشر لها خمسون بحثًا علميًا مرموقًا.. وحاضرت في مؤتمرات علمية عالمية بالولايات المتحدة وخارجها، بلغ عددها ٦٠ مؤتمرًا.. وحصلت هي أيضًا على جوائز علمية.. وكانت امرأة العام العلمية سنة ١٩٩٦ - ١٩٩٧م.

مركز الأبحاث الطبية الذي يملكانه، طبقت شهرته الآفاق وله موقع على الإنترنت يحظى باحترام واسع من العلماء، وهو موئل لزيارة عشرات الألوف من المستفسرين وطالبي العلاج والمؤيدين لتوجهات المركز والمساندين له في أنحاء العالم، ورقمه على شبكة الإنترنت هو www.immed.org..

انفتاح الأفق:

من هنا فصاعدًا سوف نشير إلى صاحبي القصة باسميهما الحقيقيين: جارث نيكولسون ونانسي نيكولسون، ونهمل الاسم المستعار (جاريد وماري ماكنكولز).. فقد حدث تغير جذري في حياتهما: كانا ممنوعين - أثناء عملهما بالجامعة - من التحدث إلى الصحافة والإعلام، بل من المحاضرة والاشتراك في المؤتمرات العلمية.. ولكن بنضالهما ومساعدة أصدقائهما في القوات البحرية والكونجرس انفتح الطريق أمامهما لمخاطبة الرأي العام الأمريكي على نطاق واسع، وتمكنا من المحاضرة في وزارة الدفاع وفي إدارة المحاربين القدامى.

واستطاع دكتور جارث نيكولسون تقديم تقارير مفصلة إلى الكونجرس وأدلى بشهادته (تحت القسم) أمام لجنة المحاربين القدامى، وجاء تقريره فى ٢٤ يناير ٢٠٠٢ شاملاً وقاطعاً ومدعماً بالوثائق والأدلة العلمية المستخلصة من دراسته وفحصه لعدد كبير من مرضى حرب الخليج، واستطاع أن يلفت نظر البنتاجون بقوة إلى ضرورة الاعتراف بحقيقة المرض والبدء فى علاجه بالطريقة الصحيحة، باعتباره مرضاً عضوياً لا علاقة له بالأمراض النفسية.. وقد أثبت فى تقريره الحقائق التالية:

١ - أن المرضى قد تعرضوا فى حرب الخليج لمواد كيمائية سامة ولأشعة ذرية ولأسلحة بيولوجية.

٢ - أن المرض قد انتقل إلى أفراد أسر الضحايا الأكثر اختلاطاً بهم.

٣ - وجود نوع من بكتيريا المايكوبلازما يسمى «فرمنتانس».

٤ - وجود أعراض مرضية ناتجة من تحلل الجهاز العصبى المركزى منها مرض الإعياء الشديد المزمن «Fypromayologia» (فيبروميولوجيا).

٥ - إمكانية علاج إصابات المايكوبلازما بنوع من المضادات الحيوية هى: دوكسيسيكلين Doxycycline.

وشدد دكتور نيكولسون فى نهاية تقريره على ضرورة محاكمة المسئولين عن إعداد الجيش للمعركة وعن إنكار حقيقة المرض والمماطلة فى العلاج.

وردت فى ثنايا الكتاب حقائق أخرى كثيرة بعضها جاء عرضاً، ولكن فى مجموعها تستحق من القارئ المحلل كثيراً من البحث والتأمل، فوق أنها تثير تساؤلات مهمة منها مثلاً: أى نوع من النظام هذا الذى يحكم الولايات المتحدة؟! من هذه الحقائق:

١ - اعترف الجنود المرضى بأن قياداتهم أمروهم بتلقى عدد كبير من التطعيمات قبل الذهاب إلى الجبهة بزعم أنها ضرورية لمقاومة آثار الأسلحة ذات الدمار الشامل التى عند صدام حسين وأمروهم ألا يفصحوا لأحد عن هذه التطعيمات حتى لا يفسد صدام حسين هذه الخطة..!

٢ - حصل دكتور نيكولسون على تقارير من أصدقاء له فى منطقة الشرق الأوسط عن تفشى أمراض الإنهاك المزمن والسرطان بشكل ملحوظ بين الأهالى فى المناطق العسكرية.

٣ - عندما تفجر موضوع ظاهرة مرضى الخليج فى الإعلام الأمريكى اختفت الطعوم المخزنة بالآلاف حتى لا يتم فحصها فى أى تحقيق محتمل.. وفعلاً عندما طلب الكونجرس ملفات هذه الطعوم للتحقيق لم يحصل على شىء.

٤ - عرف دكتور نيكولسون من حراس سجون تكساس الذين لجأوا إليه لعلاجهم عن جوانب مروعة من التجارب التى أجريت على نزلاء السجون دون علمهم بحقيقة هذه التجارب، فلما فقدوا حياتهم قام الجيش بنقلهم إلى معسكراته، حيث أحرقت جثثهم مع سجلاتهم فى مدافن خارج المدينة.. وقال أحد الحراس إن الجيش أخذ صورة من هذه السجلات كما أخذ تعهدات منا إذا وجدنا أى ملفات أخرى مفقودة، فإن من وجدها مسئول عن تسليمها فوراً إلى الجيش.

٥ - دكتور تشارلز مورفى: ضابط طبيب بالبحرية الأمريكية كان رئيساً لوحدة مهمتها إجراء تجارب على بعض المتطوعين المجندين فى البحرية فى أحد المستشفيات العسكرية. أفلت أحد ضحاياه من الموت وجاء يطلب مساعدة دكتور نيكولسون.. إنه المجند «مايكل جونز».. يقول: «عندما أفقت من إحدى النوبات التى انتابتنى أثناء التجارب سألت الممرضات عن زملائى المتطوعين فعرفت أنهم قد ماتوا جميعاً ولم يبق سواى.. فلما ذهبت إلى دكتور ميرفى استفسر منه، أنكر الواقعة تماماً.. بل أنكر أنه عمل فى المستشفى الذى ذكرته له وكنت أخضع فيه لتجاربه، كذلك أنكرت القوات البحرية وجود اسمى ضمن سجل مرضاها..». ولكن مع إصرار المجند ومساعدة نائب الكونجرس عن ولايته تمكن من استرجاع ملفه الطبى من المستشفى وظهر توقيع دكتور مورفى عليه مصحوباً بخاتم مكتوب عليه «تجارب الحرب البيولوجية».

٦ - أعجب ما ورد فى الكتاب من أخبار دكتور مورفى هذا أنه عمل فترة من الوقت رئيساً لمعمل أبحاث خاص بالحرب البيولوجية (فى مصر).. طبعاً هو مركز أمريكى..! يذكر الكتاب أنه معروف باسم «مركز أبحاث أمراض المناطق الحارة».. فأى مركز هذا؟ وفى أى موقع يوجد على خريطة المحروسة؟ وماذا كان يفعل دكتور مورفى فى مصر؟

هذا المورفى الذى لم يتورع عن استخدام مواطنيه الأمريكيين حيوانات تجارب على الأسلحة البيولوجية هل يتورع عن استخدام المصريين التعساء الذين تغص بهم المستشفيات العامة ويموت منهم العشرات يومياً فى صمت.. هل يتورع عن استخدامهم حيوانات تجارب للحرب البيولوجية؟! سؤال يحتاج إلى بحث لا أطيقه ولست مؤهلاً له.. وحسبنا الله ونعم الوكيل! ◼

كتاب الزاوية

عن بيع البنوك المصرية للأجانب

عادل حسين

❖ لماذا نسمح ببنوك العملات الحرة التى ستنافس بنوكنا المصرية فى تجميع المدخرات العربية ومدخرات المصريين فى الخارج: كى توجهها إلى أعمال لا تخضع لأولوياتنا.. ولكن تخضع لأوامر المراكز الرئيسة لهذه البنوك فى العواصم الأجنبية؟!

❖ إن البنوك وشركات التأمين هى خط الدفاع الأساسى للقطاع العام.. وهى الضمان الأساسى لإمكانية تمويل التنمية، فبدون السيطرة المركزية على الموارد والتحكم فى إنفاقها وفق الأولويات.. كيف نتحدث عن تنفيذ خطة مستقلة طموح؟

❖ كان إنشاء بنك مصر من النتائج الجوهرية لثورة ١٩١٩ الوطنية العارمة. وكان أجدادنا يدركون أن اقتحام القطاع المصرفى أساس للتحرك نحو الاستقلال الاقتصادى، وكان طلعت حرب يقول: إن «أموال البلاد معطلة: بعضها مُكتَنَز، وبعضها فى بنوك أجنبية، وكلاهما لا تستفيد منه البلاد شيئًا مذكورًا. إن نظرة فى تقارير هذه البنوك، تدلنا على أن الجزء الأكبر من أموالنا مستعمل خارج البلاد، فى بونات على خزائن الحكومات، أو سَنَدات قروض الحرب، أو ما شابه ذلك من العمليات التى هى فى مصلحة المساهمين فقط، ومصلحة الدول التابعة لها». إلا أن قوى السيطرة الاستعمارية، كانت تدرك أهمية بقائها فى هذا الموقع أداة أساسية لاستمرار سيطرتها: ولذا لم يكن التمصير سهلاً، وبعد أكثرَ من ثلاثة عقود من النضال، كانت البنوك الأجنبية فى عام ١٩٥٦ ما زالت تستحوذ على ما يزيد على نصف جملة الودائع بالبنوك التجارية، وعلى ما يناهز نصف إجمالى قروض البنوك والكمبيالات المخصومة لديها.



المراغي المصلح

محمد عمارة

استطاعت عبقرية الشيخ المراغي أن تنجز - في إصلاح الأزهر الشريف - ما عجز عنه الكثيرون - من السابقين واللاحقين

** • الشيخ المراغي.. هو محمد بن مصطفى بن محمد بن عبدالمنعم المراغي (١٢٩٨ - ١٣٦٤هـ/ ١٨٨١ - ١٩٤٥م) - نسبة الى «مراغة» مركز «جرجا» محافظة «سوهاج» - بصعيد مصر.

• ولد في ٧ ربيع الثاني عام ١٢٩٨ هـ - ٩ مارس عام ١٨٨١م.

• ولقد وجهه والده - الذي كان على قدر من العلم والثقافة - إلى حفظ القرآن الكريم.. ولقنه نصيباً من المعارف الدينية العامة.

ولنجابته بعث به والده لطلب العلم في الأزهر الشريف - بالقاهرة - فتلقى العلم على كوكبة من علمائه.. وتأثر بعلماء التيار المجدد - ومنهم شيخه الشاب على الصالحي - الذي درس المراغي عليه علوم العربية، وتأثر بأسلوبه في البيان والتعبير.

حرص المراغي على أن تكون الدراسة بالأزهر جامعة بين الطرق القديمة والطرق الحديثة المعروفة عند علماء التربية»

• فلما كان اتصاله بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) كانت النقلة النوعية التي حددت مكانته العلمية، ومستقبله في مدرسة الإحياء والتجديد والإصلاح.. فلقد تتلمذ على محاضرات الأستاذ الإمام في التفسيرات للقرآن الكريم.. وفي التوحيد وتنقية العقائد الإسلامية من «شغب» المتكلمين القدماء.. وفي البلاغة التي وصلت العربية الحديثة بعصر الازدهار، متخطية عصور الجمود والركاكة والانحطاط.

• وفي ١٢ ربيع الأول عام ١٣٢٢هـ - ٢٧ مايو عام ١٩٠٤م - تقدم الشيخ المراغي لامتحان «العالمية» - وهو في الرابعة والعشرين من عمره - وكان أصغر أقرانه سناً - وكان يومئذ مريضاً بالحمى - فنال شهادة «العالمية» بتقدير «الدرجة الثانية» - مثل أستاذه محمد عبده!.. وذلك لأن الطلاب السالكين طريق التجديد لم يكونوا - في ذلك الحين - يحظون بالرضى من قبل شيوخ الأزهر، الذين كانت تغلب عليهم المحافظة والتقليد!

• وكما كان محمد عبده أنجب تلاميذ جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ/ ١٨٣٨ - ١٨٩٨م) - موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام - وكان المهندس الأول لفكر مدرسة الإحياء والتجديد، وأبرز زعماء الإصلاح الديني.. كذلك كان الشيخ المراغي أنجب تلاميذ الأستاذ الإمام، وحامل لواء مشروع الإصلاح الديني الذي صاغته هذه المدرسة، لتخرج به الأمة الإسلامية من بين شقي رحى «التخلف الموروث» و«التغريب» الزاحف على العقل المسلم في ركاب الاستعمار الغربي، والذي يتمدد في الفراغ الثقافي الذي صنعه الجمود والتقليد.

• ولقد عمل الشيخ المراغي - عقب تخرجه - بالتدريس في الأزهر بضعة أشهر، لفت فيها الأنظار، حتى لقد التفت حوله حشود من الطلاب.

• وبعد عام من تخرجه، رشحه الشيخ محمد عبده ليعمل قاضياً بالسودان - الذي كان تحت الحكم الثنائي: الإنجليزي المصري -.. ولقد كتب عن لقائه بأستاذه الإمام محمد عبده لوداعه ليلة سفره إلى السودان سطوراً تفصح عن نضجه العلمي المبكر، وتشي بملامح عبقرية إسلامية في طريقها إلى التألق والنبوغ.. كتب فقال:

«ذهبت لوداع الشيخ محمد عبده ليلة سفري إلى السودان لتولي قضاء مديرية دنقلة في نوفمبر ١٩٠٤م، فسألني:

- هل معك رفقاء السفر؟

- فقلت: نعم، بعض كتب آنس إليها، وأستديم بها اتصالي بالعلم.

- فقال: أو معك كتاب الإحياء (إحياء علوم الدين للإمام الغزالي؟).

- فقلت: نعم.

- فقال: هذا الكتاب لا يجوز لمسلم أن يسافر سفراً طويلاً دون أن يكون رفيقه».

ثم يستطرد الشيخ المراغي متحدثاً عن مكانة الإمام الغزالي في فكره.. ومكانته من فلاسفة الإسلام فيقول:

«إذا ذكرت أسماء العلماء، اتجه التفكير إلى ما امتازوا به من العلم وشعب المعرفة..

فإذا ذكر ابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨هـ/ ٩٨٠ - ١٠٣٧م) أو الفارابي (٢٦٠ - ٣٣٩هـ/ ٨٧٤ - ٩٥٠م)، خطر بالبال فيلسوف عظيم من فلاسفة الإسلام..

وإذا ذكر ابن عربي (٥٦٠ - ٦٣٨هـ/ ١١٦٥ - ١٢٤٠م) خطر بالبال رجل صوفي له في التصوف آراء لها خطرها.

وإذا ذكر البخاري (١٩٤ - ٢٥٦هـ/ ٨١٠ - ٨٧٠ م) ومسلم (٢٠٦ - ٢٦١هـ/ ٨٢٠ - ٨٧٥م) وأحمد (١٦٤ - ٢٤١هـ/ ٧٨٠ - ٨٥٥م) خطر بالبال رجال لهم أقدارهم في الحفظ والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال.

أما إذا ذكر الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ/ ١٠٨٥ - ١١١١م): فقد تشعبت النواحي، ولم يخطر بالبال رجل واحد، بل خطر بالبال رجال متعددون، لكل واحد منهم قدرته وخطره. يخطر بالبال الغزالي الأصولي الحاذق الماهر، والغزالي الفقيه الحر، والغزالي المتكلم إمام السنة وحامي حماها، والغزالي الاجتماعي الخبير بأحوال العلم وخفيات الضمير، ومكنونات القلوب، والغزالي الفيلسوف الذي ناهض الفلسفة وكشف عما فيها من زخرف وزيف، والغزالي المربي، والغزالي الصوفي الزاهد.

وإن شئت فقل: إنه يخطر بالبال رجل هو «دائرة معارف» عصره، ورجل متعطش إلى معرفة كل شيء، نهم إلى جميع فروع المعرفة..».

هكذا كتب الشيخ المراغي عن الفكر الإسلامي وأعلام هذا الفكر - في هذه السن المبكرة - هذه السطور التي تحدد مكانته من العلم الإسلامي.. ومن تقدير العلماء..

• وفي السودان، عمل الشيخ المراغي قاضياً لمديرية «دنقلة».. ثم انتقل قاضياً لـ«الخرطوم».. واتصلت - من السودان - مراسلاته مع شيخه الأستاذ الإمام، الذي ظل المراغي وفياً له ولمذهبه في الإصلاح الديني، حتى لقد أرجع إليه كل ما قدم في هذا الميدان.. فقال عنه - يوم عودته المظفرة إلى مشيخة الأزهر - في ربيع الأول ١٣٥٥ هـ - يونية ١٩٣٥م: «إنه هو المصباح الذي اهتدى به».. ووصف منزله بأنه «كان محط الرغائب، وأمل كل طالب».

• وفي عام ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧م استقال الشيخ المراغي من منصب القاضي بالسودان - لخلاف بينه وبين قاضي القضاة والسكرتير القضائي - مستر كارتر - وهو إنجليزي - حول اختيار المفتشين بالمحاكم الشرعية السودانية.. وحول التمييز الإنجليزي بين القضاة الإنجليز وبين القضاة المصريين.. فلقد كان مرتب القاضي الإنجليزي خمسين جنيهاً، بينما كان مرتب القاضي المصري أربعة عشر جنيهاً.. فلما قرر المفتش القضائي الإنجليزي للقضاة المصريين «علاوة» قدرها ستة جنيهات، رفضها الشيخ المراغي.. ودار بينه وبين المفتش الإنجليزي هذا الحوار:

- كارتر: إني لأعجب لقاضٍ شرعي يرفض ستة جنيهات علاوة في الشهر!

- الشيخ المراغي: إن عجبي مثل عجبك! من أن القاضي الإنجليزي يتناول ٥٠ جنيهاً، بينما تستكثر على القاضي الشرعي ٢٠ جنيهاً!

وطلب الشيخ إجازة ثلاثة أشهر، وعاد إلى مصر، واستقال.. ورفض العودة إلى السودان، رغم إلحاح السكرتير الإنجليزي عليه في العودة.

• وفي غرة شعبان عام ١٣٢٥ هـ - ٩ سبتمبر ١٩٠٧ - عين الشيخ المراغي مفتشاً للدروس الدينية بديوان عموم الأوقاف (نظارة الأوقاف).. ولقد جمع بين هذه الوظيفة وبين العمل الذي يهواه، وهو التدريس بالجامع الأزهر.

• وإبان عمله مفتشاً للدروس الدينية بنظارة الأوقاف، صحب الخديو عباس حلمي الثاني (١٢٩١ - ١٣٦٣هـ/ ١٨٧٤ - ١٩٤٤م) لصلاة الجمعة بأحد المساجد.. وكان الخطيب كفيفاً.. وهو العلامة الشيخ يوسف الدجوي (١٢٨٧ - ١٣٦٥هـ - ١٨٧٠ - ١٩٤٦م) ـــ

المراغي المصلح



فاستنكف الخديو أن يكون الخطيب والإمام أعمى!.. فأجابه الشيخ المراغي:

- إن الإسلام لا يشترط أن يكون الإمام أعمى أو بصيراً..

فخرج الخديو من المسجد غاضباً!

● وفي عام ١٣٢٦هـ ١٩٠٨م طلب «سلاطين باشا» (١٨٥٧ - ١٩٣٢م) - وكيل حكومة السودان بمصر - من الشيخ المراغي أن يعود إلى السودان قاضياً للقضاة.. فقال له الشيخ:

- إن حكومة السودان - الإنجليزية - أبت عليَّ في العام الماضي وظيفة مفتش بالمحاكم الشرعية، فكيف ترضى اليوم أن أكون قاضياً للقضاة؟!

فأجابه «سلاطين باشا»:

- إن الحكومة اقتنعت اليوم بما لم تكن تقتنع به، وإني أريد أن أعرف الشروط التي تجعلها أساساً لقبول هذا المنصب الخطير؟

فاشترط الشيخ المراغي أن يصدر مرسوم تعيينه من الخديو - حاكم مصر المسلم - وليس من الإنجليز. لما في ذلك من دلالة سياسية في علاقة السودان بمصر - ودلالات شرعية، تؤكد على اختصاص الحاكم المسلم بالولايات الشرعية في بلاد الإسلام.

ولقد أصر على شرطه هذا، حتى استجابت له الحكومة الإنجليزية.. فصدر قرار تعيينه قاضياً لقضاة السودان في ٣ رجب ١٣٢٦هـ - أول أغسطس ١٩٠٨م - من الخديو - وليس من الإنجليز.

● وفي السودان أصر الشيخ المراغي على أن يختار هو - وليس السكرتير الإنجليزي - المذاهب والآراء والاجتهادات الفقهية التي يحكم بموجبها القضاة.. وكانت تلك بدايات إنجازاته في إصلاح القضاء الشرعي بالسودان.. وفيه كان أستاذاً ومعلماً ومرشداً للقضاة.. كما عمل على تكوين جيل من القضاة السودانيين، فأشرف على القسم الشرعي بكلية «جوردون»، وزوده بأساتذة من العلماء المصريين الممتازين - من الأزهر ودار العلوم - فكان - بذلك - المؤسس الحقيقي للقضاء الشرعي السوداني الحديث..

● وفي السودان تعلم الشيخ المراغي اللغة الإنجليزية.

● وإبان ثورة الشعب المصري ضد الاحتلال الإنجليزي، طلباً للاستقلال ١٣٣٧ هـ - ١٩١٩م، قاد الشيخ المراغي المصريين بالسودان في حملة لمناصرة الثورة الوطنية، ولإعانة ضحاياها.. فأصدروا نشرة عنوانها: «اكتتاب المنكوبين بالثورة بمصر»، كانت بمثابة صوت الثورة المصرية في السودان، وصوت التضامن السوداني مع الثورة المصرية.

ولقد اتهمه الإنجليز بإعلان الثورة في السودان.. وطلب منه المستر «دن» - نائب الحاكم العام للسودان - إيقاف هذا النشاط.. فرفض.. فلما قال له المستر «دن»:

- إني أكلمك كرئيس..

رد عليه الشيخ - غاضباً -:

- كنت أفهم أنك تعلم واجبك! إنه ليس لي رئيس هنا، فإن الحاكم العام معين بأمر ملكي، وهو الحاكم السياسي، وأنا معين بأمر ملكي، وأنا قاضي القضاة، ولا إشراف لأحد منا على الآخر.

● ولقد تصاعد غضب الإنجليز على الشيخ المراغي.. فاقترح البعض سجنه.. واقترح البعض اعتقاله ونفيه.. ولكن الحاكم العام للسودان خشي غضبة الشعب السوداني.. فقرر منحه إجازة عاجلة غير محدودة.. فعاد إلى مصر.. وانتهى عمله بالسودان ١٩١٩م.

● ولقد كانت شجاعة الشيخ المراغي في الحق نموذجاً يعيد إلى الذاكرة المثل العليا التي تجسدت في التاريخ العظيم لعظماء علماء الإسلام.

فإبان توليه للقضاء - بمصر - حاول أحد الأثرياء التأثير على ضميره القضائي، لقاء مبالغ مالية ضخمة، يسيل لها اللعاب!.. فأبى ضميره مخالفة الحق والعدل.. فاستأجر هذا الثري مجرماً لقتل الشيخ!.. فألقى عليه ماء النار.. لكن الله لطف، فأصاب ماء النار عنقه وأجزاء من جسمه.. ولم تلن - مع ذلك - لعدالة الشيخ قناة.. وعرفت هذه القضية باسم «قضية هنري سكاكيني»..

● ولقد كانت الحكومات المصرية - خضوعاً للاستعمار الإنجليزي - قد حرمت على مشيخة الأزهر التدخل في السياسات العامة - خصوصاً ما يمس منها مصالح الدولة المستعمرة - .. لكن الشيخ المراغي رفض هذا الخضوع.

وعلى حين صمت رؤساء الوزارات المصرية، وجمهور الساسة والنخبة السياسية وزعماء الأحزاب عن التصدي للمخطط الصهيوني المتحالف مع الاستعمار الإنجليزي لاغتصاب أرض فلسطين ومقدسات المسلمين في القدس الشريف.. جهر الشيخ المراغي - من موقعه كشيخ للأزهر ١٩٢٩م - بالرأي الإسلامي والوطني في هذا المخطط الاستعماري الصهيوني.

الإصلاح القضائي والتشريعي

في مصر.. وبعد عودة الشيخ المراغي إليها من السودان عام ١٩١٩م.. كان الإصلاح القضائي والتشريعي من أهم الميادين التي أولاها عنايته - كما كان هذا الميدان امتداداً لما قام به في السودان - مع التوسع والشمول الذي يقتضيه الواقع في مصر..

وفي هذا الميدان من ميادين الإصلاح - القضائي والتشريعي - مارس الشيخ المراغي العمل الإصلاحي من موقع «الخبير».. فلقد تولى - في هذا الميدان - من المناصب الرفيعة:

١ - رئيس التفتيش الشرعي بوزارة الحقانية - (العدل) - في ٩ أكتوبر ١٩١٩م - محرم ١٣٣٨هـ.

٢ - ورئيس محكمة مصر الكلية الشرعية في ١٥ ذي القعدة ١٣٣٨ - ٢١ يوليو ١٩٢٠م.

٣ - وعضو المحكمة العليا الشرعية في ١٧ جمادى الأولى ١٣٣٩هـ - ٢٧ يناير ١٩٢١م.

٤ - ورئيس المحكمة العليا الشرعية في ٧ جمادى الأولى ١٣٤٢هـ - ١١ ديسمبر ١٩٢٣م.

وإبان توليه لهذه المناصب القضائية - على امتداد نحو عشر سنوات - امتدت إصلاحاته إلى ميادين التشريع والتقنين للفقه الإسلامي.. وطبق دعوة أستاذه الإمام محمد عبده إلى الاستفادة - في التشريع والتقنين - من مجمل التراث الفقهي الإسلامي، على اختلاف مذاهبه.. وليس فقط المذهب الحنفي - كما كان الحال في الدولة العثمانية وولاياتها - ومنها مصر-.

ولقد قال الشيخ المراغي للجنة تنظيم الأحوال الشخصية - التي رأسها -:

«ضعوا من المواد ما يبدو لكم أنه يوافق الزمان والمكان، وأنا لا يعوزني بعد ذلك أن آتيكم بنص من المذاهب الإسلامية يطابق ما وضعتم.

إن الشريعة الإسلامية فيها من السماحة والتوسعة ما يجعلنا نجد في تفريعاتها وأحكامها في القضايا المدنية والجنائية كل ما يفيدنا وينفعنا في كل وقت، وما يوافق رغائبنا وحاجاتنا وتقدمنا في كل حين، ونحن في ذلك كله ملازمون لحدود شريعتنا».

ولكن فريقاً من متأخري العلماء رأوا أن كل ما جاء في كتب الفقه من المتون والحواشي والآراء المصيبة والمخطئة كل ذلك من الدين ومن أصوله التي يجب أن نتمسك بها ولا نحيد عنها، وهم مخطئون في هذا الفهم، إذ إن من ينظر في كتب الشريعة الأصلية بعين البصر والحذق، يجد من غير المعقول أن نضع قانوناً أو كتاباً أو مبدأ في القرن الثاني عشر من الهجرة ثم نجيء بعد ذلك فنطبق هذا القانون أو المبدأ ١٣٥٤هـ.

وإن من ينظر في أقوال الأئمة من مذهب أبي حنيفة وما وقع بينه وبين أصحابه محمد وزفر وأبي يوسف، وبينهم هم، يجد التجديد في الأحكام الشرعية ميسوراً لنا، ويجد بطلان الدوام لأحكام معينة وبقائها حيث يبقى الدهر من الأمور البدهية.

ومعنى هذا أن المسائل الفقهية مادامت غير قطعية فهي قابلة، بحكم الشرع، للتجديد والتغيير.

هكذا رسم الشيخ المراغي منهاج الإصلاح والتجديد في التشريع والتقنين.. ثم وضع هذا المنهاج في الممارسة والتطبيق.

ولقد كان صدور قانون الأحوال

كان الشيخ المراغي أنجب تلاميذ الأستاذ الإمام، وحامل لواء مشروع الإصلاح الديني الذي صاغته هذه المدرسة، لتخرج به الأمة الإسلامية من بين شقي رحى «التخلف الموروث» و«التغريب»



الشخصية فى ذى القعدة ١٣٣٨هـ . يوليو ١٩٢٠م . أول إنجاز من إنجازات الإصلاح التشريعى التى قادها الشيخ المراغى ووجهها ورعاها فى هذا الميدان.

وتلاه تعديل قانون الطلاق . الذى جعل الطلاق الثلاث طلقة واحدة . وتلاه إصلاح القوانين الحاكمة لعدة الزوجة التى غاب عنها زوجها .. والقانون الذى يجعل للحفيد . الذى مات والده قبل جده . ميراثًا فى تركة جده..

وهكذا أخذت دعوة الإمام محمد عبده للإصلاح القضائى والتشريعى تعرف طريقها إلى التطبيق على يد أبرز تلاميذ الأستاذ الإمام وأنجبهم .. الذى حمل علم الإصلاح الدينى فى القرن العشرين.

ولقد كان شعار الشيخ المراغى فى احتضان مجمل تراث المذاهب الفقهية الإسلامية .. والاختيار من بين اجتهاداتها .. وفتح باب الاجتهاد فى القضايا والمشكلات المستجدة .. وفى التيسير فى الفتوى .. كان شعاره كلمة أستاذه الإمام محمد عبده: «العلم هو ما ينفعك وينفع الناس».. ولقد قال المراغى فى هذه المعانى: «... ومن المعروف لدى العلماء أن الرجوع إلى أسباب هذا الخلاف ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبى يهدى إلى الحق فى أكثر الأوقات . يجب أن يدرس الفقه دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها فى الأدلة، وأن تكون الغاية من تلك الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها فى الكتاب والسنة والأحكام المجمع عليها.

والنظر فى الأحكام الاجتهادية يجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة، كما كان يفعل السلف من الفقهاء..

وهناك أمور يجب أن يترفق الفقهاء فيها بالناس، وأن يراعوا قواعد اليسر التى هى أخص صفات الإسلام، ولا يوقعهم فى الحرج...».

ومع احتضان تراث المذاهب الفقهية الإسلامية المختلفة .. عمل الشيخ المراغى على التقريب بين مذاهب الطوائف الإسلامية، التى قسمت «مقالاتها الكلامية» جمهور الأمة الإسلامية .. فكان . بذلك . أول المصلحين الذين ارتادوا هذا الميدان فى القرن العشرين.

ففى المحادثات التى دارت بينه . كشيخ للأزهر . وبين الزعيم الإسماعيلى أغاخان (١٢٩٤ . ١٣٧٦ هـ ١٨٧٧ . ١٩٥٧م) . فى ١١ فبراير ١٩٣٨م . تم الاتفاق على تكوين هيئة للبحث الدينى، تستهدف:

١ . تأكيد روابط الصداقة بين المسلمين فى كافة أنحاء الأرض.

٢ . إيجاد تضامن بين الهيئات التعليمية فى البلاد الإسلامية يكون من ورائه نشر التعليم على وجه العموم، ونشر الثقافة الإسلامية على وجه الخصوص.

٣ . العمل على تبسيط قواعد الدين الإسلامى وتعاليمه.

٤ . محاولة التوفيق بين المسلمين مهما اختلفت مذاهبهم وفرقهم.

هكذا: كان الإصلاح القضائى .. والتجديد الفقهى .. والتقنين لقواعد الفقه وأحكامه .. والتقريب بين المذاهب الإسلامية، أول الميادين التى جاهد فيها الشيخ المراغى، فارسى قواعد الإصلاح الدينى فى القرن العشرين.

وهذه الإنجازات الإصلاحية . التى طبقها بمصر . مضافًا إليها ما أنجزه قبلها فى السودان، قد مثلت الميدان الأول من ميادين الإصلاح الدينى الذى دعا إليه وطبقه هذا الإمام العظيم.

إصلاح الأزهر الشريف

كان حلم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . فى حياته . وكانت مقاصده العظمى من وراء جهاده الفكرى . غير إصلاح مناهج الفكر والنظر .. وتوسيع أبواب الاجتهاد وميادينه .. وتأكيد علاقة الصداقة بين العلم والدين .. وبين الشرع والعقل والسنة الكونية والاجتماعية . كانت أحلامه ومقاصده: إصلاح المؤسسات التى تصنع العقل المسلم، وتصوغ وجدان النخبة الإسلامية، التى علق عليها الآمال فى قيادة الأمة على طريق الإقلاع الحضارى، وتجاوز المأزق الذى وقعت فيه الأمة بسبب «التخلف الموروث» عن عصور التراجع الحضارى، وبسبب «الهيمنة الغربية» التى تحرس هذا التخلف وهذه الأمراض الحضارية التى يعانى منها المسلمون.

وكان فى مقدمة هذه المؤسسات التى جاهد محمد عبده لإصلاحها:

١ . الأزهر الشريف.

٢ . المساجد.

٣ . القضاء الشرعى.

٤ . الأوقاف.

٥ . المدارس.

وشاء الله أن يتولى الشيخ المراغى مشيخة الأزهر فى ٢ ذى الحجة ١٣٤٦هـ . ٢٢ مايو ١٩٢٨ ... أى بعد أقل من عام على وفاة سعد زغلول ... فكان الفارس الذى قاد مسيرة الإصلاح لهذا المعهد العتيق . والذى واجه . بشجاعة وإصرار . كل التحديات التى وضعت فى طريق هذا الإصلاح .. فأنشأ اللجان لدراسة واقع الأزهر .. ولاقتراح سبل الإصلاح .. وأنشأ التنظيمات الجديدة، التى تمثلت فى كليات اللغة العربية .. والشريعة .. وأصول الدين .. وأنشأ التخصصات العلمية داخل هذه الكليات .. وأنشأ الدراسات العليا لخريجى هذه الكليات .. وأعلن أن المقاصد من وراء إصلاح هذا المعهد العتيد هى:

١ . تعليم الأمم الإسلامية المتأخرة فى المعارف وهدايتها إلى أصول الدين.

٢ . إحياء التراث العلمى المجيد الذى خلفه لنا كبار علماء المسلمين.

٣ . عرض الإسلام على الأمم غير المسلمة عرضًا صحيحًا فى ثوب نقى خال من الغواشى المشوهة لجماله.

٤ . العمل على إزالة الفوارق المذهبية أو تضييق شقة الخلاف بينها.

● وإلى جانب هذا التنظيم للتعليم الجامعى الأزهرى، تم تنظيم التعليم قبل الجامعى، المعاهد الدينية الابتدائية والثانوية.

وفوق ذلك . ومعه . تم التطوير للمناهج الدراسية، على النحو الذى تجمع فيه بين الأصالة والتجديد..

● كذلك تم إنشاء «لجنة الفتوى بالأزهر» . من اثنى عشر عالمًا من كبار العلماء . فى ٢ جمادى الأولى ١٣٥٤هـ . ١١ أغسطس ١٩٣٥م .. وتم إنشاء «قسم الوعظ والإرشاد» بالأزهر ١٩٢٨م .. وأعيد تنظيم «هيئة كبار العلماء» .. وتم إنشاء «مراقبة البحوث الثقافية الإسلامية» فى شعبان ١٣٦٤هـ . يوليو ١٩٤٥م.

● ولقد كان واضحًا . ومعلنًا . أن هذا الإصلاح للأزهر وتعليمه الدينى إنما يتغيا الإصلاح الإسلامى على النطاق العالمى .. وذلك انطلاقًا من عالمية الإسلام .. ووحدة الأمة الإسلامية .. والمكانة التاريخية للأزهر فى هذه العالمية .. ودور مصر . بلد الأزهر . فى المحيط الإسلامى الكبير..

ولقد أشار هذا المشروع الإصلاحى للأزهر إلى هذه المقاصد العالمية فى رسالة هذا المعهد العتيد، فقال:

«إن لدى الأمة قضايا كثيرة معقدة فى حاجة إلى الدرس والبحث، وفى مقدمتها:

١ . قضية الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله وأعمال الراشدين.

٢ . قضية التعليم الدينى على وجه صحيح يوافق ما أثمرته التجارب وأخرجته العقول.

٣ . حماية الدين من العدوان، والدعوة إليه كأمر الله.

٤ . قضية نظام الأمم الإسلامية وارتباط بعضها ببعض ارتباط تعاون وتناصر.

٥ . قضية الفقراء والضعفاء واليتامى والمساكين وتدبير أمورهم بحيث تخفف عنهم أعباء الحياة.

٦ . مقومات الأمم الإسلامية التى يجب أن يحافظ عليها.

● والناظر فى هذه «المذكرة» التى كتبها الشيخ المراغى منهاجًا لإصلاح الأزهر يدرك أن هذا الإصلاح . بنظره . إنما كان السبيل لتحقيق عالمية الإسلام، بتحقيق العالمية للجامعة الإسلامية الأولى، وإصلاحها كى تكون جديرة بتحقيق هذه الرسالة العالمية للإسلام .. ولذلك، تحدثت هذه «المذكرة» عن أن:

«فى الدين الإسلامى عبادات وعقائد وأخلاق وفقه

اشترط المراغى أن يصدر مرسوم تعيينه من الخديو، وليس من الإنجليز لما فى ذلك من دلالة سياسية ودلالات شرعية، تؤكد على اختصاص الحاكم المسلم بالولايات الشرعية فى بلاد الإسلام

كتاب الزاوية

تجربة البنوك الأجنبية (١)

عادل حسين

وكلنا يذكر تقرير وزير المالية والاقتصاد المصرى حول دور البنوك الأجنبية، بعد تأميم قناة السويس؛ فقد استخدمت الدول الغربية هذه البنوك وسيلة للتخريب، وأصدرت إليها توجيهًا «بكف يدها عن إجراءات التمويل المعتادة»: سواء فى ذلك تمويل محصول القطن، أو التمويل الصناعى والتجارى، وكانت ترمى بذلك إلى إحداث تدهور فى اقتصاديات البلاد لتثير اضطرابات عامة بها. وأضاف الوزير: إن «الأحداث أثبتت أن كثيرًا من فروع بنوك الدول المعتدية التى كانت تعمل فى مصر، تمنح قروضها إلى عملائها فى مصر: بناء على أوامرَ مباشرة تأتيها من الخارج. ومؤدّى هذا أن سياسة الائتمان التى يقوم عليها الاقتصاد المصرى كانت ترسم خارج البلاد؛ وفقًا لما تمليه مصالح غير مصرية- هذا على الرغم من أن النفوذ الذى كانت تملكه هذه البنوك الأجنبية، كان مستمداً مما يتجمع لديها من أموال مصرية، وودائعَ يأتمنها المصريون عليها، ومدخرات يحتفظون بها لديها: إذ إنه لم يكن لديها بمصر رءوس أموال تُذكر».

ووزير المالية والاقتصاد (صاحب هذا التقرير) كان عبد المنعم القيسونى، ويشهد للرجل أنه عاد إلى تذكير الاقتصاديين المصريين، بمضمون الكلام السابق فى مارس ١٩٧٤؛ فقد أشار إلى دعوته لرؤساء البنوك الأجنبية فى مصر فى يوليو ١٩٥٦. «وطلبت شخصيًا من رؤساء البنوك الأجنبية فى مصر ألا يستغلوا وضعهم الخاص، ولا يستغلوا سيطرتهم على الموارد المتاحة تحت أيديهم للتأثير على الاقتصاد المصرى: خصوصًا أننا كنا على أبواب موسم قطنى جديد، وكان لا بد من تدبير الأموال لتمويل مشتريات القطن من المنتجين، وإعدادها للتصدير إلى الخارج».

الإصلاح القضائى.. والتجديد الفقهى.. والتقنين لقواعد الفقه وأحكامه.. والتقريب بين المذاهب الإسلامية، أول الميادين التى جاهد فيها الشيخ المراغى، فأرسى قواعد الإصلاح الدينى فى القرن العشرين

هكذا حدد الشيخ المراغى معالم المنهاج الإصلاحى للأزهر الشريف.. حدد المقاصد والوسائل.. انطلاقاً من عالمية رسالة هذا المعهد العتيد، النابعة من عالمية الإسلام الحنيف.. وأكد على ضرورة أن يجمع هذا الإصلاح بين الأصالة وبين التجديد، إن فى العلوم والمعارف أو فى سبل التأليف والتدريس.. بحيث تتخطى الدراسة فى الأزهر ركاكة عصور التراجع الحضارى والفكرى لتجمع بين إبداعات عصور الازدهار الأولى للحضارة الإسلامية وإبداعات الإحياء والتجديد فى نهضتنا الحديثة.. وبعبارته: «يجب أن يدرس الفقه الإسلامى دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة، وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها فى الكتاب والسنة، والأحكام المجمع عليها، والنظر فى الأحكام الاجتهادية لجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة، كما كان يفعل السلف من الفقهاء.

- يجب أن تدرس الأديان ليقابل ما هو موجود فيها من عقائد وعبادات وأحكام بما هو موجود فى الدين الإسلامى: ليظهر للناس يسره وقدسيته وامتيازه عن غيره فى مواطن الاختلاف.
- ويجب أن يدرس تاريخ الأديان وفرقها وأسباب التفرقة وتاريخ الفرق الإسلامية على الخصوص وأسباب حدوثها.
- يجب أن تدرس أصول المذاهب فى العالم قديمها وحديثها، وكل المسائل العلمية فى النظام الشمسى والمواليد الثلاثة، مما يتوقف عليه فهم القرآن فى الآيات التى أشارت إلى ذلك.
- يجب أن توجد كتب قيمة فى جميع فروع العلوم الدينية واللغوية على طرق التأليف الحديثة، وأن تكون الدراسة جامعة بين الطرق القديمة فى عصور الإسلام الزاهرة والطرق الحديثة المعروفة عند علماء التربية.
- يجب أن يفعل هذا لإعداد رجال الدين، لأن رسالة النبى صلى الله عليه وسلم عامة، ودينه عام، يجب أن يطبق بحيث يلائم العصور المختلفة والأمكنة المختلفة».

فى نظم الأسرة وفقه فى المعاملات، مثل البيع والرهن، وفقه فى الجنايات.. وقد عرض الدين الإسلامى لغيره من الأديان، وعرض لعقائد لم تكن لأهل الأديان، وأشار إلى بعض الأمور الكونية فى النظام الشمسى والمواليد الثلاثة، من جماد ونبات وحيوان.

وقد هوجم الإسلام أكثر من غيره من الديانات السماوية السابقة، وهوجم من أتباع الديانات السابقة، وهوجم من ناحية العلم، وهوجم من أهل القانون.

ولهذا كانت مهمة العلماء شاقة جدًا، تتطلب معلومات كثيرة:

- تتطلب معرفة المذاهب قديمها وحديثها.
- ومعرفة ما فى الأديان السابقة.
- ومعرفة ما يجد فى الحياة من معارف وآراء.
- ومعرفة طرق البحث النظرى وطرق الإقناع.
- وتتطلب فهم الإسلام نفسه من ينابيعه الأولى فهماً صحيحاً.
- وتتطلب معرفة اللغة وفقهها وآدابها.
- وتتطلب معرفة التاريخ العام وتاريخ الأديان والمذاهب وتاريخ التشريع وأطواره.
- وتتطلب العلم بقواعد الاجتماع..
- يجب أن يدرس القرآن دراسة جيدة، وأن تدرس السنة دراسة جيدة، وأن يفهما على وفق ما تتطلب اللغة العربية فقهها وآدابها من المعانى، وعلى وفق قواعد العلم الصحيحة، وأن يبتعد فى تفسيرهما عن كل ما أظهر العلم بطلانه، وعن كل ما لا يتفق وقواعد اللغة العربية.
- يجب أن تهذب العقائد والمعاملات وتنقى مما جد فيها وابتدع، وأن تهذب العادات الإسلامية بحيث تتفق وقواعد الإسلام الصحيحة.



أن تكون الدراسة بالأزهر جامعة بين الطرق القديمة فى عصور الإسلام الزاهرة والطرق الحديثة المعروفة عند علماء التربية».

ولأن الطريق - عام ١٩٢٨م - لم يكن معبداً أمام الشيخ المراغى لتطبيق هذا المشروع الإصلاحى للأزهر الشريف.. وبسبب من العقبات - من خارج الأزهر ومن داخله - اضطر الشيخ إلى الاستقالة فى ٦ جمادى الأولى ١٣٤٨هـ - ١٠ أكتوبر ١٩٢٩م.

لكن طلاب الأزهر - وعلماء التيار التجديدى فيه - انخرطوا - لعدة سنوات - فى المظاهرات والإضرابات والاعتصامات - حتى سميت الثورة الأزهرية الكبرى.. وتعرض الأزهر إبانها إلى قمع الحكومات المستبدة - مثل حكومة إسماعيل صدقى باشا (١٢٩٢ - ١٣٦٩هـ، ١٨٧٥ - ١٩٥٠م)، التى فصلت العديد من علماء الأزهر وطلابه.. حتى اضطرت هذه الحكومات - فى النهاية - إلى الرضوخ لهذه «الثورة» فعاد الشيخ المراغى ثانية إلى مشيخة الأزهر ظافراً ومنتصراً - فى ٢٣ محرم عام ١٣٥٤هـ - ٢٧ أبريل ١٩٣٥م.. فشرع فى تنفيذ مشروعه الإصلاحى، الذى تخطى به الأزهر أعناق القرون، ليصبح حاضراً ومؤثراً فى مجتمع القرن العشرين.

لقد حقق الشيخ المراغى أغلب المقاصد التى تحدثت عنها «مذكرته» لإصلاح الأزهر.. فى التنظيمات.. وفى مناهج التدريس.. وفى الانفتاح على تراث عصر الازدهار لحضارة الإسلام.. والاستفادة من ثمرات التجديد فى العصر الحديث..

كذلك ضمن بقاء الأزهر مستقلاً عن التبعية للسلطة السياسية للدولة.. وأيضاً استعاد للأزهر كثيراً من الاختصاصات التى سبق وسلبتها منه «الدولة».. فدعم ذلك من استقلال هذا المعهد العتيد..

ولأن الشيخ المراغى كان واحداً من عظماء العلماء فى القرن العشرين، لم تنسه نشوة النصر عندما عاد إلى المشيخة عام ١٩٣٥م، ذكر فضل أستاذه الشيخ محمد عبده، إمام الدعوة إلى إصلاح الأزهر فى العصر الحديث.. فقال الشيخ المراغى فى الخطاب الذى ألقاه فى الاحتفال بعودته إلى المشيخة:

«.. ومن الحق، أيها السادة، علينا ألا ننسى فى هذه المناسبة، والحديث حديث الأزهر والأزهريين، ذلك الكوكب الذى انبثق منه النور الذى نهتدى به فى حياة الأزهر العامة، ويهتدى به علماء الأقطار الإسلامية فى فهم روح الإسلام وتعاليمه. ذلك الرجل الذى نشر الحياة العلمية والنشاط الفكرى، ووضع المنهج الواضح لتفسير القرآن الكريم، وعبد الطريق لتذوق سر العربية وجمالها، وصاح بالناس يذكرهم بأن العظمة والمجد لا يبنيان إلا على العلم والتقوى ومكارم الأخلاق، ذلك الرجل الذى لم تعرفه مصر إلا بعد أن فقدته، ولم تقدره قدره إلا بعد أن أمعن فى التاريخ، ذلك هو الأستاذ الإمام (محمد عبده) قدس الله روحه وطيب ثراه، وقد مر على وفاته ثلاثون حولاً كاملة.

ومن الوفاء، بعد مضى هذه السنين، ونحن نتحدث عن الأزهر، أن نجعل لذكراه المكان الأول فى هذا الحفل، فهو مشرق النور، وباعث الحياة، وعين الماء الصافية التى تلجأ إليها إذا اشتد الظمأ، والدوحة المباركة التى تأوى إلى ظلها إذا قوى لفح الهجير».

هكذا تحدث الشيخ العظيم - محمد مصطفى المراغى - فى لحظة «الانتصار» - عن أستاذه العظيم الشيخ محمد عبده.. وعن ريادته لميدان إصلاح الأزهر.. والإصلاح الإسلامى على امتداد عالم الإسلام.. واصفاً إياه بأنه «الكوكب الذى انبثق منه النور الذى نهتدى به فى حياة الأزهر عامة، ويهتدى به علماء الأقطار الإسلامية فى فهم روح الإسلام وتعاليمه».

وبهذا القبس من الخلق العظيم استطاعت عبقرية الشيخ المراغى أن تنجز - فى إصلاح الأزهر الشريف - ما عجز عنه الكثيرون - من السابقين واللاحقين! ●

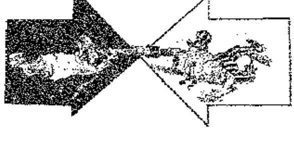
كتاب الزاوية

تجربة البنوك الأجنبية (٢)

عادل حسين

وتعلمون حضراتكم أننا عندما أممنا قناة السويس قامت الدولة المستعمرة بتجميد أموالنا كلها لديها، وكنا متوقعين هذا. فحاولنا تهريب بعض هذه الأموال إلى دول أخرى قبل التأميم بثلاثة أو أربعة أيام، حتى لا تشعر هذه الدول بما كنا قد انتويناه تجاه قناة السويس. ولكن كانت الأموال التى تمكنا من توجيهها للخارج لا تزيد على ٤ أو ٥ ملايين من الجنيهات. وكانت البنوك الأجنبية - بطبيعة الحال - خاضعة لنظام الرقابة على النقد الأجنبى، ولكننا كنا نطبق الرقابة على النقد بشىء كبير من المرونة، بحيث إن البنوك الأجنبية كان فى إمكانها أن تتصرف - إلى حد ما - فى هذه الأموال: أموال الاعتمادات وحصيلة الصادرات... إلخ، وفى طريقة استخدامها.

طلبت منهم مراعاة المصلحة العليا للاقتصاد المصرى فى طريقة استخدامهم للأموال المحلية والأجنبية الموجودة تحت سيطرتهم. ولكنهم لم يستجيبوا لرجائى، وعملوا على تخفيض المبالغ المخصصة لتمويل القطن. كما عملوا على سرعة استنزاف مبالغ النقد الأجنبى التى كانت حرة تحت تصرفهم، بحيث يضعوننا أمام مشاكل اقتصادية داخلية وخارجية حرجة. وكان لا بد من اتخاذ إجراء مضاد. إجراء لحماية الاقتصاد المصرى، ولمنع سيطرة الأجانب عليه، ولمنع تهديد الأجانب لنا. واستخدامهم لأموالنا المودعة لديهم لطعننا فى صدورنا. وكان الرد الطبيعى على ذلك هو فرض الحراسة على بنوك الأعداء، ثم تمصيرها كلياً.



رؤية الإخوان للأمريكان!

خليل العناني

● تتميز جماعة الإخوان المسلمين دون غيرها من حركات الإسلام السياسي بقدر عال من البراجماتية والواقعية السياسية، وهو ما يجعلها تتحرك بقدر من التوازن في ترتيب علاقتها بالأطراف الإقليمية والعالمية المؤثرة. بيد أن الأمر مختلف بالنسبة للعلاقة مع الولايات المتحدة، التي تنظر إليها الجماعة بقدر عال من الريبة والشك في إمكانية قيام علاقة طبيعية متواصلة على أسس من التفاهم المشترك.

ونحن نتحدث هنا عن الجماعة الأم الموجودة في مصر، وليس عن فروعها المتناثرة في بقية بلدان العالم العربي، والتي قد يتمتع بعضها بعلاقات جيدة مع واشنطن كما هو الحال في الكويت وسوريا والأردن والمغرب، كل حسب مصالحه وأهدافه بالطبع.

فبالنسبة للإخوان المسلمين في مصر فإن رؤيتهم للولايات المتحدة، كطرف يمكن الوثوق به والدخول في علاقات مباشرة، سلبية للغاية. وهي رؤية تتداخل فيها العديد من العوامل السياسية والأيديولوجية والتاريخية، دون أن يعني ذلك عدم وجود قنوات اتصال «خلفية» بين الطرفين، ولكنها لم تصل يوماً إلى حد العلانية أو التصريح بها وهو ما يعكس مدى هشاشة العلاقة بين الطرفين.

ويمكن القول أن هناك ثلاثة متغيرات تحكم الرؤية الإخوانية للعلاقة مع الولايات المتحدة:

أولها: مدى الثقة التي يمكن أن تنشأ بين الطرفين، والتي تجسدها مواقف واشنطن من الجماعة ومدى إصرارها على المضي قدماً في توطيد العلاقة مع الجماعة.

ثانيها: مدى استعداد واشنطن للضغط على النظام المصري بهدف تقليل مساحة الاستبداد وفتح الحياة السياسية أمام جميع القوى والحركات الاحتجاجية، وهو ما قد يسمح للجماعة بالاندماج «الشرعي» في الحياة السياسية.

وثالثها: ألا تلجأ واشنطن إلى استخدام علاقتها مع الإخوان المسلمين «كفزاعة» تلوح بها للنظام السياسي في مصر حتى لا تفقد الجماعة جزءاً كبيراً من رصيدها المجتمعي.

مصادر الرؤية الإخوانية:

يمكن القول بأن هناك ثلاثة أبعاد رئيسية تشكل الخلفية الأساسية في رؤية الإخوان للولايات المتحدة وتتمثل في:

- البعد العقائدي:

تقيم جماعة الإخوان المسلمين رؤيتها للولايات المتحدة على أساس عقيدي «ديني» انطلاقاً من فهمها للإسلام كمنهج كامل تنبثق منه رؤية شاملة للكون والحياة والإنسان والعالم، وهي رؤية وضع جذورها الإمام حسن البنا الذي أكد على ضرورة أن يكون الإسلام هو قائد البشرية بما يقدمه من منظومة قيمية تقوم على الأمن والحرية والمساواة والعدالة. لذا ترفض الجماعة قيادة الغرب وزعامته للعالم ومنازعته للأمة الإسلامية في هذا الإطار. فضلاً عن التبشير بنهاية الغرب وانحلال حضارته وهو ما يسري على الحضارة الأمريكية بالطبع.

- البعد الحضاري:

يمكن القول بأن ما كتبه حسن البنا في مذكراته عام بشأن النظرة للحضارة الغربية، لا يزال يمثل المرجعية الأساسية التي تشكل علاقة الجماعة بالغرب، والتي يستند إليها العديد من قيادات الجماعة حتى اليوم. ومن المعروف أن البنا قد وجه انتقادات عنيفة للحضارة الغربية واصفاً إياها بأنها حضارة انحلال وتردٍ، فهي بالنسبة له «حضارة مادية» وعاجزة عن قيادة البشر وإسعادهم وذلك لافتقارها إلى الجانب الروحي والأخلاقي.

وعلى الرغم من أن حديث الإمام البنا كان ينصرف إلى الغرب بشكل عام، وتحديداً الغرب الأوروبي، إلا أن نفس الخطاب، ونفس المفردات يتم إعادة إنتاجها من خلال الخطاب الذي يتحدث به المرشد الحالي لجماعة الإخوان المسلمين محمد مهدي عاكف الذي يشير في إحدى رسائله الأسبوعية إلى أن «النظام العالمي الجديد (الذي تقوده الولايات المتحدة) نظام استعماري قديم يستخدم أدوات جديدة.. الإغواء مع القمع، والاختراق والسيطرة مع مزاعم الشراكة، والتفكيك مع التدمير، تفكيك الدول كإطار لتجميع الشعوب ضد الهيمنة، وإثارة الأقليات ومشكلات الحدود والنعرات العرقية والفتن الطائفية والحروب الأهلية، وعزل المجتمعات العربية عن المجتمعات الإسلامية، بتشجيع الاتجاهات القومية، وتجهيل المجتمعات، واستهداف عقول الشباب، وتدمير نظام القيم، وتعميم مشاعر الإحباط».

ولا يختلف رأي الدكتور عصام العريان رئيس القسم السياسي في جماعة الإخوان المسلمين عن ذلك كثيراً حين يشير إلى أنه «من الصعب إطلاق هذا المسمى على بلد لا يتعدى تاريخه مائتي عام، لذا من الصعب الحديث عن وجود حضارة بالمعنى المعروف. وبافتراض أنها حضارة، إلا أنها قامت بالأساس على نزعة استئصالية إقصائية من خلال استئصال الهنود الحمر، كما أنها حضارة «مادية» تقوم على ثنائية القوة والمال»[1].

بل هو نفس الرأي الذي يراه النائب الأول للمرشد الدكتور محمد حبيب الذي يرى أن الحضارة الأمريكية تقوم على مبدأ «البقاء للأقوى».. وأنه قائم على الازدواجية في مسألة الديمقراطية والحريات[2].

- البعد السياسي:

يعتبر البعد السياسي أحد المحددات الرئيسية في نظرة الإخوان للولايات المتحدة، ويتم من خلالها بناء الكثير من المواقف الإخوانية، وهو موقف وإن كان لا يختلف كثيراً عن موقف قطاعات عريضة من الشعوب العربية، إلا أنه في الحال الإخوانية أكثر حدة نظراً لتأثير العاملين السابقين. ويمكن تشريح هذا البعد من خلال ثلاث نقاط رئيسية، أولها النظر للولايات المتحدة باعتبارها قوة احتلال، وفي هذا الإطار يتبنى المرشد الحالي للإخوان المسلمين نفس الموقف الذي أعلنه الإمام الأول للجماعة حين كان يتحدث عن الاحتلال الأوروبي (البريطاني والفرنسي والإيطالي) للدول العربية، ويرى فيه نموذجاً لحكم الجبروت والقهر، في حين ينظر المرشد الحالي للجماعة للولايات المتحدة باعتبارها رمز الجبروت والطغيان.

الأمر الثاني هو العلاقة مع إسرائيل، وتحتل هذه العلاقة مساحة كبيرة جداً من نظرة الإخوان المسلمين للعلاقة مع الولايات المتحدة، وهي نظرة لها جذور تاريخية منذ حسن البنا وحتى الآن، وهي العلاقة التي تتحطم على صخرتها أية رغبة إخوانية في التقرب والتحاور مع الولايات المتحدة. وهي نقطة «مقدسة» لدى الإخوان المسلمين، الذين يرون أن هناك تطابقاً في الأفكار والأجندات

ما كتبه حسن البنا فى مذكراته عام بشأن النظرة للحضارة الغربية، لا يزال يمثل المرجعية الأساسية التى تشكل علاقة الجماعة بالغرب، والتى يستند إليها العديد من قيادات الجماعة حتى اليوم

السياسية بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

اما الأمر الثالث فيتعلق بدعم الولايات المتحدة للأنظمة الاستبدادية فى العالم العربى، وازدواجية الخطاب الأمريكى فيما يتعلق بمسألة الحريات ونشر الديمقراطية. وهى نظرة تاريخية لدى الإخوان المسلمين، حيث تبدو غالبيتهم على يقين بأن «الغرب» له اليد الطولى فى إيجاد وتثبيت النظم الحاكمة فى معظم بلدان العالم الإسلامى، وهو فى ذلك يربطها به ويستغلها لتحقيق مصالحه مقابل بقائها فى السلطة.

طبيعة العلاقة:

تاريخياً، يشير البعض إلى وجود علاقات بين جماعة الإخوان المسلمين فى مصر والولايات المتحدة ومن ذلك ما يقال عن بعض الوقائع التاريخية فى العلاقات الملتبسة بين الإخوان والأمريكان، فعندما بدأت تظهر إبان الحرب العالمية الثانية بوادر وراثة أمريكا للإرث الإمبراطورى الإنجليزى كان الإخوان من أنشط الحركات الشعبية، فأراد الإنجليز وبموافقة أمريكية تأسيس جمعية منافسة هى «إخوان الحرية» كان نشاطها ثقافيا واجتماعيا وتحرريا لجذب الشباب. وفشلت التجربة، كما فشلت محاولات أمريكية لاستقطاب عدد من الرموز الفكرية الإسلامية المصرية. فى أعقاب الحرب العالمية الثانية أشار البعض إلى إجراء حوار بين الإمام الشهيد حسن البنا وأحد أعضاء السفارة الأمريكية فى القاهرة حول مقاومة المد الشيوعى الذى كان هدفا مشتركا، لكنه لم يصل إلى نتيجة بسبب اختلاف التوجهات والمنطلقات.

وقد تكرر الأمر فى السبعينيات عندما وقع الاحتلال السوفيتى لأفغانستان وبدأت أمريكا بمساعدة حلفائها فى المنطقة العربية وباكستان فى التصدى لخط الوصول إلى المياه الدافئة وظهرت فكرة دعم المجاهدين الأفغان وحاول الأمريكيون عن طريق المرحوم الرئيس أنور السادات إقناع الإخوان بالمشاركة فى القتال بجوار الأفغان وقد رفض الإخوان ذلك.

ثم جاء عقد الثمانينيات والذى تطورت فيه العلاقة بين الطرفين بشكل غير مسبوق وعلى خلفية حاجة الولايات المتحدة للمجاهدين العرب فى مواجهة الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان، وهو ما ساهم فى تقريب العلاقة بين مختلف تيارات الإسلام السياسى فى المنطقة والولايات المتحدة عبر المظلة السعودية.

وقد كان وقوع أحداث الحادى عشر من سبتمبر علامة فارقة فى رؤية الطرفين (الإخوان والإدارة الأمريكية) كلاهما للآخر، وهو ما حدا بهما إلى النظر فى ضرورة إعادة صياغة هذه العلاقة على أسس جديدة.

وقد أفرزت هذه المرحلة العديد من المتغيرات التى دفعت كلا الطرفين إلى إعادة صياغة الحسابات. فمن جهتها دخلت الولايات المتحدة، تحت قيادة الرئيس الحالى جورج بوش، فى مواجهة مباشرة مع العديد من تنظيمات الإسلام السياسى خاصة تلك التى تنتهج العنف. وبدا أن ثمة اضطراباً فى رؤية الإدارة الأمريكية للعلاقة مع التيارات الإسلامية المعتدلة، وكيفية التعاطى معها.

وهذه المرحلة يمكن تقسيمها إلى مرحلتين جزئيتين: الأولى: مرحلة ما قبل فوز حماس بالانتخابات الفلسطينية، وهى المرحلة التى شهدت دعماً معنوياً واضحاً من الإدارة الأمريكية للتيارات المعتدلة وفى مقدمتها الإخوان المسلمين فى مصر، حتى وصل الأمر إلى التصريح بعدم ممانعة الولايات المتحدة فى وصول الإسلاميين المعتدلين للحكم، وهى تصريحات جاءت على لسان أعلى القيادات فى الإدارة الأمريكية بدءاً من الرئيس بوش نفسه، وحتى وزيرة خارجيته كوندليزا رايس. وفى هذا الصدد يمكن رصد العديد من الإشارات:

جاءت أولى الإشارات بعدم ممانعة الولايات المتحدة بمشاركة الإسلاميين المعتدلين فى السلطة عبر تصريحات ريتشارد هاس مدير تخطيط السياسات بوزارة الخارجية الأمريكية، والتى جاءت فى سياق خطابه الذى ألقاه أمام مجلس العلاقات الخارجية الأمريكى، والذى سبقت الإشارة إليه، حيث ذكر هاس أن «الولايات المتحدة لا تعارض الأحزاب الإسلامية .. نحن ندرك تماماً عندما نشجع الديمقراطية أن التحرك المفاجئ نحو الانتخابات الحرة فى البلدان ذات الأكثرية الإسلامية قد يأتى بالأحزاب الإسلامية إلى الحكم. لكن السبب لا يكمن فى كون الأحزاب الإسلامية تتمتع بثقة السكان الساحقة بل لأنها فى الغالب المعارضة المنظمة الوحيدة للحالة الراهنة التى تجدها أعداد متزايدة من الناس غير مقبولة»[3]. وقد جاء خطاب هاس متأثراً بما حققه الإسلاميون فى تركيا والمغرب والبحرين.

- ثم طرح فكرة الإسلام الليبرالى على نطاق واسع، وأصدر مركز راند دراسة للباحثة شيرلى بينارد حول إمكانية دعم الولايات المتحدة لمشروع الإسلام الليبرالى فى الشرق الأوسط، والذى يعنى ضمنا القبول بالإسلاميين المعتدلين طرفاً فى العملية السياسية[4].

- أعلنت رايس أثناء عودتها من جولتها فى الشرق الأوسط فى ٢٣ يوليو ٢٠٠٥ بأن الولايات المتحدة لا تمانع فى وصول الإسلاميين إلى الحكم، إذا ما أجريت انتخابات حرة فى العالم العربى، وأن الولايات المتحدة ترى أهمية فى التحاور مع الإسلاميين - فى المنطقة العربية، وأنها لا تخشى من وصول تيارات إسلامية إلى السلطة[5].

وعشية فوز الإخوان المسلمين فى مصر بنحو عشرين بالمائة من مقاعد البرلمان المصرى ٨٨ من إجمالى ٤٥٤ ترددت دعوات كثيرة لفتح حوار معهم، وقد بدا أن هناك تياراً داخل الإدارة الأمريكية يتبنى فكرة التواصل مع الإسلاميين المعتدلين وعلى رأسهم جماعة الإخوان المسلمين، ولكنها كانت دعوات تجرى على استحياء، ولم تجد حماساً كبيراً من صقور البيت الأبيض والمحافظين الجدد.

ومن جهتها لم تمانع جماعة الإخوان المسلمين فى مصر تجاه عقد لقاءات مع مسئولين أمريكيين، وجاء ذلك على لسان العديد من قادتها، فقد أكد العريان أن الجماعة على استعداد لمحاورة الولايات المتحدة مشيراً فى تصريحات أدلى بها لوكالة فرانس برس عشية انتهاء الانتخابات البرلمانية فى ديسمبر ٢٠٠٥ إلى أن «موقف الاخوان يتلخص فى أننا دعاة حوار ونؤمن بالتعاون بين الحضارات على أسس متكافئة ونؤمن بأن هناك قيما مشتركة بين كل الثقافات والشعوب».

وغالبا ما تشترط الجماعة حضور ممثل من وزارة الخارجية المصرية لأى حوار قد يجرى مع أى من المسئولين الأمريكيين، وهو ما أكده المرشد العام للجماعة فى حواره مع جريدة الشرق الأوسط الذى أجرى فى الحادى عشر من ديسمبر ٢٠٠٥ حين أشار إلى ضرورة أن يتم ترتيب أى لقاء فى هذا الإطار من خلال وزارة الخارجية المصرية.

وهى بالطبع اشتراطات مفهومة فى إطار رغبة الجماعة فى إزالة المخاوف لدى النظام المصرى من أى محادثات قد تجرى بينها وبين الأمريكيين، وفى نفس الوقت تجنب استغلال النظام لأى حوار قد يجرى بين أعضاء الجماعة ومسئولى السفارة الأمريكية بالقاهرة من أجل التنكيل بالجماعة وتشويه صورتها أمام الرأى العام.

وعلى الرغم من عدم وجود حوار مباشر بين الطرفين (الإخوان والأمريكيين) إلا أن العلاقة بينهما خلال هذه المرحلة اتسمت بالتفاؤل والرغبة فى البحث عن مخرج من معضلة الرقابة الحكومية على إجراء مثل هذا الحوار، إما من خلال ممثلى الجماعة فى مجلس الشعب أو من خلال وسطاء آخرين.

أما المرحلة الجزئية الثانية: فهى مرحلة ما بعد فوز حماس بأغلبية المجلس التشريعى الفلسطينى فى السادس والعشرين من يناير ٢٠٠٦، وهو الفوز الذى قلب موازين المعادلة الأمريكية فى المنطقة، وأعاد الهواجس التقليدية حول احتمالات وصول الإسلاميين للسلطة فى العالم العربى.

معوقات الحوار

بافتراض وجود نية لدى الطرفين الأمريكى والإخوانى لإجراء حوار جاد حول صياغة العلاقة بينهما، إلا أن ثمة معوقات يجب التخلص منها قبل الحديث عن إجراء مثل هذا الحوار، ويمكن تلخيص هذه المعوقات فيما يلى:

١-عدم الثقة فى الولايات المتحدة:

هناك اقتناع لدى قيادات جماعة الإخوان المسلمين بعدم جدية الولايات المتحدة فى إجراء حوار مع الجماعة، فضلاً عن

غالباً ما تشترط الجماعة حضور ممثل من وزارة الخارجية المصرية لأى حوار قد يجرى مع أى من المسئولين الأمريكيين، وهو ما أكده المرشد العام للجماعة

اقتناعهم بالتردد الأمريكى فى مسألة دعم الديمقراطية فى العالم العربى.

كما أن هناك شكوكا قوية لدى الإخوان المسلمين حول نوايا الإدارة الأمريكية من الدعوة لإجراء أى حوار مع الإخوان وما إذا كان حواراً جاداً يهدف إلى مصلحة مشتركة أم هو لاستخدام الإخوان فزاعة يتم تهديد النظام المصرى بها كى يرضخ للشروط الأمريكية، خاصة حول الملفات الإقليمية الصعبة (العراق وفلسطين والسودان). ثم هناك السياسة الأمريكية الواضحة نحو توظيف المعارضة العربية ضد النظم الحاكمة: حدث ذلك فى العراق وكانت الكارثة التى ستؤدى بالعراق إما إلى حرب أهلية أو فوضى عارمة. ويحدث ذلك الآن مع سورية، وهو ما يرفضه الإخوان رفضا قاطعا على حد تعبير عصام العريان.

٢ـ التخوف من تآكل الرصيد الشعبى:

تخشى جماعة الإخوان المسلمين فى مصر من أن يؤدى إجراء أى حوار علنى، مع الولايات المتحدة إلى تآكل الرصيد الشعبى والمجتمعى للجماعة، خصوصاً فى ظل الصورة السلبية التى تسود العالم العربى تجاه الولايات المتحدة. كما أن هناك تخوفاً كبيراً من أن يستغل النظام المصرى إجراء مثل هذا الحوار من أجل تشويه صورة الجماعة لدى الرأى العام وهى حيلة يبرع النظام المصرى فى استخدامها منذ أكثر من نصف قرن.

٣ـ تناقض الرؤية بين الطرفين:

بالنظر للخلفية الأيديولوجية لكل طرف، يبدو أن ثمة تناقضاً جوهرياً يقف حائلاً دون إجراء أى حوار بين الطرفين. فالإدارة الأمريكية، حسب جماعة الإخوان المسلمين، لديها مشروع كونى يهدف للهيمنة على العالم، فى حين أن الجماعة، وحسب ما يشير إليه عصام العريان فى مقاله المذكور، لديها مشروع ثابت يتقدم بخطى ثابتة لبناء نهضة إسلامية إصلاحية يعتمده الإخوان المسلمون كحركة إسلامية شعبية واسعة الانتشار فى أنحاء العالم كله. فالمشروع الإسلامى للنهضة يهدف إلى تحرير الأركان الإسلامية من كل هيمنة أجنبية عسكرية أو اقتصادية أو ثقافية أو اجتماعية، ويسعى إلى إصلاح الحكم فى البلاد الإسلامية لتحقيق الحريات والديمقراطية الإسلامية على حد قوله.

٤ـ الخوف من بطش النظام المصرى:

لا يمكن لأحد أن يتجاهل الوضع القانونى لجماعة الإخوان المسلمين فى مصر، والتى لا تحظى بالشرعية القانونية وهو ما يضعها باستمرار تحت «رحمة» النظام المصرى، والذى لا يتورع عن التنكيل بأى فصيل سياسى يسعى لإقامة علاقة مع الولايات المتحدة، ويرغب فى أن يظل هو «المحتكر» الوحيد لهذه العلاقة.

فرص الالتقاء

نظرياً وفى ظل المعوقات السابقة قد يبدو افتراض حدوث تواصل من أى نوع بين الولايات المتحدة والإخوان المسلمين فى مصر أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً، بيد أنه من الناحية الواقعية فإن فرص الالتقاء بين الطرفين قد تصبح أمراً ملحاً فى إطار تقييم كل طرف لمصالحه ومدى قدرته على توظيف علاقته مع الآخر من أجل إنجاز هذه المصالح. وهو ما قد يبدد أى عقبات قد تعترض طريق الحوار. كما أن مثل هذا الحوار لا يعنى بالضرورة تغيير الانطباعات والأحكام العقائدية والفكرية بين الطرفين. حيث يمكن لكليهما الاحتفاظ برؤيته الأيديولوجية للآخر، وتصبح الأولوية للمصالح.

وقبل الحديث عن طرق الحوار، يجب الإشارة إلى أن هناك ثلاثة محددات تحكم أى حوار مستقبلى قد يجرى بين الطرفين، أولها: مدى استمرار الضغط الأمريكى على النظام المصرى لتقليل جرعات الاستبداد ضد مختلف القوى السياسية، بما قد يسمح للإخوان وغيرهم بالتنفس والانخراط فى العملية السياسية.

ثانيها: أن تحسم الولايات المتحدة خياراتها فيما يخص أجندة دعم الديمقراطية فى العالم العربى وتقبل نتائجها حتى وإن جاءت بالإسلاميين إلى السلطة. وثالثها: أن تعيد الولايات المتحدة النظر فى علاقتها بإسرائيل بحيث لا تبدو علاقة «التصاق» وتوأم فى المواقف، لأن ذلك من شأنه نسف أى علاقة مستقبلية بينها وبين أى فصيل إسلامى فى العالم العربى. وفى كل الأحوال يجب على الولايات المتحدة أن تدرك أنها بحاجة ماسة للتواصل مع جماعة الإخوان المسلمين بشكل جاد يمكن البناء عليه مستقبلاً وذلك انطلاقاً من حقيقتين هامتين، أولاهما: أن الإخوان يشكلون «البديل المحتمل» فى حال حدوث فراغ سياسى «مفاجئ» فى النظام السياسى المصرى، ناهيك عن كونهم كتلة المعارضة الرئيسية فى البلاد. وثانيتهما: أن تطوير العلاقة مع الإخوان المسلمين فى مصر قد يساعد الولايات المتحدة فى تليين مواقف بعض التيارات «الإخوانية» المنتشرة حول العالم، وذلك انطلاقاً من الروابط التنظيمية بين الجماعة «الأم» وغيرها من التنظيمات الفرعية.

وفى هذا الإطار يمكن القول أن هناك ثلاثة طرق يمكن من خلالها التوصل إلى صيغة ملائمة لإجراء حوار جاد وفعال مع جماعة الإخوان المسلمين فى مصر:

الطريق الأولى:

أن يجرى الحوار بشكل رسمى من خلال التقاء المسئولين الأمريكيين بأعضاء الكتلة البرلمانية للإخوان فى مجلس الشعب، على غرار ما يجرى مع بقية أعضاء البرلمان من الأحزاب والقوى السياسية الأخرى، وهو ما يحرص الطرفان على القيام به حالياً. بيد أن المعضلة هى فى كيفية مواصلة هذا الحوار بشكل منتظم بحيث يؤسس لعلاقة أكثر متانة تقوم على توصيل كل طرف لرؤيته حول مستقبل العلاقة مع الآخر. ولا مانع هنا أن توجه دعوات رسمية من الكونجرس الأمريكى لوفد من أعضاء مجلس الشعب المصرى يكون من بينهم أعضاء فى جماعة الإخوان المسلمين بصفتهم البرلمانية طبعاً.

الطريق الثانية:

أن يجرى الحوار مع قيادات الإخوان المسلمين عبر مراكز الأبحاث والهيئات الأهلية فى الولايات المتحدة، وهو ما لا ترفضه قيادات الجماعة، بل على العكس من ذلك يرحبون به، ومن شأن هذه الطريق أن تمهد لإمكانية عقد لقاءات ثنائية مشتركة على مختلف المستويات. بيد أن هذه الآلية تتطلب مزيداً من الضغط على النظام المصرى بهدف عدم ممانعته فى قيام أعضاء الجماعة بهذا النشاط من حيث إجراءات السفر وترتيب اللقاءات ..إلخ.

الطريق الثالثة:

أن تضغط الولايات المتحدة على النظام المصرى عبر أدواتها المختلفة: الدبلوماسية والاقتصادية، من أجل الاعتراف القانونى بالجماعة، وهو إجراء رغم صعوبته النظرية فى ظل تذرع النظام برفض التدخل فى شئونه، إلا أن هناك مبررات كثيرة يمكن للطرف الأمريكى الاستناد إليها ليس أقلها التمثيل الشرعى الكبير للجماعة فى البرلمان، ناهيك عن الطابع السلمى للجماعة والذى يميزها عن غيرها من الجماعات العنيفة. وفى هذه الحال سيصبح إجراء الحوار وتبادل العلاقات مع الجماعة أمراً عادياً. ■

هوامش ومراجع

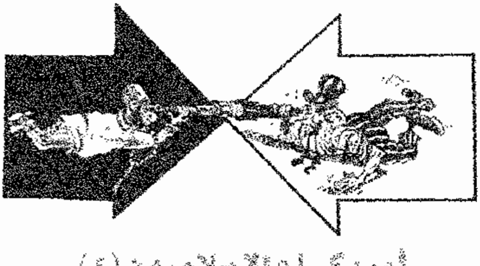
(١) من محادثة هاتفية مع د. عصام العريان، يوم الجمعة ٢ فبراير ٢٠٠٧، الساعة الحادية عشرة مساء.

(٢) من محادثة هاتفية مع د. محمد السيد حبيب يوم السبت ٣ فبراير ٢٠٠٧، الساعة العاشرة والنصف مساء.

(٣) Richard N. Haass, Towards Greater Democracy in the Muslim World, Council on Foreign Relations, Washington, D.C. December 4, 2002 at: http://www.cfr.org/publication/5283/towards_greater_democracy_in_the_muslim_world.html

(٤) لمزيد من التفاصيل حول هذا التقرير، راجع الرابط:
http://www.rand.org/pubs/monograph_reports/2005/

(٥) نص الحديث مع رايس على الرابط:
http://usinfo.state.gov/mena/Archive/2005/Jun/27-774513.html



أمريكا والإسلاميون (٤)

شيعة وأمريكان!

إبراهيم سعيد البيضاني

■ لم تأت الولايات المتحدة إلى العراق بهدف تحقيق الديمقراطية وضمان حقوق الإنسان، بل إن احتلالها للعراق يأتي بدوافع وأهداف ومصالح إقليمية ودولية تتطلبها سياستها الدولية لتحقيق الزعامة والانفراد بقيادة العالم، وتأمين مصالحها السياسية والاقتصادية والاستراتيجية في المنطقة التي تضمن لها سيادة العالم والهيمنة على القرار الدولي، ومصالح أخرى تتعلق بالنفط وأمن إسرائيل، فضلا عن أن الأخطاء التي ارتكبها صدام حسين أعطت مبررات وهيأت ظروفًا مناسبة للولايات المتحدة لتحقيق هذا الهدف، إذ استغلت أخطاء النظام ووظفتها بشكل مناسب لتحقيق أهدافها، وبالتالي فإن احتلالها للعراق أحدث فراغا سياسيا كبيرا تحتاج الولايات المتحدة إلى من يملؤه، لذلك فإنها لا يمكن أن تتجاوز أحزاب المعارضة التي كانت خارج العراق، ولا يمكن لها أيضا أن تتجاوز مكونات المجتمع العراقي والعوامل والقوى المؤثرة فيه .

ينضاف إلى ذلك أن احتلال العراق يرتبط بالهدف اللاحق للمخطط الأمريكي نحو إيران، ففي دراسة حول القواعد الأمريكية في العالم أعدها برادلي تايلر الباحث في مركز راند للدراسات، أكدت أن من الأسباب وراء احتلال العراق هو إقامة قواعد عسكرية واستخبارية على أرضه، وهذا الأمر لابد أن ترافقه إقامة حكومة موالية للولايات المتحدة للمحافظة على هذه المنشآت، وتقديم التسهيلات اللازمة، وهذه القواعد مفيدة في مواجهة إيران التي تعد الهدف الثاني المرشح للضربة الأمريكية القادمة، إذ كانت الولايات المتحدة ولا تزال تنظر إلى إيران بوصفها أحد عناصر محور الشر الثلاثة وتؤدى دورا يتناقض مع المصالح الأمريكية في المنطقة، وترى فيها أنها تدعم حزب الله في لبنان وتدعم حماس في فلسطين المحتلة، ولها علاقات وثيقة مع تنظيم القاعدة، وبذلك فإن الباحث يرى أن إقامة حكومة عراقية موالية للولايات المتحدة ستكون ملاذا آمنا لقواعدها وللنفط، وهذا كان من أهم الأهداف وراء الحملة على العراق .

وفي الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة تستعرض قوى المعارضة حول إمكانية ملء الفراغ بعد الإطاحة بصدام حسين فإنها لا يمكن أن تغفل الشيعة في الجنوب الذين يشكلون ٦٥٪ من السكان وهي التي خذلتهم عام ١٩٩١، فإنها أيضا لا تخفي مخاوفها من قيام نظام يسيطر عليه الشيعة الذين تتواجد قياداتهم في طهران، ويكون هذا النظام على صلة قوية بإيران[1]. لذلك فإن جملة من الهواجس من الشيعة كانت الولايات المتحدة تراها ترتبط بالتدخل الإيراني والخوف من إقامة دولة دينية .

إن الوضع السياسي الجديد في العراق يستدعي عدم تجاهل حقيقة الحيف والظلم الذي تعرضت إليه الطائفة الشيعية في العراق والإجراءات التعسفية التي أدت إلى حرمانهم من المشاركة في الحكم، وحرمانهم من أداء طقوسهم الدينية، مما دفع الشيعة إلى البحث عن دور أكبر للحوزة في النجف في الحياة العراقية الجديدة، إذ تحظى الحوزة العلمية بمكانة مؤثرة في حياة المواطن العراقي، وتحظى بتأييد والتفاف العشائر العراقية في الجنوب وفي الفرات الأوسط، لذلك فإن أصحاب القرار في الولايات المتحدة لا يمكن لهم تجاهل هذه الحقيقة في أهمية هذه المكانة في حياة أغلبية المجتمع العراقي، وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أن الدور الذي اضطلع به الشيعة في العراق الحديث ذو جذر وطني عام ولم يكن بمعزل عن نشاطات وحركة المجتمع العراقي الأخرى، أي أنه لم يحمل صبغة طائفية، بل كان موقفا ودورا وطنيا[2].

يصف تقرير لـBBC نشر في السابع من آيار عام ٢٠٠٣ أن معظم رجال الدين الشيعة في العراق يدعون إلى فصل الدين عن الدولة ويرفضون التدخل في السياسة، وإن أبرز مراجع الشيعة في العراق السيد علي السيستاني يعتقد أن على الزعماء الدينيين عدم التدخل في السياسة، ويرى ضرورة فصل الدين عن الدولة، وقد يكون بعض رجال الدين العراقيين العائدين من إيران ونتيجة معايشتهم للتجربة الإيرانية، واطلاعهم على جوانب النقص في الإسلام السياسي، فإنهم لا يفضلون إقامة دولة دينية على غرار إيران، فضلا عن سيطرة الشيعة المعتدلين من رجال الدين وإعادة مكانة الحوزة العلمية في النجف قد يضر بالدور الذي كانت تمارسه إيران والحوزة العلمية في قم ويضعفه.

وتبدي الولايات المتحدة عدم الرضا من دور قيادي شيعي للعملية السياسية في العراق في إطار الهواجس والقلق من الدور الإيراني في مرحلة ما بعد صدام حسين في العراق، فقد أكدت دراسة أعدتها وزارة الخارجية الأمريكية بالاشتراك مع معهد جيمس بيكر للدراسات، أنه في الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة تعد لغزو العراق، كانت ترى أيضا أن القوى الدينية والعرقية الرئيسية تتميز بعدم الثقة والكراهية أحيانا ومرد ذلك هو سنوات القمع والملاحقات التي مارسها نظام صدام حسين، لذلك كانت تضع في حساباتها أن تنشر قوات دولية في المناطق التي من المتوقع أن تنشب فيها أعمال عنف، بل لا تخفي قلقها من أن تسعى إحدى دول الجوار (إيران) إلى السيطرة على مناطق محددة من العراق في الجنوب والشمال[3].

ويرى وانغ جنيغ ليه الباحث في الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية، أن الولايات المتحدة تخشى من سيطرة الشيعة على الحكم في العراق، لأنها تعتقد أن ذلك يعزز النفوذ الإيراني، وهي في الوقت نفسه تخشى السنة الذين يرتبطون مع نظام صدام حسين ومع حزب البعث بصلات وثيقة، لذلك فإنها أمام هذه الصورة تريد أن تنقل السلطة المحدودة إلى حكومة مشتركة تمثل كل الأطياف، أقرب إلى أن تكون حكومة حقيقية، لكي تتمكن من أن تحتفظ بوجودها العسكري في العراق[4].

وقد تكون إيران أمام ملف شائك ومعقد في التعامل مع العراق بعد سقوط نظام صدام حسين، إذ إنها في الوقت الذي رأت فيه خلاصا من نظام مستبد، أو أنه قد يفتح آفاقا جديدة للمد الشيعي في العراق والمراهنة على إمكانية إقامة حكومة دينية في العراق على غرار الحكومة الإيرانية من خلال النتائج المتوقعة للانتخابات التي ستفرز فوزا شيعيًا كبيرًا، ولكنها من جانب آخر قد تكون قلقة من نتائج أخرى تتمثل في استعادة الحوزة العلمية في النجف لمكانتها الدينية التي فقدتها نتيجة الاضطهاد الذي تعرضت له في فترة حكم صدام حسين، وأمام تنامي دور الحوزة العلمية في قم، لذلك فإن هذا الدور الجديد لحوزة النجف سيؤدي بالنتيجة إلى إضعاف دور ومكانة حوزة قم، ويضعف دور إيران لدى الشيعة في العالم وفي المنطقة، فضلا عن أن هناك اتجاها لدى بعض علماء الشيعة في إحياء الزعامة العربية للمرجعية الشيعية في العراق[5].

لذلك لا يمكن أن ننفي حقيقة الدوافع والمصالح

راهنت الولايات المتحدة على علاوي ليس بوصفه شيعيا علمانيا فقط، بل لمواجهة النفوذ المتزايد لرجال الدين الشيعة، لكي تتمكن خلاله من احتواء الشيعة، وتقدم خيار إياد علاوي بعد فشل رهان الولايات المتحدة على الدكتور أحمد الجلبي

الإيرانية في التدخل في الشأن العراقي لما له من ارتباط بالدور السياسي والديني لإيران في زعامة الشيعة في العالم، ولكن في الوقت نفسه لا يمكن التعامل مع الشيعة في العراق بوصفهم متقاربين للنفوذ الإيراني في العراق .

وقد أثارت مسألة تشكيل مجلس الحكم والحكومة الانتقالية كثيرا من الاتهامات والشكوك بأنها اعتمدت منهجا طائفيا من خلال مراعاة التكوين الاجتماعي والعرقي والطائفي للمجتمع العراقي، وعلى الرغم من أن ذلك قد يحمل أيضا مؤشرات إيجابية في خلق فرصة للتعايش والحوار والعمل الجماعي، إلا أن الخشية كانت من أن تصبح منهجا وسلوكا ثابتا في العملية السياسية يؤدي إلى إبعاد العناصر الوطنية ذات الكفاءة من ساحة العمل السياسي للتصدي للمشكلات والتحديات السياسية والوطنية، إذ إن تشكيل مجلس الحكم يتناغم مع خصوصية مرحلة انتقالية، لم يزل البلد فيها في طور مخاض وولادة جديدة، ولم تضع فيه آلية مناسبة للحكم بعد، وعلى الرغم من أنه لم يعكس بشكل حقيقي واقع المجتمع، فإنه يعبر عن ضرورات اضطرارية لمرحلة انتقالية[٦]. ينضاف إلى ذلك فإنه يوفر حالة من التوازن المتناسق، ولا يعبر عن حكومة قوية متماسكة.

ومما يؤكد أن الولايات المتحدة ليست مع الخيار الإسلامي، ونحن بصدد حالة الشيعة في العراق، نقول إنها تراهن على خيار شيعي علماني. وقد اختارت الدكتور إياد علاوي أول رئيس لحكومة عراقية بعد تجربة مجلس الحكم، وعلق متحدث باسم البيت الأبيض على اختياره لرئاسة الحكومة العراقية، إنه قطعا قائد جيد ويتمتع بتأييد واسع من العراقيين، وقال مسئول في الإدارة الأمريكية إننا سعداء بهذا الاختيار ونعتقد أنه سيكون رئيسا جيدا للوزراء وأنهم مسرورون وسعداء بالصفات التي يتمتع بها والتأييد الذي يحظى به.

وفي الوقت الذي كانت تتردد فيه الأنباء عن اختيار الدكتور إياد علاوي لرئاسة الوزراء تحدثت الصحف البريطانية عن علاقته بالمخابرات الأمريكية والبريطانية، ومن هذه الصحف الإندبندنت البريطانية التي أشارت إلى أن مهمة الدكتور علاوي الذي يرتبط بجهاز المخابرات البريطانية أن يقنع العراقيين والعالم أن الاحتلال قد انتهى على الرغم من وجود آلاف الجنود الأمريكيين على الأرض العراقية، فضلا عن محاولة إقناع الدول الأخرى أنه سيقود حكومة مستقلة وهذا صعب أمام العلاقة التي تربطه مع المخابرات المركزية الأمريكية وجهاز المخابرات البريطانية، وأن هذه الصلات القوية مع الغرب قد تضعف مكانته وسمعته بين العراقيين، وقد يكون اختياره لرئاسة الوزراء أنه يحقق التوازن بين الأطراف العراقية الداخلية، سواء كانت داخل المجتمع الشيعي أو حتى مع السنة الذين يشعرون بالتهميش في ذلك الوقت .

وقد راهنت الولايات المتحدة على علاوي ليس بوصفه شيعيا علمانيا فقط، بل لمواجهة النفوذ المتزايد لرجال الدين الشيعة، لكي تتمكن خلاله من احتواء الشيعة، وتقدم خيار إياد علاوي بعد فشل رهان الولايات المتحدة على الدكتور أحمد الجلبي، وحاولت أن توظفه كجسر للعلاقة مع المرجع الديني الأعلى سماحة السيد السيستاني، ولكن هذه المحاولة فشلت بسبب إدراك ومعرفة السيد السيستاني خطورة التعاطي مع إياد علاوي الذي يرتبط مع الولايات المتحدة بعلاقات وثيقة. وهذا السياق من العمل السياسي بالتأكيد سينعكس على الدور السياسي والأداء السياسي لعلاوي.

احتفظ الدكتور علاوي بمكانة لدى المواطن العراقي، وأصبح خيارا مهما في الساحة العراقية وتمكن أن يحصد أربعين مقعدا في الجمعية الوطنية، وهذا يعد نجاحا كبيرا، بل أصبح من المتوقع أن يكون له نصيب أوفر في الانتخابات الأخرى التي جرت في كانون الأول عام ٢٠٠٥ . وجاءت النتائج عكس ما كان متوقعا فقد تراجعت مكانته، بل أدت سياسته إلى اصطدام وتقاطع تام بينه وبين الشيعة كمجتمع وكقوى سياسية.

وانعكست أجندة الولايات المتحدة على أداء الدكتور إياد علاوي، إذ تعامل بشدة متناهية مع التيار الصدري أثناء مواجهة النجف، فالولايات المتحدة ترى أن السيد مقتدى الصدر أجندة سياسية وعسكرية تشكل تحديا كبيرا للاستراتيجية الأمريكية، وأن هذه الأجندة أكبر من أن تتسع لها برامج الزعامات السياسية الموجودة في العراق، وضمن استراتيجية كانت تراها الولايات المتحدة مناسبة لمواجهة المد الإيراني في العراق والحد من دور المرجعية العلمية في النجف، فقد تحرك الدكتور إياد علاوي باتجاه تكوين تحالفات مع البعثيين ومع قوى سياسية ودينية سنية، وبالتالي فإن ذلك أبعده عن التأثير في الوسط الشيعي، مما أدى إلى حرمانه من فرصة الحصول على نتائج أكبر في انتخابات كانون الأول ٢٠٠٥، وبالتالي أضعفت الولايات المتحدة من خيارها المفضل الخيار الشيعي العلماني .

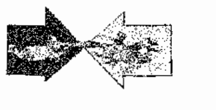
وفي مقال للكاتبة نعومي كلاين في صحيفة الجارديان تقول إن فوز الائتلاف في الانتخابات يعارض الوجود والسياسات الأمريكية، وترى أن الناخبين وجهوا لطمة للولايات المتحدة عندما أطاحوا بإياد علاوي الذي عينته، وأن تصويت العراقيين لصالح الائتلاف يعني التصويت لصالح مغادرة قوات الاحتلال من العراق، وصوتوا ضد سياسة السوق الحرة التي تريد الولايات المتحدة تطبيقها في العراق . وفي مقال نشر في صحيفة التايمز وصفت فيه الكاتبة السيد السيستاني بأنه أقوى رجل في العراق، وتوقعت أنه سيكون له أثر كبير على مصير العراق وأن تأثيره يفوق ما يتمتع به كل الساسة العراقيين والقوات الأجنبية مجتمعين، وأن فوز القائمة التي يدعمها سيلعب دورا رئيسيا في تحديد ملامح الدولة العراقية المقبلة .

ولا يمكن أن نبعد المسار الذي اعتمده الدكتور إياد علاوي بعد إعلان نتائج الانتخابات عن وجهة النظر القائلة بأن نتائج الانتخابات جاءت مخيبة لآمال الولايات المتحدة، إذ قاد حملة محلية ودولية للتشكيك بنتائج الانتخابات وشكل كتلة مرام المعترضة على نتائج الانتخابات، وبعدها جاءنا بصيغة المشاركة الوطنية والاستحقاق الوطني، ثم بصيغة مجلس الأمن القومي، ثم المشاركة بالاعتراض على تولي الدكتور إبراهيم الجعفري رئاسة الحكومة الجديدة وآخرها الدعوة لتشكيل حكومة إنقاذ وطني، والهدف من وراء كل هذه المواقف إضعاف دور الشيعة في الحكومة المقبلة والالتفاف على نتائج الانتخابات، وهو تعبير واضح على كره الولايات المتحدة للإسلاميين، وعدم رغبتها في قيادة الشيعة للعملية السياسية في العراق .

وعلى أثر النتائج التي حققها الائتلاف العراقي الموحد في انتخابات كانون الثاني عام ٢٠٠٥، صرح وزير الدفاع دونالد رامسفيلد بأن الشيعة في العراق عراقيون وليسوا إيرانيين، وقلل من المخاوف التي تتحدث عن احتمال ظهور حكومة إسلامية شيعية على غرار الحكومة الدينية في إيران، ووصف ذلك بأنه أمر مستبعد، وأن وجهة نظر رامسفيلد أيدها ديك تشيني نائب الرئيس الأمريكي وقال إنه ليس هناك ما يبرر الخوف والقلق الأمريكي من أن العراقيين سيقدمون على أمر لا نحبذه، وعلى الرغم من النتائج التي أفرزتها انتخابات كانون الثاني عام ٢٠٠٥ وأظهرت تقدم الشيعة فإن الولايات المتحدة رأت في إقبال المواطنين العراقيين على صناديق الاقتراع تحديا للإرهاب، وأنه خطوة مهمة باتجاه مواجهة أيديولوجية التطرف والكراهية، وهي تحد للمنهج الذي يعتمده الزرقاوي والتكفيريون، بل إن هذا الإقبال على صناديق الاقتراع هو فرصة لبناء عراق ديمقراطي موحد، وأعربت رايس عن ارتياحها لبروز الشيعة في العراق، وهذا الارتياح نابع من كونهم أغلبية السكان وانهم كانوا مضطهدين، وأن ظهورهم في المسرح السياسي مظهر جيد في العراق، ولكنها لم تخف مخاوفها من أن هيمنة الشيعة على الحكم نتيجة فوزهم الكاسح في انتخابات كانون الثاني عام ٢٠٠٥ قد ينعكس على صياغة الدستور العراقي الجديد واعتماده على الشريعة الإسلامية التي ترى أنها تحد من حقوق المرأة، وأكدت وقوف بلادها إلى جانب حقوق المرأة في بلدان الشرق الأوسط والبلدان الإسلامية .

يمكن القول إن الولايات المتحدة لن تستطيع السيطرة على العراق دون أن يقبل الشيعة الذين يشكلون الثقل الأكبر في المجتمع، وعلى الرغم من عدم استخدام الشيعة أسلوب المواجهة والرفض مباشرة مع الأمريكان بعد أن أصبح الاحتلال أمرا واقعا، إلا أن الغالب على موقف الشيعة هو عدم الرضا على الوجود الأمريكي، واعتمدت المرجعية الدينية حث المواطنين على المفاوضات والحوار والتظاهرات السلمية بهدف إقامة وإجراء الانتخابات، وهذا الاتجاه قاده المرجع الديني الأعلى السيد علي السستاني، أما التيار الصدري الجناح الآخر من الشيعة وهو جناح واسع ومهم فقد اعتمد أسلوبا وخطابا رافضا للوجود الأجنبي في العراق، وساهمت السياسة الأمريكية التي اعتمدت القمع والعنف في دفعه إلى المواجهة مع الأمريكان، فضلا عن أن الشيعة أدركوا أن الولايات المتحدة تعمل على تحديد وتقييد سلطاتهم ودورهم، لأنها فشلت في الدفاع عن المجتمع وفشلت في تحقيق الأمن، مما زاد من خيبة الأمل وردة الفعل تجاه الوجود الأمريكي[٧].

وعلى الرغم من أهمية القول بأن الطائفية ليست هي المشكلة الرئيسية فيما وصل إليه العراق من ظروف معقدة، إلا أن من الخطأ تجاهل حقيقة الانقسام



الطائفي الذي مر به العراق طيلة تاريخه. وحرمان الشيعة من الحكم العثماني الذي وضع النخبة السياسية السنية في المقدمة. واستمرار هذا الوضع حتى بعد سقوط الدولة العثمانية واحتلال بريطانيا للعراق. إذ احتفظت النخب السياسية السنية بقيادة المجتمع العراقي.وظل الشيعة يعانون من الغبن والاضطهاد حتى عام ٢٠٠٣. وقد يكون القول إن الخلافات بين الشيعة والسنة هي خلافات سياسية أكثر منها دينية وطائفية، وهي أيضا متأثرة بطبيعة الأنظمة السياسية وبطبيعة الصراع والتنافس الدولي والإقليمي؛ لذلك فإن التغيير الذي حدث في عام ٢٠٠٣ جعل الشيعة يبحثون عن فرصة غابت عنهم مدة طويلة. ومن جهة أخرى فإن التغيير الجذري في طبيعة الحكم عام ٢٠٠٣ وشعور السنة أنهم فقدوا سلطة كانوا يتمتعون بها لقرون طويلة من الزمن، انعكس على الواقع السياسي والاجتماعي والطائفي في العراق .

إن المنحى الطائفي أخذ يتجه نحو التصعيد بشكل كبير وسريع منذ تفجير قبة الإمامين علي الهادي والحسن العسكري في سامراء في ٢٢/شباط / ٢٠٠٦، ولا يمكن أن ننكر أن هناك ردة فعل قوية من الشيعة نتيجة هذا الفعل الإجرامي الذي استهدف رموزهم ومعتقداتهم في الصميم، ولكن من جانب آخر، فإنه لابد من القول إن هناك تصعيداً واضحاً في حجم ونوع أعمال العنف والقتل التي أخذت تعطي لنفسها صبغة طائفية أو أنها تنفذ تحت اللافتات والشعارات الطائفية المتشددة.ولم يتمكن الأمريكان بوصفهم دولة الاحتلال وأنهم يمتلكون الأوراق والخيارات والصلاحيات أن يوقفوا العنف أو أن يمنحوا الحكومة العوامل والشروط التي تجعلهم قادرين على تحقيق الأمن .

وحاولت الحكومة الأمريكية في خطابها بشأن العراق أن تستبعد استخدام تعبير الحرب الأهلية لوصف الأوضاع التي تجري في العراق، وقد يكون مرد ذلك لدوافع سياسية. لأن الحرب الأهلية في العراق تضعف من تأييد الأمريكيين للحرب في العراق، ولكنها لم تكن قادرة على أن تتجنب هذا الوصف، وشاع استخدام تعبير الحرب الأهلية في الصحف الأمريكية مثل صحيفة نيويورك تايمز ولوس انجليس تايمز وشبكة إن بي سي، إذ شهد عام ٢٠٠٦ تصعيدا كبيرا في العنف الطائفي، وقال بيل كيلر رئيس تحرير صحيفة نيويورك تايمز إن من الصعب أن تجادل بأن هذه الحرب لا ينطبق عليها التعريف المقبول بصفة عامة للحرب الأهلية، وأكد الجنرال جون أبي زيد قائد القيادة الأمريكية الوسطى أمام أعضاء لجنة القوات المسلحة التابعة لمجلس الشيوخ في الثالث من آب ٢٠٠٦ أن العنف الطائفي في العراق وفي بغداد بالتحديد أصبح في أسوأ حال شهده العراق على الإطلاق، وحذر من أنه ما لم يتوقف العنف فإن العراق يتجه نحو الحرب الأهلية .

والموقف الأمريكي من الشيعة في العراق يتأثر بموقف الدول العربية السنية، إذ يكثر الجدل في الأردن حول ظاهرة التشيع نتيجة وجود آلاف الشيعة العراقيين. والاستقطاب السياسي الإقليمي للمحور الإيراني السوري، والتخوف العربي من النفوذ الإيراني في العراق وفي المنطقة العربية، وعلى الرغم من أن ظاهرة التشيع لا تزال محدودة، إلا أنهم ينظرون إليها بأنها مقلقة، وتشير التقارير الصحفية إلى أن الأجهزة الأمنية الأردنية لم تكتم تخوفها من هذه الظاهرة، فضلا عن أن الشارع الأردني بدا غير راض عن السياسة الإيرانية تجاه العراق، وعن المعلومات التي تشير إلى تدخل إيراني طائفي في العراق ودعم إيران للميليشيات الشيعية، وأخذت المصادر تتحدث عن تنسيق أردني سعودي لمواجهة ما تسميه بالنفوذ الإيراني لدعم الجناح العسكري للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية المتمثل بمنظمة بدر وحزب الدعوة، وأن المخاوف الأردنية والقلق الأردني قد أسهم في صياغته وتكوينه شهادات لمسئولين ولشخصيات عراقية مثل الدكتور إياد علاوي وحازم الشعلان وفلاح النقيب وأيهم السامرائي وأعضاء في كتلة الحوار الوطني وهيئة علماء المسلمين،واتفق البلدان على تنسيق مواقفهما بشأن ما تسميه النفوذ الإيراني المتزايد في العراق. وتأتي تصريحات وزير الخارجية السعودي سعود الفيصل ومهاجمته للشيعة وتقديم الدعم للسنة في هذا الإطار، وتضمن التنسيق الجديد مطالبة واشنطن للعمل معها في مواجهة الشيعة ومواجهة النفوذ الإيراني في العراق[٨].

وقد اتهم مرشد الثورة الإسلامية الإيرانية آية الله علي خامنئي الولايات المتحدة بأنها هي التي تحرض السنة والشيعة على الاقتتال الطائفي وتريد أن تزرع التشاؤم في نفوس الناس، وأكد خامنئي في خطبة الجمعة التي ألقاها في طهران في تشرين الأول من عام ٢٠٠٦، بأن الولايات المتحدة تريد جعل السنة والشيعة يقاتلون بعضهم، وبالتأكيد أن مرشد الثورة الإسلامية يريد أن يبعد التهم التي توجهها الولايات المتحدة لإيران بأنها تقدم الدعم للمسلحين الشيعة، وعموما فإن الاتهامات المتبادلة بشأن العراق أصبحت فاعلة ومؤثرة في المشهد العراقي، بل إنها من أكثر القضايا أهمية وحساسية .

ويعد موضوع مستقبل التواجد العسكري في العراق وإمكانية بقاء أطول للقوات الأمريكية في العراق في ظل حكومة إسلامية شيعية موضوعا مهما في قراءة طبيعة العلاقة بين الولايات المتحدة والشيعة في العراق، وحسب نشرة الدفاع الأمريكية يوجد للولايات المتحدة قوات في ١٣٥ دولة من دول العالم، وإن لديها أكثر من ٧٠٪ من دول العالم، ولم تدخل الولايات المتحدة بلدا ثم تخرج منه سوى فيتنام وكوريا الشمالية. لذلك فإن المتوقع أن يكون هذا الوصف ينطبق على العراق، كشفت صحيفة جمهوريت التركية في كانون الثاني عام ٢٠٠٤ أن الولايات المتحدة تريد بناء سبع قواعد عسكرية في العراق، ثم نشرت صحيفة نيويورك صن في الشهر نفسه أن البنتاجون يبني نظام اتصالات عسكرية مستديما في العراق وهو أساس ضروري لوجود عسكري دائم، لذلك يتوقع المراقبون أن الحديث عن انسحاب من العراق هو حديث تكتيكي استراتيجي أو إعادة انتشار، ومن ثم فإن الولايات المتحدة تتحدث عن انسحاب بعد استكمال مهمة بناء جيش عراقي، وهذه مهمة ليس من المنتظر أن تنتهي بسرعة إذ لم تقم الولايات المتحدة بإجراءات جدية في بناء جيش عراقي وقوة أمن بالعدد والعدة المطلوبين .

ولكن هناك مبررات قد تدفع الأمريكان للتفكير في الانسحاب منها الخسائر التي تعرضوا لها، وارتفاع التكلفة المادية والبشرية لوجودهم في العراق، إذ ذكر تقرير بعنوان (المستنقع العراقي التكاليف المتزايدة للحرب ومسألة إعادة القوات إلى الوطن) نشر في ٣١ / ٨ / ٢٠٠٥ أن تكاليف الحرب على العراق باتت قريبة من ٧٠٠ مليار دولار، وهذه التكاليف تضغط بدورها على الاقتصاد الأمريكي وقد تؤدي إلى مضاعفة العجز المتوقع في الميزانية الاتحادية للسنوات العشر القادمة، فضلا عن الشكوك المتزايدة من بقاء ومن نشاط القوات الأمريكية في العراق، وانعكاس هذا التواجد المكثف للقوات الأمريكية في العراق على قدرة الولايات المتحدة على اتخاذ قرارات مهمة في مواضيع مهمة أخرى، فضلا عن ضغط الجمهوريين واليوم الديمقراطيين المتزايد داخل الكونجرس باتجاه سحب الجيش الأمريكي[٩]، لذلك فإن انسحابا جزئيا قد يسهم في تحسين الأجواء والأوضاع في العراق وفي الولايات المتحدة .

فضلا عن ذلك فإن استراتيجية الانسحاب من العراق وتقرير توجهات السياسة الأمريكية تجاه العراق خلال المدى القريب والبعيد ترتبط بأن مصالح استراتيجية تجعل الولايات المتحدة مضطرة إلى الاحتفاظ بنسبة كبيرة من قواتها في العراق، وعلى رأس تلك المصالح النفط، إذ بدأ العالم يشهد ندرة نفطية عالمية وانخفاضا في الاحتياطي النفطي، بل إن الكثير من الكتب والإصدارات والآراء ترى أن حروب الطاقة قد بدأت فعلا نتيجة الحاجة والطلب المتزايد على النفط، وأن من يسيطر على النفط يمتلك السلطة والقوة الاقتصادية بيده، وترى الولايات المتحدة أن السيطرة على النفط هي جزء من استراتيجياتها العالمية في التحكم بقارة (أوراسيا) التي توصف بأنها قلب العالم، فضلا عن هذا الهدف المتمثل في الحاجة إلى القوة العسكرية هو أن أحد أهم المحركات للسياسة الخارجية الأمريكية لمرحلة ما بعد الحرب الباردة هو كيفية التعاطي مع الدول التي تصفها الفاشلة وأنها مرتع للإرهاب، وأن هناك ارتباطا بين هذا الأمر وبين العولمة. وإن المصالح التي بموجبها حركت الولايات المتحدة قواتها العسكرية في فترة التسعينيات أعطتها فرصة أن تثبت وجودها العسكري في مناطق واسعة من العالم، بل يرى البعض أن ١١ / أيلول كان هبة من السماء، منح الولايات المتحدة فرصة فرض قواعد جديدة في العالم[١٠].

لذلك فإن الولايات المتحدة أمام خيارين أولهما انسحاب جزئي تكتيكي يحقق للأمريكان البقاء لفترة أطول بأقل الجهد والتكاليف، وثانيهما بناء قواعد عسكرية ثابتة في العراق تحقق المطلوب منها، وفي كلتا الحالتين فإن تحقيق ذلك قد تراه مناسبا في ظل حكومة عراقية تسيطر عليها الأحزاب الدينية الشيعية. وكل ذلك يعكس الهواجس والقلق من حكم الشيعة الإسلاميين في العراق .

وهي تبحث عن تحقيق النصر في العراق ترى الولايات المتحدة أن مشاركة واسعة للسنة العرب في العملية السياسية تراه

من الخطأ تجاهل حقيقة الانقسام الطائفى الذى مر به العراق طيلة تاريخه، وحرمان الشيعة من الحكم العثمانى الذى وضع النخبة السياسية السنية فى المقدمة

ضروريا لتحقيق ذلك، ففى خطاب ألقاه فى ٢٠ كانون الأول / ديسمبر فى واشنطن قال ستيف هادلى مستشار الأمن القومى الأمريكى «إن هناك اعترافا متناميا بأن الإخفاق ليس خيارا فى العراق» إن الهزيمة فى العراق ستوجد «ملاذا آمنا للإرهابيين، فى بلد يحتوى على موارد طبيعية هائلة يمكن استخدامها لتمويل هجمات إرهابية فى المستقبل وهذا يعد إقراراً متناميا بضخامة منافع النجاح الأمريكى فى العراق وقال: «إن النجاح سيسدد ضربة حاسمة إلى الأيديولوجية التى تضرم نار الإرهاب الدولى . وسيكون العراق الديمقراطى منارة للحرية، تلهم المصلحين الديمقراطيين فى جميع أنحاء الشرق الأوسط» . وذكر هادلى أن الإجماع الذى أخذ يسود بين الساسة الأمريكيين يتركز على خمسة عناصر تتضمن تدريب قوات الأمن العراقية ونقل المزيد من المسئوليات الأمنية إليهم وإدخال السكان العرب السنة فى العملية السياسية ودعم العراقيين وهم يراجعون وربما يعدلون دستورهم كى يصبح بمثابة ميثاق وطنى بين المجموعات العراقية المتنوعة، وتوسيع دعم المجتمع الدولى للعراق وإشراكه فى إعادة بناء العراق وإعادة تركيز الدعم لإعادة إعمار العراق والجهود الاقتصادية كى تتبدى أمام أعين العراقيين وظائف ومزايا ملموسة . وقال هادلى إن مفتاح النجاح بتعديل الدستور هو فى إجراء تعديلات تعالج هواجس السنة ولكنها لا تخلق توقعات. «وأضاف أن آخر شىء تريده هو إجراء تعديلات أو تغيرات لا تلبى هواجس السنة ثم يأتى السنة ينسحبون من العملية السياسية . إنه يتطلب حنكة سياسية حقيقية من المجتمعات الثلاثة، السنة والشيعة والأكراد».

هذا الوصف يعد بمثابة توجهات أمريكية بشأن سياستها فى العراق، إذ أخذت تدفع وتشجع السنة على المشاركة فى الانتخابات، بل حتى فى إقامة حكومة وحدة وطنية وتلوح باحتمالات الدفع والتشجيع على إجراء تعديلات فى الدستور تلبى هواجس السنة، والأكثر من ذلك فإن الولايات المتحدة فتحت قنوات اتصال مع الإرهابيين، وأخذت تعيد النظر فى استخدام المفردات والخطاب تجاههم وأبدلت الإرهابيين بالمسلحين، إذ يجب أن تفهم أن هذه التوجهات تستهدف خلق موازنة فى الحكومة العراقية المقبلة والحد من تأثير وانفراد القوى السياسية الشيعية فى العملية السياسية للمرحلة المقبلة .وعلى الرغم من أن مؤشرات تقرير بيكر هاملتون تشير إلى عدم إمكانية تلبية كافة مكونات المجتمع العراقى المتناقضة فى سلة واحدة، ويمكن اعتماد ما تمتلكه الأكثرية (الشيعة والأكراد) مع ضمان حقوق السنة، إلا أن الرئيس بوش أصر فى استراتيجيته على إعطاء مساحة أكبر لمشاركة السنة فى العملية السياسية والتعامل مع المتطرفين والمتشددين لدى الشيعة والسنة على حد سواء، وكل ذلك يأتى فى إطار تحقيق توازنات قلقة لا تسمح للشيعة بالانفراد أو امتلاك مفاتيح الحل فى العراق وحدهم .

ويأتى ملف حقوق الإنسان ليكون مؤشرا آخر على أن الولايات المتحدة وظفته ضد الشيعة فى العراق كجزء من حالة عدم الرضا من الإسلاميين الشيعة، فقد أكد تقرير المنظمة الدولية لحقوق الإنسان (هيومان رايتس ووتش) لعام ٢٠٠٦ تدهور حقوق الإنسان فى العراق، إذ أشار إلى انتهاكات تقوم بها القوات الأمريكية العراقية المشتركة أثناء قيامها بسحق الإرهابيين والمتمردين بما يؤدى إلى مقتل المدنيين وانتهاك قوانين الصراعات المسلحة، وقال التقرير إن معظم المزاعم بشأن سوء معاملة المعتقلين تطال قوات وزارة الداخلية العراقية وعناصر من القوات المسلحة التى تعمل تحت أمر وزارة الدفاع العراقية

وجه الرئيس الأمريكى جورج بوش فى خطابه استراتيجية النصر نقدا قصد به الشيعة، إذ قال (والبلد الذى ينقسم إلى فئات ولا يتجاوز المظالم القديمة بلد لا يستطيع التحرك قدما ويواجه خطر الانزلاق مجددا إلى الطغيان) وفى إشارة أخرى قال (يجب علينا أن نضمن أن قوات الشرطة تدرك أن مهمتها هى خدمة قضية عراق حر، لا معالجة مظالم قديمة بالاقتصاص من الناس خارج شرعة القانون)[١١] .

وفى الاستراتيجية الجديدة التى أعلنها الرئيس الأمريكى بوش فى مطلع عام ٢٠٠٧ فإنه وصف موضوع الميليشيات بأنه أخطر الملفات التى تواجه السياسة الأمريكية فى العراق ووضع ما يسميهم بفرق الموت والميليشيات على حد سواء مع الإرهابيين ومنذ قضية ملجأ الجادرية حتى اليوم تتكرر مشاهد الاتهام والضغط على الشيعة وعلى ردة الفعل التى ارتكبتها بعض القوى المسلحة من الشيعة فى التعامل مع ملف الاحتقان الطائفى والتهجير الذى دفع إليه الإرهابيون .

وعلى نفس المنوال فى مواجهة البرنامج السياسى للحكومة العراقية التى تقودها بشكل كبير الأحزاب الشيعية الإسلامية تعثرت برامج وسياسة الإعمار، إذ اتسمت مشاريع الإعمار فى العراق خلال السنوات الثلاث الماضية بالبطء والتلكؤ وعدم الوضوح، إذ أن نسبة ما نفذه فى الواقع من برامج الإعمار هى محدودة جدا وتشير دراسة يابانية أن نسبة التنفيذ هى ٥ ٪ فقط، فضلا عن أن هذه النسبة لا تذهب كاملة للإعمار، إذ يشوبها الفساد الإدارى ومصاريف العمالة الأجنبية، وتشير أحدث دراسة لوزارة التخطيط العراقية إلى أن المبالغ المنفقة وكلفة المشاريع المقررة هى ٥ ٢ مليار دولار من خلال صندوقى الأمم المتحدة والبنك الدولى والمعونات الثنائية، فضلا عن المنحة الأمريكية البالغة ٢.٩ مليار دولار حتى شباط عام ٢٠٠٥، وبذلك يكون مجموع إعانات الإعمار نحو ٥.٤ مليار دولار . وقد أثير جدل حول الفساد الإدارى الذى رافق عمليات الإعمار اتهم فيه مسئولون أمريكيون وساسة عراقيون وإداريون، لذلك جرى الحديث عن اختفاء أموال تقدر بالمليارات وظل موضوع الأمن هاجسا يعيق الإعمار، وأصبح أيضا ذريعة لمزيد من النهب والاختلاس[١٢].

ينظر الأمريكان نظرة متفائلة للاقتصاد العراقى، ويرون أن هناك عوامل إيجابية تتوفر فيه كالعملة المستقرة والبورصة المستقلة والبنك المركزى وقانون الاستثمار والقوانين الضريبية، ولكن الرئيس الأمريكى جورج بوش وصف أن أكبر تحد يواجه العراق هو إعادة البنية التحتية النفطية والكهربائية ووعد بمواصلة جهود إعادة التعمير ومساعدة الحكومة الجديدة فى تطبيق الإصلاحات وتشييد اقتصاد حديث. ودعا الدول كافة إلى إعادة الممتلكات العراقية المتجمدة وحثها على إسقاط ما لديها من ديون على العراق، فضلا عن تقديم القروض والمساعدات له.

لذلك فإن العقبات التى واجهت حكومتى الجعفرى والمالكى فى شأن الانطلاق أو الاندفاع نحو برنامج واسع للإعمار الكفيل بفتح آفاق واسعة ورحبة أمام بناء تجربة عراقية جديدة، تشير إلى أن الولايات المتحدة تشترك مع الحكومات العراقية المشار إليها فى الفشل الذى رافق القيام بحملات الإعمار، إذ لم يلمس المواطن العراقى أى تطور فى هذا المجال على الأرض، يمكن أن ينعكس على حياة المواطن وأمنه واستقراره.

مضامين ومؤشرات ختامية

. لم ينجح الشيعة فى إزالة الشكوك بشأن التدخل الإيرانى، وتأثير إيران فى برامج الأحزاب السياسية الدينية الشيعية، وفتح فرصة أوسع للتعاون مع الولايات المتحدة وبناء جسور من الثقة معها، إذ لا تزال الولايات المتحدة غير واثقة من أن مصالحها تتحقق مع قيادة الأحزاب الدينية الشيعية للعملية السياسية، فضلا عن أنهم أى الشيعة لم يتمكنوا أن يظهروا قوتهم وتماسكهم وتوظيف عناصر الضغط لديهم لضمان تأييد أمريكى لمشروعهم السياسى فى العراق، ينضاف إلى ذلك أن الشيعة لم يتمكنوا من النجاح فى الملف الأمنى سواء كان ذلك نتيجة عدم الحصول على الدعم الأمريكى المطلوب، أو عدم توظيف المجتمع وقيادته باتجاه مكافحة الإرهاب وتقوية مؤسسات الدولة العسكرية والأمنية نحو ذلك، بل إن الخطاب السياسى الشيعى لم يرتق إلى مستوى مواجهة حملات التشكيك والرفض والتحدى، لذلك انعكست هذه المواجهة السياسية الخطابية على الموقف الأمريكى الذى أخذ ينظر باهتمام إلى الاختراقات فى وزارة الداخلية وعدم منح الحكومة الصلاحيات المناسبة، فضلا عن موضوع الميليشيات الذى أخذ مساحة أكبر من الاهتمام فى الخطط الأمريكية فى العراق .

. إن استمرار العقبات والفشل فى الملف الأمنى فى العراق، يدفع العلاقات بين الولايات المتحدة والشيعة إلى أن تأخذ منحى يصب فى الصراع والاصطدام، إذ إن فشل أو نجاح التجربة السياسية فى العراق هو رهن بحل الأزمة الأمنية، وأن برنامجاً أو استراتيجية جديدة بشأن العراق لا تأخذ بنظر الاعتبار توقفا نهائيا للعنف لن تكون ناجحة ومجدية، وبالتالى فإن فشل الحكومة المنتخبة هذه المرة سيكون منعطفا فى وصف العلاقات بين أمريكا والشيعة وبالتالى يدفع الشيعة أو يضطرهم إلى المواجهة السياسية والعسكرية، ويدخل الوجود العسكرى

الأمريكي في مأزق جديد قد يكون أكثر خطورة من الملفات والأزمات التي تواجهها الولايات المتحدة في العراق .

. إن استمرار العنف والاحتقان الطائفي والأعمال الإجرامية الإرهابية يدفع إلى أن يهيمن المسلحون والمتشددون والمتطرفون على الساحة السياسية وعلى الأرض، وتعني بالنتيجة زيادة الاحتقان واستمرار القتل وجرائم الاغتيال، وستواجه الاستراتيجية الأمريكية الفشل، وهذا الفشل يجعل العراق على أعتاب مرحلة خطيرة تدفعه إلى مزيد من التدهور والاحتقان والحرب الأهلية.

إن مراهنة الولايات المتحدة على ظهور ونمو قوة سياسية علمانية يكون لها حضور فاعل في السياسة العراقية يظل خيارا متوقعا وقائما، ولكن ذلك لا يعني أنه يأتي من خلال خلق الأزمات ووضع العراقيل أو من خلال استمرار دوامة العنف، بل من خلال خلق أجواء من الأمن والاستقرار والتطور في العملية السياسية، فضلا عن أن الخيار العلماني الذي تبحث له عن مكان في الساحة السياسية العراقية ليس بالضرورة أن يأتي من خلال التصدي للتيار الإسلامي، إذ إن للخيار الإسلامي وخاصة حالة الشيعة في العراق تأثيرا واسعا ومهما، لابد من التعامل معه بواقعية وفهم جديدين يرتقيان معا لأداء دور وطني أكبر، وقد ينمو ويظهر اتجاه علماني إسلامي.

. إن زج العراق في الاستراتيجية الأمريكية نحو إيران، يجعل العراق ساحة من ساحات الصراع والتنافس بينهما، ويجعل من الولايات المتحدة لا تحمل برنامجا وديا تجاه الشيعة في العراق، إذ لا تستطيع الولايات المتحدة أن تجمع بين نجاح الشيعة في العراق وبين ضرب الشيعة في إيران معا، إذ إن الحملة العسكرية المتوقعة ضد إيران دفعت الولايات المتحدة إلى الضغط على الشيعة في العراق، والقيام بحشد عربي ضد ما تسميه نفوذا إيرانيا في العراق، وبذلك أصبح الشيعة في العراق ضحية أجندة إيرانية لم تكن موفقة في محاولة إشغال وإفشال الوجود العسكري الأمريكي في العراق، وهي أيضا ضحية لأجندة أمريكية تستهدف تصفية الحساب مع إيران ومنع تطورها النووي أو محاولة تغيير نظامها السياسي .

. إن الولايات المتحدة رفعت شعارات حقوق الإنسان والديمقراطية وبشرت بإقامة مجتمع مدني متطور في العراق، وهذه المفردات أخذت مساحة كبيرة في خطابات الرئيس الأمريكي بوش وفي خطابات وتصريحات المسئولين الأمريكيين، وبذلك فإنها ملزمة أمام نفسها وأمام شعبها والرأي العام العالمي أن تقدم ما من شأنه أن يضع العراق على طريق السير نحو الديمقراطية .

. إن المؤشرات التي تضمنها تقرير بيكر هاملتون ومواقف الديمقراطيين في الكونجرس الأمريكي بشأن جدولة الانسحاب ومنح الحكومة العراقية صلاحيات واسعة في الملف الأمني وعدم زج قوات أمريكية جديدة في العراق، فضلا عن الدعوة إلى فتح الحوار مع المراجع الدينية في النجف ومع السيد مقتدى الصدر، تبدو أكثر واقعية ومنطقية في معالجة أوضاع العراق وتحقيق نتائج إيجابية باتجاه الحل في العراق . وقد يفتح كل ذلك آفاقا جديدة لنظرة أكثر واقعية للإسلاميين الشيعة في العراق. *

الهوامش

(١) المعارضة العراقية لصدام، تحليل بقلم فيونا سيمون .

(٢) مصطفى كاظم الشيعة في العراق بين الدين والسياسة، تقرير BBC منشور بتاريخ ١٩/٥/٢٠٠٣ .

(٣) رؤية أمريكية لعراق ما بعد صدام حسين .

(٤) وانغ جنيغ ليه: التناقض القومي الأمريكي المتزايد .

(٥) محمد عباس ناجي، ما هي حقيقة المد الشيعي الإيراني في العراق، ملف الأهرام الاستراتيجي، إصدار مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية .

(٦) رجائي فايد المأزق العراقي، مشكلات بناء الدولة في مجتمع تعددي، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٣٧ لسنة ٢٠٠٤ .

(٧) بربارا بليت، استياء شيعي من سلطة التحالف في العراق، تقرير BBC منشور بتاريخ ٢٠/٤/٢٠٠٤ .

(٨) محمد العرسان، التشيع السياسي .. سيناريو يقلق الحكومة ١٤/١/٢٠٠٧ تقرير تحليل رضوان، جريدة المستقبل ٨/١/٢٠٠٧.

(٩) علي حسين باكير، الانسحاب الأمريكي من العراق.. الدوافع والانعكاسات، الجزيرة نت ٨/١٢/٢٠٠٥ .

(١٠) سعد محيو، أمريكا والعراق: نقمة واستراتيجيات عليا، الجزيرة نت ٣١/١٢/٢٠٠٥ .

(١١) العناصر الأمنية والسياسية والاقتصادية لاستراتيجية النصر، خطاب الرئيس الأمريكي جورج بوش في مؤتمر المحاربين القدماء يوم ١٠/١/٢٠٠٦ .

(١٢) علي الراوي، بعد عامين من الغزو.. تداعيات المنجز والمشكل، الجزيرة نت ٧/٤/٢٠٠٥ .

كتاب الزاوية

أمريكا وبنوكها في مصر

عادل حسين

أ - صدر القانون ٤٣ لاستثمار المال العربي والأجنبي والمناطق الحرة، بعد إسكات الأصوات المعارضة، وحدث في التطبيق ما توقعناه، فقطاع البنوك كان المجال الوحيد الذي اندفع إليه رأس المال الأجنبي، فهم يدركون مثلنا وأكثر منا، الأهمية الاستراتيجية لهذا القطاع. إن دافيد روكفلر لم ينتظر حتى صدور القانون، فطالب أثناء مقابلته للرئيس السادات (فبراير ١٩٧٤) بفتح مكتب لبنك تشيزمانهاتن الذي يرأسه. وفي مفاوضات عبد العزيز حجازي مع وليم سايمون (وزير المالية الأمريكي في يوليو ١٩٧٤) وقعت الوثائق الخاصة بإعادة العمل باتفاقية ضمان الاستثمارات الأمريكية في مصر، وتم الاتفاق في المباحثات على خطوات تتضمن:

١ - السماح لأربعة بنوك أمريكية من الدرجة الأولى، بفتح فروع لها في مصر، وهي «تشيزمانهاتن»، و«فيرست ناشيونال بانك»، و«بنك أوف أمريكا»، و«الأمريكان إكسبريس».

٢ - تزور مصر مجموعة من ١٦ من كبار رجال الأعمال الأمريكيين الذين يمثلون ١٠ من أكبر الشركات الأمريكية.

ثبت من بيانات هيئة الاستثمار أنه حتى مارس ١٩٧٥، كان ١٩ بنكًا من البنوك العالمية قد طلبت افتتاح فروع لها في مصر. أوضحت البيانات أنه تمت بالفعل الموافقة على إنشاء خمسة بنوك، منها بنك مشترك يتألف من بنك مصر (٥١٪) مع بنك فيرست ناشيونال شيكاغو، وبنك دي روما.



«رفيقات» السجن!

محمود السوداني

في صيف ١٩٤٧ تأسست الحركة الوطنية للتحرر الوطني (حدتو) بعد أن اتحدت المنظمتان السريتان الحركة المصرية واسكرا، وتخرج أقوى وأكثر المنظمات الشيوعية السرية إلى الوجود لتلعب أخطر الأدوار، وأكثرها تأثيراً في الكفاح السياسي والحركة الوطنية المصرية قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وبعدها؛ فقد كان عدد من أبرز مناضليها يعملون في صفوف تنظيم الضباط الأحرار، بل إن حدتو هي التي كانت تقوم بطباعة منشورات الضباط الأحرار في مطبعتها السرية يتسلمها جمال عبدالناصر بنفسه بالقرب من المنيل ومن الرفيق ملكون ملكونيان كما هو معروف.

السطور التالية تتناول وقائع سجن واعتقال شيوعيات سواء من حدتو أو من غيرها من المنظمات في الفترة التي أعقبت التجريدة الكبرى في عام ١٩٥٩ والتي استمرت حتى ١٩٦٤.

على مبعدة نحو ألف كيلو متر من معسكر اعتقال المحاريين، كانت نساء حدتو وغيرها من المنظمات يقبعن بسجن القناطر للنساء! (يبعد عن القاهرة عدة كيلو مترات). وإذا كان عددهن قد بلغ ستاً وعشرين فقط، إلا أن مجتمعاً مثل المجتمع المصري كان يرفض ويدين بشدة تورط سلطات القمع في اعتقال أو سجن النساء في قضايا سياسية. وقبل عام ١٩٥٢ يمكن رصد حالات قليلة جداً تم اعتقالهن، غير أن تجريدة يناير ١٩٥٩ وانفجار الهوس المعادي للشيوعية، كان أقوى من أن يتوقف أمامه أحد.

تأخر اعتقال النساء أقل من ثلاثة شهور بعد تجريدة الأول من يناير، حيث بدأت حملة اعتقالهن في ٢٨ مارس ١٩٥٩، فهوجم بيت الفنانة التشكيلية إنجي أفلاطون، لكنها كانت تتوقع ذلك وهربت، كما اعتقلت انتصار خطاب وزوجها صلاح تاركين طفليهما عمر (١٤ سنة) وهشام (١٠ سنوات) ورفض الضابط الذي ألقى القبض عليهما أن تصطحب معها الطفلين لتوصيلهما إلى بيت جدتهما القريب.

كانت المشكلة الأولى التي واجهت تلك الاعتقالات أن لا أحد كان قد فكر في إعداد مكان لاعتقالهن، فالقلعة (المعتقل الأول الذي يستضيف المناضلين) لم تكن معدة لاستقبال النساء، وهو ما دعا قائد المعتقل للصراخ في القوة التي اصطحبت انتصار خطاب رافضاً دخولها! وبعد عدة اتصالات تم إرسالها إلى حجز قسم الموسكي مع ثريا شاكر التي كان قد تم اعتقالها في الليلة نفسها.

كانت ثريا قد اتفقت مع زوجها المهندس فوزي حبشي على أن يظل هارباً ولا يمر على أسرته إلا لحظات قليلة للاطمئنان إذا ما وجد منشفة الوجه منشورة على حبل الغسيل في الشرفة المطلة على الشارع، وهي العلامة التي تعني أن المكان لايزال آمناً. وكانت قد أوت إلى فراشها متأخرة بعد الاحتفال بعيد الميلاد الثامن لابنها الأكبر ممدوح. بالمصادفة كانت حماتها معها تحضر عيد الميلاد ليلة الاعتقال. تركت ثريا وراءها إلى جانب ممدوح كلاً من حسام ٦ سنوات ونجوى الرضيع التي لم يتجاوز عمرها عاماً واحداً. ومع ذلك تمكنت من اختطاف منشفة الوجه من حبل الغسيل، طبقاً للاتفاق بينها وبين فوزي حبشي. حاولت ثريا أن تصطحب معها طفلتها نجوى الرضيع، إلا أن الضابط رفض تماماً، وقال لها - كالعادة - إنها لن تتغيب أكثر من نصف ساعة!!

أما فاطمة زكي عضو اللجنة الوطنية العليا للطلاب والعمال أثناء انتفاضة ١٩٤٦، فلم يكن قد مر على زواجها من نبيل الهلالي سوى ستة شهور، وتم القبض عليها أثناء هروبها وأودعت قسم عابدين مع إجلال السحيمي في حجز النساء. ومثلما حدث مع انتصار خطاب، رفض قائد معتقل القلعة استقبال ليلى الشال وأعيدت إلى المباحث العامة. بينما قبض على ثريا أدهم زوجة حلمي ياسين من بيت أسرة زوجها وهي تعاني من التهاب رئوي حاد ألزمها الفراش، حتى أنهم اعتقلوها وتوجهوا بها إلى المستشفى رأساً في اليوم نفسه، وفي شهر رمضان الكريم قبل مدفع الإفطار!!

اهتدى مكتب مكافحة الشيوعية إلى حل مشكلة مكان إيداع المعتقلات أخيراً وهو سجن القناطر للنساء المجاور لسجن القناطر للرجال الذي استضاف بدوره عدداً كبيراً من المناضلين سواء ممن اعتقلوا عام ١٩٥٩ أو بعد ذلك.

جينيفيف سيداروس تركت أيضاً ثلاثة أطفال أكبرهم عمره ٤ سنوات لتقضي نحو خمس سنوات رهن الاعتقال حسبما أشارت في الجزء الثالث من «شهادات ورؤى». وبنت شبرا ثريا إبراهيم التي كان بيت أسرتها ملاصقاً لبيت عائلة حفني ناصف الثورية الشهيرة، اعتقلت تاركة ابنتها تسعة شهور، بينما زوجها د. مختار السيد كان قد اعتقل قبلها. إيفون حبشي - التي كان شقيقها ضابط شرطة - توجه لاعتقالها جزار طنطا الشهير أنور منصور قاتل الشهيد محمد عثمان نفسه، لذلك لم يتورع عن الإمساك بالمقص في قسم شرطة طنطا وقص شعرها لينتزع منها أماكن الهاربين في طنطا. وعندما فشل شحنتها في سيارة مصلحة السجون مع الرجال من المساجين الجنائيين. وداد متري لم تمكث في المعتقل إلا حوالي خمسة شهور، وتعرضت أثناء القبض عليها وهي تسير في الشارع مع فخري لبيب لالتواء في ذراعها بسبب العنف المستخدم معها، والأكثر إزعاجاً بالنسبة لها هو أن أسرتها بكاملها في تلك الليلة كانت تستعد للسفر إلى الإسكندرية بعد ساعات، وخرجت من بيتها بعد أن قالت إنها لن تتغيب أكثر من نصف ساعة، وكان كل ما يهمها بعد القبض عليها هو قلق أمها وشقيقتيها، فقد كانت كبيرة العائلة ومسئولة عنها بعد وفاة والدها.

وداد متري وإيفون حبشي تم تقديمهما للمحاكمة في قضية، لذلك يبدو أنهما كانتا تقيمان في عنبر آخر باعتبارهما تحت التحقيق، وهو العنبر الذي كانت تقيم به مسجونات أخريات من بينهن مارسيل بنينو الجاسوسة الإسرائيلية، إلى جانب أجنبيات أخريات مثل ماري بابا دوبلو اليونانية وليفكي ياناكاكيس، ثم ميمي كاتل الإيطالية المتزوجة من كمال عبدالحليم، وكان محكوماً عليها بثلاث سنوات قضتها وخرجت من مصر، ثم عادت متنكرة إلا أنها قبض عليها وحكموا عليها بخمس سنوات قضتها كلها حسبما قالت ثريا شاكر في ورشة العمل التي نظمتها لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية. وأضافت وداد متري في المصدر نفسه أنها كانت عازفة موسيقى ماهرة، وقد سمحوا لها في السجن بدخول آلة كمان، كانت تعزف عليها موسيقى كلاسيكية عندما تكون حالتها طيبة، لكنها كانت تفرض عليهن أن يرتدين ملابس رسمية إذا رغبن في الاستماع إلى عزفها!

أما العنبر الذي كان يضم القسم الأغلب من المعتقلات فكان اسمه أصلاً عنبر الدعارة، حسبما قالت ليلى الشال لفخري لبيب في كتابه الأخير «الشيوعيون

لم تترك المباحث العامة طريقة إلا واستخدمتها للضغط على المعتقلات والتوقيع على مجرد ورقة لاستنكار أفكارهن



بعد جهد شديد استطعن إقامة علاقات إنسانية مع المسجونات فى قضايا القتل والمخدرات والدعارة، وكذلك مع السجانات

وعبدالناصر». وبعد تسكين الشيوعيات فى عنبر الشيوعية وهو «مبنى طوله عشرة أمتار، وعرضه خمسة أمتار. كان به سبعة سرر فى صفين، وكل سرير مكون من ثلاثة طوابق. لا توجد على السرر حشايا ولا أية مفروشات أخرى، فقط على كل سرير بطانية واحدة. وبالعنبر جردلان. عندما دخلت الرفيقات العنبر لم يكن لدى أى منهن أية فكرة عن استخدام هذين الجردلين فقالت السجانة: واحد للمياه والآخر للحاجة».

منطقة القناطر التى تضم سجنًا للرجال وآخر للنساء يفصل بينهما شارع واسع، تعد من أكثر المناطق سحرًا وخصوصًا فى الشتاء (كاتب هذه السطور قضى بضعة شهور فى سجن القناطر للرجال عام ١٩٨١). فالأرض المحيطة تعد من أخصب الأراضى، والأشجار متكاثفة ومتنوعة، والطبيعة سخية للغاية، والألوان والظلال دائمة التغير والتنوع. لكن البرد قارس حقًا وتشعر به يدق عظامك ويؤلمها بشدة.

وإذا كان الشيوعيون فى السجون الأخرى لم ينجحوا فى إقامة حياة عامة مشتركة سواء فى المعيشة أو فى المواقف السياسية والمطلبية داخل السجون بسبب اختلاف الانتماء الحزبى، فإن النساء - على اختلاف واقتتال المنظمات التى انتمين إليها - استطعن إقامة حياة عامة مشتركة، كما استطعن توحيد مواقفهن فى مواجهة الإدارة وانتصرن فى أغلب المعارك التى جرت ضدها، كذلك أصدرن بيانات مشتركة، ودخلن معًا إضرابات عن الطعام.

إنجى أفلاطون - الفنانة التشكيلية الراحلة وذات الأصول الأرستقراطية العريقة، كانت قد استطاعت الهرب أكثر من ثلاثة شهور من أمر اعتقالها، وتنكرت فى زى فلاحة ممن يعشن فى المدن، وارتدت طرحة فوق منديل الرأس وجلبابًا أسود طويلاً وكردانًا على الرقبة ووضعت كحلاً أسود كثيفًا فى عينيها. وعاشت مع زوجين مسنين كانت ظروفهما المالية صعبة باعتبارها هاربة من بيت الطاعة. ثم قبض عليها فى كمين بعد أحد الاجتماعات الحزبية. واستطاعت بمهارة تحسد عليها أن تتخلص من تقرير عن اضرابات عمال الترام كان كافيًا لتوقيع أقصى عقوبة عليها. فى اليوم التالى حقق معها وكيل نيابة يدعى أحمد موسى (كان على علاقة بزوجها محمد أبو العلا وكيل النيابة الراحل، الذى مات بعد خروجه من السجن). وسألها الرجل: هل كنت هاربة؟ أجابته بأنها كانت هاربة بالفعل لأن أمر الاعتقال كان غير قانونى «وأنا لست على استعداد للذهاب إلى السجن».. فعاد يسألها إن كانت متنكرة، فأجابته بأنها فنانة وتحب رسم الفلاحين. وبسبب حبها ارتدت تلك الملابس وكانت تقف أمام المرآة لترسم نفسها!! فانفجر فى الضحك بالطبع!

بعد ثلاثة أيام قضتها فى مبنى وزارة الداخلية قابلها خلالها حسن المصيلحى وغيره من كبار الضباط وحاولوا استدراجها للإدلاء بمكان هروبها دون جدوى. وعندما أودعت سجن القناطر كان كحل عينيها قد ساح وجلبابها اتسخ وبدت هيئتها كمتسولة حتى أن رفيقاتها لم يتعرفن عليها فى البداية!

أما الشابة الفلسطينية صهباء البربرى خطيبة الشاعر معين بسيسو فقد نقلوها من السجن الحربى إلى سجن القناطر، مثلما نقلوا خطيبها من الحربى إلى الواحات.

لا أعرف ما إذا كان علىّ أن أكرر أن هؤلاء النساء كن يعملن بالسياسة بطبيعة الحال، ولم يكن مجرد زوجات بل مناضلات، يناضلن فى صفوف منظماتهن المختلفة شأنهن شأن رفاقهن من الرجال سواء فى النقابات أو الأحياء أو أماكن عملهن أو فى الأجهزة الفنية مثل المطبعة أو فى شبكات توزيع المنشورات.. إلخ.

فى الكتيب الصغير الذى أهدانى إياه صديقى الكبير عريان نصيف «المرأة المصرية واليسار» تذكر ثريا حبشى أسماء ٢٤ معتقلة ومسجونة من بينهن ٩ أمهات تركن أطفالهن خارج الأسوار، والباقيات توزعن بين من تخرجن فى الجامعات أو مازلن طالبات، إلى جانب عاملة من شبرا الخيمة، وفتاة صغيرة من بنى سويف عمرها ١٦ عامًا (تذكر ثريا إبراهيم فى «شهادات ورؤى» أن عمرها كان ١٣ سنة فقط)، ولم تكن شيوعية بل تلميذة لشيوعى مدرس فى بنى سويف. قضت ثلاث سنوات فى السجن وخرجت شيوعية، بل ورفضت قبل الإفراج عنها كتابة استنكار مثلما فعل البعض من الرجال).

تركزت جهود المباحث وإدارة السجن على الضغط على من تركن أبناءهن بحرمانهن من رؤيتهم، خصوصًا أن الآباء كانوا مسجونين أيضًا، فتضاعف قلقهن. وابتدعن طرقًا عديدة لرؤية أبنائهن الذين كانت أعمارهم تتراوح بين عام واحد وسن المراهقة، على النحو الذى سوف أورده بعد قليل: عانين بطبيعة الحال، فأغلبهن كن يدخلن السجن للمرة الأولى، والعنبر مغلق طوال اليوم، إلا للذهاب لدورة المياه الموجودة فى مستشفى السجن مرتين صباحًا وعصرًا، والكتب والجرائد والأوراق والزيارات ممنوعة والطعام بالغ الرداءة (متعهد التغذية لسجن القناطر تمكن من بناء عمارة سكنية شاهقة خلال السنوات الأربع التى قضتها الرفيقات فى السجن).

وسرعان ما أدركن أنه يجب عليهن مواجهة تلك الظروف والتغلب عليها، وكما روت فاطمة زكى لفخرى لبيب فى «الشيوعيون وعبدالناصر»:

«اتفقت أنا وثريا أدهم وسعاد الطويل وإجلال السحيمى على ضرورة عمل شىء ما. فى اليوم التالى ساعة طابور الصباح صحت فى الجميع أن يتجمعن معًا لنبدأ تمارين رياضية. شكلن دائرة وبدأت التمارين: واحد.. اثنين.. الرأس واليدين، البطن والرجل، ثم رقص إيقاعى.. خطوة لليمين خطوة لليسار. والمسجونات العاديات يتساءلن عن هؤلاء اللواتى يرقصن داخل السجن. بعد هذا الطابور الرياضى توجهنا للاغتسال فى دورة المياه، ثم تناولنا الإفطار. بدا الأمر وكأننا فى معسكر خاص بنا، كان الأمر المهم هو تحطيم رهبة السجن».

بينما تقول إنجى أفلاطون:

«عندما وصلت فى شهر يولية كانت معنويات الزميلات هائلة. يتصرفن وكأنهن فى رحلة.. لعب وغناء.. حتى إذا جاء شهر يوليو وانتشر جو الإفراج والعفو فى السجن، دخلت الزميلات فى هذا الجو أيضًا. لذلك ناقشت مع اللجنة القيادية، (لجنة تشكلت داخل سجن القناطر ضد مختلف التنظيمات) خاصة والزميلات عامة، ضرورة تجهيز أنفسنا للحفاظ على صحتنا ومعنوياتنا لأننا سنظل فى السجن مدة طويلة..

بعد جهد شديد استطعن إقامة علاقات إنسانية مع المسجونات العاديات من المتهمات فى قضايا القتل والمخدرات والدعارة والسرقة، وكذلك مع السجانات، إلا أنه بعد شهرين فقط، أدلى جمال عبدالناصر بتصريح شهير للصحفى الهندى كارنجيا قال فيه «ليس فى مصر معتقلون أو معتقلات».. ووصلت الصحيفة التى نشرت الخبر إلى سجن القناطر، وأثناء مناقشته تذكرت ثريا شاكر ما سمعته من زوجها فوزى حبشى أن مصطفى النحاس أعلن عام ١٩٤٨ أنه لا توجد معتقلات فى مصر، وخرج الجميع فى اليوم نفسه بناء على ذلك التصريح. تروى ثريا شاكر ما جرى بعد مناقشة تصريح جمال عبدالناصر.

«اتفقنا فيما بيننا أننا سوف نذهب بعد الطابور.. إلى غرفة المأمور ونخبره أننا قررنا الاعتصام عنده حتى يأتى من يؤكد لنا وضعنا الحالى.. فرئيس البلاد يقول بالفم المليان إن ماعندوش معتقلين.. نبقى إحنا مين؟! وبعد طابور الصباح ذهبنا بشلة المعلم إلى غرفة المأمور وأخبرناه بما اعتزمناه، بالطبع رفض أن نحتل غرفته وهاج وماج وهددنا بالويل والثبور وعظائم الأمور حتى نرتدع ونعود إلى عنبرنا لكن نحن لم نهتم وأصررنا على موقفنا فأدخلونا غرفة الرئيسة وهى الغرفة المقابلة لغرفة المأمور.. وأحضروا حوالى ٢٠٠ أو ٣٠٠ عسكرى عملوا التمام والفرقعة بالسلاح وهذا بالطبع للتخويف.. وبعد أن تركونا

لمدة ساعة تقريبا وهى التى عمل فيها المأمور الاتصالات والذى منه وحضر مدير المنطقة ونقلوا السجن يعنى أدخلوا كل السجينات فى عنابرهن إلا حوالى ٣٠ أو ربما أكثر المعروف عنهن الخناقات وأجسامهن ضخمة وأدخلوهن علينا الغرفة الصغيرة اللى إحنا مزنوقين فيها وكل واحدة منا استلمتها اتنتان على الأقل من السجينات الفظيعات وهات يا ضرب فينا وشد شعر وسحل والذى منه. فيتفنا رغم كل هذا ونحن مسحولات إلى العنبر:

تسقط سياسة الكذب والنفاق..

وهكذا حتى وصلنا إلى العنبر مكسرين مدشدغين. وفاطمة زكى كسر لها ضلع... سجلوا الحادث على أنه خناقة بين المسجونات العاديات والمعتقلات الشيوعيات ووقعوا علينا عقوبات كثيرة....

بطبيعة الحال استفدن كثيراً من تلك المعركة على الرغم من الضرب والتكسير، فقد رفضن الاستسلام وشعرن بقدرتهن على المقاومة. لذلك سرعان ما تظمن المحاضرات والمناقشات. ونظمن تجربة محدودة لمحو أمية بعض المسجونات الجنائيات. وأعددن مجلة مسموعة، وشكلن فريقاً للتمثيل داخل العنبر، كانت الفنانة محسنة توفيق هى البريمادونا فيه بطبيعة الحال. وكان فى السجن مكتبة، إلا أنه لم يكن مسموحاً لهن بالاستعارة منها، غير أن علاقاتهن بالمسجونات الجنائيات مكنتهن من قراءة أغلب ما فيها من خلال استعارة زميلاتهن من الجنائيات. والطريف أن إنجى أفلاطون اكتشفت أن عدداً كبيراً من تلك الكتب كان مكتوباً عليه اسم زوجها محمد محمود أبو العلا الذى كان نزيلاً فى سجن الرجال من قبل، وهى التى كانت قد أحضرت له الكتب!

وبعيداً عن السياسة كانت إنجى أفلاطون من أهم الفنانات التشكيليات فى مصر بلا جدال، ولم تكن تستطيع الحياة دون أن ترسم. لذلك طلبت من مأمور السجن أن يسمح لها بالرسم، ولما رفض، عرضت عليه أن ترسم لحساب السجن، أى تسلم لوحاتها للإدارة التى تقوم ببيعها لحساب السجن. وبعد لأى وجهود مضنية استطاعت أسرتها أن تستخرج لها تصريحاً رسمياً بالرسم داخل السجن. فرسمت فى تلك الفترة عدداً من أجمل لوحاتها وأكثرها تأثيراً. ومن بينها الصورة الشهيرة للطفلة التى تمسك ببرتقالة، وهى فى الأصل ابنة واحدة من تجار المخدرات المحكوم عليها بتأبيدة. كانت قد دخلت عنبر المعتقلات فرحبن بها وأعطينها برتقالة. وحين بدأت الطفلة فى تناولها، وكانت إنجى تراقبها منذ دخولها، شرعت فى رسمها على الفور. تلك اللوحة تحديداً نالت إعجاب العميد عباس قطب مدير منطقة سجون القناطر وأصر على شرائها بجنيه واحد وكادت تلك اللوحة النادرة أن تضيع تماماً، إلا أن البرواز الخالى الذى اشترى العميد اللوحة خصيصاً ليضعها فيه كان أصغر من اللوحة فأعادها وطلب منها أن ترسم لوحة أخرى وأبلغها بالمقاس الذى يريده!! وعندما وصل مأمور جديد للسجن اسمه عبد القادر فهمى، كان متشدداً جداً ويقضى فترات طويلة كل يوم يراقب إنجى وهى ترسم، ولأن إنجى كانت تهرب لوحاتها خارج السجن، فقد خافت من مراقبته واكتشافه اختفاء إحدى اللوحات. واضطرت لرسم نسختين من كل لوحة، وهو أمر بالغ الصعوبة بالنسبة لأى فنان كما هو معروف، وعلى الرغم من ذلك صادرت المباحث إحدى عشرة لوحة لا يمكن تعويضها أبداً. ومن بينها بورتريه لامرأة محكوم عليها بالإعدام ولم تستطع استردادها.

على الرغم من كل ذلك إلا أن هناك جرحاً مفتوحاً ومؤلماً على الدوام، وهو حرمانهن من رؤية أطفالهن. فيما عدا أسماء البقلى التى اعتقلت وهى حامل فى أيامها الأخيرة، وساعدها طبيب السجن على أن تلد فى معتقل مستشفى قصر العينى حتى لا يقال إن طفلها ولد فى السجن! وبعد شهر عادت أسماء البقلى ومعها طفلها ياسر الذى تفتح وعيه وتعلم أولى الكلمات داخل عنبر المعتقلات الشيوعيات بسجن القناطر. وكان موضع عناية وحب كل المعتقلات اللائى مارسن أمومتهن معه على مدى ما يقرب من ثلاث سنوات. لكن استمراره بعد ذلك كان مستحيلاً، ليس فقط بسبب لوائح مصلحة السجون، بل أيضاً لأنه لم يكن يعرف أحداً فى الخارج، وأبوه على مبعدة أمتار قليلة فى سجن القناطر للرجال، وقد رفضت المباحث السماح له برؤية ياسر مطلقاً. الحل كان البحث عن طريقة لنقل أسماء وياسر لمستشفى قصر العينى، وإتاحة الفرصة ليتعرف على أسرته الجديدة فى الخارج، قبل أن تضطرها اللوائح لإخراجه فى الموعد المحدد، وهو ما نفذته بأقصى قدر من السرعة. المدهش أن ياسر يوم خروجه من السجن انطلق راكضاً بجنون إلى الخارج دون أن يودع أمه! ورفض فيما بعد أن يزورها أو يراها!

أما ثريا شاكر فتحكى لفخرى لبيب فى جداريته أنها فوجئت ذات يوم بمأمور السجن يستدعيها ثم وجدت هناك طفلة صغيرة تجلس على مكتبه. كانت جميلة كالقمر. وقفت أمامها أتأملها. أمعن فيها النظر وأتساءل إن كانت هذه نجوى ابنتى.. كانت الطفلة تنظر لى أيضاً دون أن تعرفنى. لم أكن قد رأيتها منذ عامين. قال مأمور السجن: ألا تعرفين هذه الطفلة؟ وللحال تحول شكى إلى يقين. هذه الجميلة ابنتى. اختطفتها وانهلت عليها تقبيلاً.

قال لى المأمور: لقد جاء بها عمها هذا الصباح وقال إن الطفلة تريد رؤية أمها وأنا لا أريد زيارتها. لكن ها هى الطفلة أمامك تريد أن تتعرف على أمها ومرجع الأمر إلى إنسانيتك.. وأنا كأب لم أستطع أن أمنعها من رؤيتك رغم مخالفة هذا للوائح والقوانين».

فى الأعياد تسمح مصلحة السجون بزيارة أطفال السجينات الجنائيات لأمهاتهن وقضاء النهار معهن. إلا أن هذا لم يكن مسموحاً به لأطفال المعتقلات السياسيات، ولأن علاقة الأخيرات بالسجانات كانت طيبة، فقد سألت كل من ثريا شاكر وثريا إبراهيم وانتصار خطاب وسميرة الصاوى، الباشسجانة ما إذا كان بإمكانهن أن يرين أطفالهن واستغلال تلك الفرصة السانحة، فوافقت، إلا أنها أدخلت المعتقلات مع أطفالهن إحدى الغرف وطلبت منهن ألا يحدثن ضجة حتى لا ينتبه المأمور، والأرجح أنه كان يعرف، فقد سبق له السماح لثريا شاكر برؤية طفلتها نجوى على مسئوليته الشخصية.

وتحكى انتصار خطاب، لفخرى لبيب أيضاً، أن ضابطاً شاباً اصطحبها من القناطر إلى قصر العينى للكشف عليها لاحتمال إصابتها بالسرطان، وأثناء الطريق طلبت من الضابط أن يسمح لها برؤية ابنيها اللذين لم تكن قد رأتهما منذ عامين، ووافق الضابط على الفور وذهب بها إلى بيت والدتها حيث قضت بعض الوقت معهما. ثم غادرت إلى قصر العينى.

اعتاد ابناها التسلل لزيارتها فى قصر العينى، وكانت الممرضات يخفينهما أثناء مرور الضباط، سواء من قسم الشرطة التابع له المستشفى أو المباحث العامة، لكن أحد الضباط لمح الابن الأكبر عمر

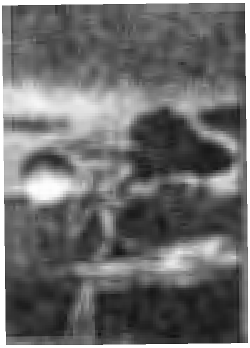


عندما قالت الرفيقة أوديت:
البيت الذى
شهد وحدة الحزب
لا يمكن أن يكون
هو البيت الذى يناقش
فيه حله

وانهال عليه ضرباً، وبادله عمر الضرب بكل الحقد الذى كان يختزنه لمن حبسوا أمه وأباه. عادت انتصار بعد شهر إلى سجن القناطر، ولم تمر شهور قليلة إلا ووصلها خطاب من عمر فى أوائل عام ١٩٦٢ تقول كلماته:

«أنت وزوجك (يقصد أمه وأباه) تتركان أولادكما، فى حين أن الأمر لا يحتاج منكما لأكثر من التوقيع على ورقة فتخرجان من السجن. رشاد خميس وقع على هذه الورقة وخرج إلى أولاده. هذا الخطاب إنذار.. إننى متعب للغاية حيث تسبكما وتشتمكما جدتى على الدوام. إذا استمر موقفك على الرفض فهذا آخر خطاب منى إليك، لأنى سوف أنتحر، سوف أحرق نفسى».

لم تستطع انتصار احتمال الموقف وكادت تفقد صوابها، وأسرعت بتدبير طريقة للعودة إلى قصر العينى وشرح الأمر لعمر: فهى لم تدخل السجن بإرادتها، والورقة



الفلسطينية صهباء البربري خطيبة معين بسيسو نقلوها من السجن الحربي إلى سجن القناطر، مثلما نقلوا خطيبها من الحربي إلى الواحات

التي يطلبون التوقيع عليها هي الرصاصة التي يقتل بها الإنسان نفسه وإنسانيته.

من جانب آخر لم تترك المباحث العامة وحسن المصيلحي أسلوبًا أو طريقة إلا واستخدمتها للضغط على المعتقلات والتوقيع على مجرد ورقة لاستنكار أفكارهن ومعتقداتهن. وهو ما قاومنه بشدة ولم يسقط أحد منهن. حتى عايدة بدر التي لم تكن تعرف أي شيء عن الشيوعية، وكل ما في الأمر أنها تصدت للقوة التي هاجمت بيتها للقبض على شقيقتها أحمد بدر فاعتقلوهما معًا، وحاول حسن المصيلحي عدة مرات إقناعها بكتابة استنكار لتخرج. إلا أنها صمدت، كما يليق بابنة بلد حقيقية عاشت مع الشيوعيين وأكلت معهم «عيش وملح» وعرفت معدنهم الحقيقي.

وفي ديسمبر ١٩٦١ دخلت المعتقلات الشيوعيات إضرابًا عن الطعام استمر ١٧ يومًا كدن يفقدن حياتهن خلاله، فقد كان مطلبهن غير واقعي على الإطلاق، وهو الإفراج عنهن، وأنهين إضرابهن بعد حضور مندوب من رئاسة الجمهورية، وحصلن على «وعد» بالإفراج، وهو أقل كثيرًا من الإفراج بالطبع! إلا أن حياتهن كانت مهددة بالفعل بعد ١٧ يومًا. ثريا شاكر مثلاً كان وزنها ٧٣ كيلو جرامًا قبل الإضراب وبلغ ٥٦ كيلو جرامًا بعده، وأصيبت جينيفيف سيداروس بنزيف، وأشرفت فاطمة زكي على الموت. وبدلاً من الإفراج حصلن على عدد من المكاسب مثل قراءة الجرائد (وإن كان السيد مندوب رئاسة الجمهورية سمح بالأهرام فقط!) وتحسين الطعام وزيادة الأمانات في الكانتين وخطاب كل أسبوع من المعتقلة لأسرتها. وكما هو واضح فإن ما تحقق نتيجة الإضراب كان محدودًا جدًا ولا يتناسب مع إضراب استمر ١٧ يومًا، ويبدو أنهن لم ينجحن في إدارة المعركة، كما أن رفاقهن في سجن الرجال المجاور كانوا رافضين لإضرابهن وحاولوا إثناءهن عن تنفيذه دون جدوى.

على أي حال، أمست الظروف أكثر إنسانية بعد الإضراب، فقد فتح باب «عنبر الشيوعية» طوال النهار، وسمح لهن رسميًا بوابور جاز لطهي الطعام، ومشاهدة التليفزيون الذي كان قد بدأ إرساله للمرة الأولى في مصر، كما كن يشاهدن فيلمًا كل أسبوع، إلا أنهن كن يحرصن على تصفيف شعورهن وارتداء فساتينهن ويحتسين الشاي وهن جالسات أمام شاشة السينما!

ثم بدأت المحاكمات.

كانت إيفون حبشي من طراز خاص جدًا وتمتعت بما لم تتمتع به أي من المعتقلات، فقد أفرج عنها للمرة الأولى في ٢٤ يوليو ١٩٦٠ ثم أعيد القبض عليها في أبريل ١٩٦٢، وأفرج عنها في فبراير ١٩٦٣، وأعيد القبض عليها مرة ثالثة في ديسمبر ١٩٦٣.. كان ممكنًا لها احتمال كل ذلك ما دامت تقضي فترات اعتقالها بين رفيقاتها في سجن القناطر، إلا في المرة الأخيرة حين سقطت في كمين أعد لها بدقة، حيث اتصل بها هاتفيًا شخص طلب مقابلتها، وعندما التقيا أخبرها أن أحد الرفاق - المعروفين لها - أرسله ليسلمها بعض الأوراق، وفي الموعد المحدد ألقي القبض عليها فور تسلمها الأوراق. قضت في البداية سبعة أيام في حجز قسم الخليفة الكريه، فهو واحد من أبشع المحطات التي يتم فيها تجميع المساجين والمسجونات الجنائيين قبل الترحيل إلى السجون. حقق معها وكيل النيابة تحقيقًا صوريًا استمر ليلة كاملة حتى الخامسة صباحًا بهدف إنهاكها. وبسبب صلابتها في التحقيق أودعت بسجن القناطر - نساء - في عنبر المخدرات ليس في عنبر الشيوعية الذي كان خاليًا بعد الإفراج عن المعتقلات. كان عنبر المخدرات قد أعد لها وحدها لتقضي ٧٠ يومًا في حبس انفرادي وأجبرت على ارتداء ملابس السجينات المحكوم عليهن، بينما تقضي لوائح مصلحة السجون بارتداء المسجونات تحت التحقيق ملابس بيضاء، ثم أفرج عنها في أواخر مارس ١٩٦٤، ولذلك فهي آخر شيوعية يفرج عنها تقريبًا.

أما إنجي أفلاطون فقد حكم عليها بسنتين سجنًا أنهتهما في ١٩٦١/٦/١٩ وأعيد اعتقالها في اليوم نفسه دون أن تغادر فناء السجن، وكل ما جرى هو نقلها من عنبر المسجونات إلى عنبر المعتقلات. وعلى الرغم من أن موقف ثريا أدهم القانوني كان جيدًا، فلم يثبت عليها إلا مجموعة من الخطابات الشخصية بينها وبين زوجها حلمي ياسين، ومع ذلك أصرت على أن تقدم دفاعًا سياسيًا أثناء محاكمتها، وكانت أول امرأة مصرية تقدم دفاعًا سياسيًا. وعندما قاطعتها هيئة المحكمة، قفزت فوق مقعدها داخل القفص وألقت دفاعها الذي تركز حول حل أزمة الديمقراطية باعتبارها الطريق الوحيد للحفاظ على استقلال الوطن وتدعيمه وأنهته بالكلمات التالية:

.. وليس لدي ما أقوله سوى أنه يشرفني أنني منذ عام ١٩٤٦ وأنا أقدم كل ما أملك بلا تردد ولا مقابل، في سبيل قضية بلادي العزيزة وشعبها الحبيب، لقد اشتركت في مذبحة كوبري عباس في ٩ فبراير ١٩٤٦، وكذا ٢١ فبراير ١٩٤٦، وكنت عضوة في لجنة العمال والطلبة. اشتركت في إضرابات عام ١٩٤٧، ونتيجة لنشاطي الوطني إبان العهد الملكي وإرهاب إبراهيم عبدالهادي عام ١٩٤٩ حكم علي بالسجن. وفور خروجي اشتركت في معركة الكفاح المسلح في القنال عام ١٩٥١. واستمر نضالي الوطني بعد الثورة، وساهمت في كل معارك كفاح شعبنا. ففي عام ١٩٥٦ كنت عضوة في لجنة المقاومة الشعبية في كفر الدوار، وفي ١٩٥٧ كنت عضوة في لجنة التوعية الانتخابية. وفي عام ١٩٥٨ قمت بدوري في توعية الشعب بأهمية الوحدة العربية والديمقراطية وأهميتها بالنسبة لكفاح شعبنا وكافة الشعوب العربية.

وأنا اليوم بعد ثلاث سنوات من الاعتقال، بعد كل ما قاسيته وأقاسيه من تدهور سريع في صحتي يكاد يودي بحياتي، بعد كل التعذيب الوحشي الذي لاقاه زوجي محمد حلمي ياسين في معتقل أوردي أبي زعبل، أعلنها مدوية، إني أفخر وأعتز بنضالي وتضحياتي من أجل بلادي. إني مستعدة، اليوم وغدًا وفي كل وقت، أن أقدم حياتي حتى آخر قطرة من دمي في سبيل مصرنا العزيزة ومستقبل شعبنا الباسل المجيد.

ومع ذلك حكم عليها بثلاث سنوات، كانت قد أنهتها بالفعل فتحولت إلى معتقلة! وهو نفسه ما جرى مع ثريا إبراهيم التي كان من بين قرائن الاتهام ضدها أن لها طفلة اسمها «مير» أي السلام بالروسية! حيث حكم عليها بسنتين ثم تحولت إلى معتقلة، وهو أيضًا ما جرى مع نوال الحملاوي التي حكم عليها بسنتين وتحولت إلى معتقلة.

إلى جانب ذلك، لعبت أمهات المعتقلين دورًا بالغ الأهمية. وعندما التقيت مثلاً بعم عريان نصيف لنتجاذب أطراف الحديث حول دور الأمهات، ضحك قائلاً: إنه جند أمه الرفيقة صفية التي فاجأته بقراءة أوراق حدتو وكان يحتفظ ببعضها في البيت منذ بدايات ارتباطه بالسياسة دون أن يعلم عريان! وساعدته بعد أن اقتنعت بما قرأته في الأوراق والمطبوعات المختلفة. وحسبما ورد في الكتيب الذي أعدته لجنة إحياء ذكرى شهداء ومناضلي اليسار - «المرأة المصرية واليسار» - روى فخري لبيب حكاية الرفيقة صفية..

بعد معركة ١٩٥٦ وفي جلسة صفاء بين الأم وابنها طلبت منه أن يشرح لها أفكاره وقضيته بالتفصيل، ثم سألته عن موقفه من الدين، وظلا يتحدثان حتى الصباح.. وفي النهاية قالت له:

- لو كان السيد المسيح عايش لاتهموه بالشيوعية وسجنوه!

وفي اليوم التالي طلبت السيدة أنس جبريال حنا الانضمام لحدتو واختارت «صفية» اسمًا حزبيًا لها اعتزازًا بدور صفية زغلول، وعملت في جهاز الاتصال الذي يعد أكثر أجهزة المنظمة حساسية ويتطلب السرية الشديدة والذكاء.

وعندما تمت الوحدة بين المنظمات المختلفة أعدت الرفيقة صفية عريان «تورتة» على شكل المنجل والمطرقة منقوشاً عليها: الحزب الشيوعى المصرى الواحد ٨ يناير ١٩٥٨. وفى تجريدة يناير ١٩٥٩ يهرب عريان نصيف من القبض عليه فتعتقل المباحث والده وشقيقته الصغرى حتى يسلم نفسه. أصيبت شقيقته بانهيار عصبى حاد فأفرج عنها فى اليوم التالى، بينما أخذوا الأب فى نزهة طويلة بين أقسام بوليس طنطا والإسكندرية والقاهرة (كعب داير)، وبسبب ما تعرض له من إهانات أصيب بالشلل.

ومع ذلك صمدت الرفيقة صفية وظلت على موقفها. وعندما قبض على ابنها قامت بدور قيادى فى جبهة العائلات التى تشكلت من أمهات الشيوعيين لمساندتهم فى السجون والمعتقلات المختلفة بما فى ذلك معتقل المحاريق الذى كانت تزوره مرة كل شهر حاملة معها أكبر كمية ممكنة من الأدوية.

أما السيدة بديعة مصطفى عبده أم الرفيقين محمد ومصطفى عباس (من حدتو أيضاً)، فقد وقفت وراء ابنيها منذ قبض عليهما للمرة الأولى فى يوليو ١٩٤٩ وحتى تجريدة يناير ١٩٥٩ مقتنعة بموقفهما وساندتهما، مثلها مثل زكية أحمد حسين أم أحمد ومحمود العطار، فكلاهما كان مناضلاً، وكذلك السيدة نور أم محمد وميسور والسيد مصطفى شعراوى، والأربعة شيوعيون (فيما بعد تزوجت إحدى بناتها من شيوعى أيضاً!) وأم نسيم يوسف والسيدة مفيدة بطرس أم نبيل زكى والسيدة إلين السندى أم فخرى لبيب وزوجات وشقيقات أخريات شكلن جبهة العائلات لمساندة أبنائهن وأزواجهن بكل الأشكال: برقيات الاحتجاج والمسيرات والمظاهرات والزيارات وتوفير الأدوية والاحتجاجات المختلفة.

سوف أتوقف قليلاً عند الرفيقة أوديت (السيدة مرتا عازر يوسف) أم نسيم يوسف التى اكتشفت طريق ابنها مبكراً وتعاطفت معه. كانت تشاركه فى إخفاء الأوراق التنظيمية، وعندما يقبض عليه كانت هى الوسيط بينه وبين رفاقه فى الخارج فى تهريب الأوراق والبيانات. وفى إحدى المرات التى زارت فيها نسيم اصطحبت معها نبيل زكى باعتباره ابنها وديع وكأنه جاء معها ليزور أخاه، وجلسا معاً فى الزيارة يتهامسان بأخبار المنظمة خارج وداخل السجن. وفى عام ١٩٥٧ أبلغها حلمى ياسين أن اللجنة المركزية لحزب العمال والفلاحين الشيوعى المصرى وافقت على عضويتها بالحزب، فاختارت أوديت اسماً حزبياً لها. وبعد تجريدة ١٩٥٩ علمت أن ابنها ومجموعة من الرفاق فى أوردى أبى زعبل والزيارة ممنوعة. فتفتق ذهنها عن حيلة لمعرفة أخباره والاطمئنان عليه. حملت «صرة» كبيرة على رأسها ومضت إلى «عزبة السجانة» التى تسكن فيها أسر سجانة الأوردى القريب. كانت الصرة تضم ملابس وأقمشة وطرحاً ومناديل رأس وأغراضاً مختلفة، ومثلت دورها بإتقان باعتبارها دلالة تبيع بالتقسيط، وجلست فى طرقات العزبة تعرض بضاعتها على زوجات وبنات السجانة، وسألت عما يحتجنه لتأتى به لهن فى المرة القادمة، وفى الوقت نفسه تعرفت على جغرافية المنطقة، وتمكنت من معرفة موقع الأوردى بالضبط. وعندما عادت بعد أيام قليلة يوم عيد الأم ٢١ مارس ١٩٦٠ إلى عزبة السجانة كانت تحمل على رأسها صرة خالية إلا من أشياء قليلة، فالتف حولها النساء يسألنها عما كن قد طلبنه منها، فأجابتهن أنها صادفت فى الطريق من اشترى منها ما تحمله ووعدتهن أن تأتى بطلباتهن فى مرة قادمة، وبعد أن تركت العزبة سارت فى اتجاه الأوردى علها تلمح ابنها، إلا أن أحد الحراس شاهدها من أعلى البرج، وشعرت هى بحركة ما فى اتجاهها فبادرت بالفرار. وفى أبريل ١٩٦٢ ألقى القبض عليها وقضت ثلاثة أيام فى زنزانة المباحث العامة قبل أن يحقق معها، ثم يضطر وكيل النيابة للإفراج عنها.

وبعد خروج معتقلى معسكر المحاريق سألها أحد قيادات الحزب إذا كانت توافق على عقد اجتماعات اللجنة المركزية فى بيتها، رحبت بالطبع وأمنت الاجتماع، ثم شهد بيتها فى ٨ يناير ١٩٦٥ احتفالية تأسيس الحزب التى حضرها أكثر من ٣٠ رفيقاً..

وبعد ذلك وعندما بدأ الكلام يتردد حول حل الحزب سألها الرفيق نفسه الذى كان قد طلب منها عقد اجتماع اللجنة المركزية فى بيتها، سألها عما إذا كان ممكناً عقد اجتماع آخر للمؤتمر الذى سيناقش حل الحزب، رفضت على الفور وأجابت فى حدة:

ـ البيت الذى شهد وحدة الشيوعيين ووحدة الحزب لا يمكن أن يكون البيت الذى يناقش فيه حل الحزب. ❊

كتاب الزاوية

الحصاد الأليم (١)

عادل حسين

فى فبراير سنة ١٩٧٦ نشر أن البنك الأهلى فقد ١٠٠ من خيرة العاملين. وبنك مصر فقد ٥٠ من أكفأ كوادره.. استقالوا ليعملوا فى البنوك الأمريكية.. وفى نهاية العام، سجل تقريرٌ رسمىٌّ (غير منشور) للبنك المركزى المصرى تقييماً عاماً لما تحقق، فقال: إن «هذه البنوك (الأجنبية) بدلاً من أن تصبح مركز (جذب) الأموال إلى مصر، تحولت إلى مراكز (طرد) إلى الخارج».

وأثبت التقرير مسألة أن هذه البنوك، عملت على استنزاف الخبرات المصرية، وأوضح أنه على الرغم من انقضاء ما يقرب من عام ونصف على ممارسة بعض هذه البنوك لنشاطها فى مصر، إلا أنها لم تحققْ نتائجَ لها وزنُها فى مجال جذب رءوس الأموال من أسواق النقد العالمية، وإنما اعتمدت أساساً على مواردها الذاتية، وعلى الموارد المتاحة من السوق المحلية، بل شاركت بنوك القطاع العام التجارية فى الاحتفاظ بمدخرات المصريين، وودائع بضع شركات من القطاع العام من العملات الأجنبية. ولم تأخذ هذه البنوك دورها بعد فى تمويل مشروعات التنمية الاقتصادية فى البلاد.

صحيح أن البنوك المشتركة فى مراحلها الأولى، ومعدلات النمو فى السنة الأولى لا يُقاس عليها: (لأن الزيادات تُنسب فى هذه الحالة إلى أرقام البداية المحدودة)، ولكن حتى إذا أخذنا فى الاعتبار، تظلُّ معدلات النمو فى البنوك المشتركة خطيرة الدلالة، خاصة ومعدل النمو المقابل فى البنوك التجارية التابعة للقطاع العام، يكاد يكون صفراً.

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك، وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

ثانية واحدة من الرعب

أحمد بهجت

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١٦١صفحة



كتب المؤلف هذه المجموعة من القصص فى الستينيات والسبعينيات من القرن الماضى، وبحسب ما يرد فى تقديمه لها، فإنها متأثرة بأسلوب تشيكوف. أبطالها محبطون، يعيشون حالة من البؤس الإنسانى لا يدرون له سببا، هم ضحايا ظروف قاهرة لا يملكون منها فكاكا. صاغها المؤلف فى أسلوب ساخر، وكثير من القصص تقترب حواراتها من لغة الحياة اليومية. نقرأ مثلا فى «اكتشاف أثرى خطير» حكاية السيدة سعيدة مسعد، والحكاية تدور عام ٢٠٠٠، أى قبل ما يزيد على ربع قرن من زمان كتابتها، وفيها أن الدنيا قامت ولم تقعد لأن تاكسيا توقف للسيدة سعيدة مسعد. بدأت الصحف تكتب، والمحللون الاجتماعيون والنفسيون والمروريون يحللون الحدث الذى كان فارقا ومدهشا فى ذلك الوقت، وبعد أن أدلى كل طرف بدلوه، اتضح فى نهاية المطاف أن سائق التاكسى أشعل سيجارة انزلقت منه حتى كادت أن تحرق قدمه فاضطر للتوقف، وفى هذه اللحظة فتحت السيدة باب السيارة ودخلت. وتم إقفال المحضر باعتبار أن الحادث الذى جرى كان قضاء وقدرا.

وفى «يوم القيامة» نلمح هذا الرعب الذى حاق بمعلم القهوة بعدما نشرت الصحف عن اقتراب يوم القيامة، ونتابع أيضا كيف تعامل زبائن المقهى مع الخبر، فهناك من قرر ألا يدفع إيجار شقته أو يسدد فواتير الكهرباء، وهناك من قرر أن يسترد ودائعه لدى الناس، وهناك من بدأ بالتمنين فى خزانة ذنوبه، غير أن زبونا واحدا هو الأسطى حسين كان الأكثر حذقا من الباقين، قال لهم: خايفين ليه ما تقوم القيامة، هى الجرايد بتكتب والهنادوه بيصلوا والعالم سيت فى جلده. إنما ما هياش قديمة، كلنا حنشرب المقلب ولا هياش قايمة، بكره تشوفوا وتقولوا الأسطى حسين قالها، ده كلام جرايد يا عم.

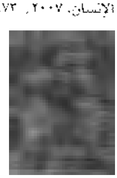
وفى قصة أخرى تحمل عنوان «مؤتمر الشياطين الهربين» يقدم المؤلف سيلا من النقد لأوضاع الناس وسلوكياتهم فى ذلك الزمن، وقدرتهم الفذة على الغش والخداع والتدليس، حتى أن الشياطين المسلطة عليهم والموكول لها من قبل إبليس إغراؤهم بارتكاب الذنوب، لم يستطيعوا التأثير فيهم وقرروا أن يأخذوا إجازات بدون مرتب، لأن البنى آدمين تفوقوا عليهم فى شرورهم، ولم يعد لديهم -أى الشياطين- ما يمكنهم عمله.

كما تحضر اللغة الساخرة فى القصة التى تحمل عنوان «عينيها بتطق شرار» وهى سخرية نابعة من المفارقة وسوء الفهم، اللذين جعلا حسن صاحب الحمار يتصور أن السائحة حين نظرت إليه وألقت بنفسها فى أحضانه لم تكن ترغبه هو، إنما كانت تريد أن تضربه، وتسرق الحمار.

الأديان وحرية التعبير

مجموعة من الباحثين

القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٧، ١٧٣صفحة



يضم الكتاب حصاد المحطة الثانية من محطات برنامج الحوار المصرى الدانماركى، على خلفية الأزمة التى أثارها أحد الرسامين الدانماركيين واتهم فيها بالإساءة إلى الرسول الكريم، وهى المحطة التى عقدت فى الفترة من ٦ إلى ٨ ديسمبر ٢٠٠٦، وشارك فيها عدد من الصحفيين والباحثين والفنانين من الجانبين. ويتضمن الكتاب ثلاثة فصول، يدور الأول منها حول محور إشكالية حرية الرأى والتعبير فى أزمة الرسوم الدانماركية، ويستعرض عددا من وجهات النظر المتباينة فى هذا الإطار، فيقدم بهى الدين حسن قراءة فى أسباب التوتر المزمن بين المسلمين والغرب، ويعرض رضوان زيادة رؤيته حول حدود حرية الرأى والتعبير، ينتهى فيها إلى أن ما قامت به صحيفة «يولاندز بوست» الدانماركية خرج من حدود حرية الرأى والتعبير إلى الإساءة، ويقدم المعهد الدانماركى لحقوق الإنسان دراسة حول حرية التعبير من واقع أزمة الرسوم، ويحلل خالد صلاح الدوافع وراء نشر الصحيفة الدانماركية للرسوم، وأوجه الاتفاق بينها وبين دوافع الصحف المصرية فى تغطيتها للأزمة.

ويتناول الفصل الثانى إشكالية حرية الرأى والتعبير والأديان فى مصر، حيث يتناول الوصاية الدينية على حرية الإبداع الأدبى والفنى والحرية الأكاديمية، من خلال قراءة محمود الوردانى لأزمة رواية نجيب محفوظ «أولاد حارتنا»، وتحليل حلمى سالم للأسباب التى جعلت الشعر دوما محل اتهام، كما يقدم صلاح عيسى انتقاداته لأسباب مصادرة فيلم «المهاجر» بحكم قضائى، ويستعرض حافظ أبوسعدة دور الأزهر فى الرقابة على الأعمال الفنية والأدبية، ويتناول سامح فوزى الكيفية التى يجرى بها تناول العقيدة المسيحية فى وسائل الإعلام ومناهج التعليم المصرية، ويعرض عددا من النماذج التى يرى فيها تجنيا على التطرف وطعنا فى العقيدة المسيحية. وفى الفصل الثالث يقدم المستشار هشام البسطويسى قراءة فى حرية الصحافة وضوابطها فى قضاء محكمة النقض، وكيفية تعامل القضاة مع النصوص الجائرة، ويتعرض أن ويبرز السوابق القضائية للمحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان حول المادة ١٠ من الاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان ذات الصلة بمكافحة العنصرية والتعصب.

السيارات المفخخة.. التاريخ السرى

مايك دافيس

ترجمة: فاطمة نصر

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٧، ٢٦٨صفحة



يتابع الكتاب التاريخ السرى للعمليات الإرهابية باستخدام المتفجرات والسيارات المفخخة، وهو يبدأ بالتفجير الذى قام به مايك بودا فى شارع وول ستريت، احتجاجا على اعتقال السلطات لرفقائه وإبقائهم فى السجون، وكانوا قلة ذات توجهات سياسية مناهضة لم ترحب بها الحكومة الأمريكية، وكانت الحصيلة ٤٠ قتيلا وأكثر من ٢٠٠ مصاب، وهكذا، تمكن مهاجر إيطالى فقير من أن يحدث رعبا غير مسبوق فى أحد أقداس الرأسمالية الأمريكية، باستخدام بعض أصابع الديناميت وكومة من المعادن الخردة وعربة كارو حصانها مسروق. وكانت هذه هى بوابة استخدام العربات المفخخة، إذ استخدمت عصابات شتيرن الصهيونية أسلوب تفجير الشاحنات والسيارات ذاته، لقتل الآلاف من الفلسطينيين بدءا من أوائل الأربعينيات.

ويشير المؤلف إلى أن الجهاديين فى معسكرات القاعدة فى أفغانستان، كانوا يدرسون بدأب كتاب «الثورة» الذى ألفه مناحم بيجن، والذى يحكى فيه عن ذكرياته فى عصابة الأراجون الصهيونية الشهيرة.

يتابع المؤلف بعد ذلك العديد من الانفجارات التى شهدتها مناطق الصراعات الساخنة فى أوروبا وأمريكا ومنطقة الشرق الأوسط، والتى كانت السيارات المفخخة هى أداتها الأساسية، وقد جرت هذه التفجيرات على خلفيات سياسية أحيانا، ولأسباب اجتماعية وطائفية فى بعض الأحيان، ويقول إنه بعد القدس فى ١٩٤٨ وسايجون فى ١٩٥٢، كانت نيقوسيا منذ منتصف الخمسينيات هى الوجهة المنطقية لقنابل السيارات، أثناء حملة اليونانيين القبارصة الدموية لطرد البريطانيين، ثم كان الظهور التالى لقنبلة السيارات فى باليرمو الإيطالية، والتى شهدت سلسلة من التفجيرات مع تصاعد حروب المافيا الأهلية، حتى أواسط الستينيات، وهى السنوات التى شهدت أيضا تفجيرات متعددة بالأسلوب ذاته فى عدة أهداف بالولايات المتحدة الأمريكية، ومع بداية السبعينيات كان الجيش الجمهورى الأيرلندى قد أضحى صداعا مزمنا فى رأس بريطانيا وكانت تفجيرات لندن فى ١٩٧٢ هى ذروته آنذاك، فإذا وصلنا إلى الثمانينيات، صارت بيروت هى نجم هذا النوع من التفجيرات، خصوصا مع تشعب الصراعات بين طوائفها وأحزابها وقبائلها ومصالح أفرادها، واللاعبين الداخليين والخارجيين فيها، فى هذه الأثناء أيضا كانت ثمة تفجيرات تجرى فى اليابان وفى إسبانيا وفرنسا والسلفادور وكولومبيا وبيرو، لأسباب انفصالية واجتماعية، حتى وصلنا إلى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وكانت الذروة التى شاهدها العالم كله على الهواء مباشرة، تفجير برجى التجارة العالمى وضرب البنتاجون، وبحسب أحد الخبراء، فإن قنبلة السيارات صارت هى السلاح النووى لحرب العصابات.

تركيا.. البحث عن مستقبل

ياسر أحمد حسن

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧، ٢٥٤ صفحة



عاش المؤلف فى العاصمة التركية

«الفترة»، ٤ سنوات، وكان قريباً من أحداث كثيرة رآها رأي العين، ومن ثم فإن دراسته تلك وإن سعت إلى أن تكون موضوعية أو أكاديمية، خصوصاً في الجانب التاريخي منها، فإنها باعترافه لم تخل من الانطباعية التي تميز أعمال من يكتبون من واقع خبراتهم الشخصية.

قسم المؤلف دراسته إلى سبعة أبواب، بدأها بباب تاريخي عن تركيا من الإمبراطورية إلى الجمهورية، يستعرض فيها نشأة الدولة العثمانية، وظهور الأتراك بقوة على مسرح السياسة العالمية، والإصلاحات التي قام بها السلطان محمود الثاني عسكرياً ومدنياً، ثم صدور فرمان التنظيمات الشهير في عهد السلطان عبدالمجيد الثاني، والذي اعتبر بداية لعصر جديد انفتحت فيه تركيا على الغرب، وانبعثت قومية تركية جديدة، وبداية التيارات الفكرية المتناقضة، والتي ظهرت في شكل «روابط» مثل: الرابطة العثمانية والرابطة الإسلامية والرابطة التركية، وبشكل عام فقد تمخض الصراع بين هذه الاتجاهات، والإصلاحات التي جرت في أواخر الدولة العثمانية، عن ظهور الجمهورية الكمالية في ١٩٢٣، التي استبعدت تماماً الرابطة الإسلامية، وأكدت علمانية تركيا، وحلت الجمهورية محل الإمبراطورية وبدأت النخبة العسكرية تلعب دوراً أكبر في توجيه سياسات الدولة الجديدة.

ومنذ وفاة مصطفى كمال أتاتورك عام ٣٨، بدأت محاولات أصحاب الاتجاهات المحافظة في الظهور من جديد، واستعادة المساحة التي انتزعتها الدولة الكمالية منهم، وبدا أن الإسلام السياسي يستعد لاستعادة دور افتقده في سنوات تأسيس الجمهورية الكمالية، مستفيداً من التوجهات الليبرالية التي أطلقها عصمت إينونو خليفة أتاتورك، وحين تولى عدنان مندريس رئاسة الحكومة لمدة عقد كامل (١٩٥٠ - ١٩٦٠) قبل أن يستولي الجيش على السلطة في ٢٧ مايو ١٩٦٠ في أول انقلاب عسكري في تاريخ الجمهورية، فتح آفاقاً جديدة للمخزون الروحي الإسلامي الكامن في أعماق الأتراك، وبدا أن هناك صلحاً بين الجمهورية التركية والهوية الدينية للمجتمع التركي التي تصور بعضهم أنها ماتت، واستعاد المدنيون السلطة أو بالأحرى أعادها الجيش إليهم، وظهر في الصورة حزب العدالة الذي اعتبر نفسه امتداداً للحزب الديمقراطي الذي أسسه مندريس، وصار رئيسه سليمان ديميريل رئيساً للوزراء في ١٩٦٥، وقد رفض ديميريل أن يخوض نجم الدين أربكان الانتخابات على قائمة حزبه فخاضها مستقلاً ونجح، وهو ما دفعه إلى تأسيس حزب النظام الوطني عام ١٩٧٠، وبرغم حظر هذا الحزب بحكم من المحكمة الدستورية، فإن ظهوره كان بداية حاسمة لتاريخ جديد في تركيا يؤذن بصعود تيار الإسلام السياسي، لتبدأ تحولات مرحلتي الثمانينيات والتسعينيات، واللتين شهدتا نمواً متزايداً للمجتمع المدني وللإسلام السياسي في آن معاً، وظهور أحزاب الرفاه ثم العدالة والتنمية، وصولاً إلى رجب طيب أردوجان وما يجري في تركيا اليوم.

*

حكايات عن ناس طيبين

سعيد الكفراوي

القاهرة: دار العين، ٢٠٠٧، ٢٤٢ صفحة



هذه حكايات عن ناس وأماكن، وجوه تعلق بها المؤلف وأحبها وعاش معها ذكريات حلوة ومرة، يعبر عنها هنا بأسلوبه الذي لا يخلو من شاعرية قاص، وسردية شاعر، يقول هو: أنهم ناس طيبون مروا بي يوماً ومضوا، وأنا أقف على رصيف الأيام أرقبهم لعلي في مرورهم أحصل منهم على شفاء لروحي، وعزاء لخيبات الرجاء المقيمة.

هكذا تطالعنا وجوه أم كلثوم ونجيب محفوظ ومحمد مستجاب وعدلي رزق الله وحلمي التوني ومحمد عفيفي مطر ويحيى حقي وألفريد فرج وغيرهم، كما تطالعك وجوه لبسطاء قادمين من الموالد والقص الشعبي واحتفاليات القرى بمشايخها وأبطالها الأسطوريين، وأماكن شهدت سجالات وانتفاضات وانقلابات فكرية وندوات أدبية: مقهى ريش وكازينو قصر النيل وشارع محمد علي ومعهد الموسيقى العربية وقرى الدلتا والصعيد.

اقرأ في «حكايات عن نجيب محفوظ» ذلك التشبيب الذي يصل حد الوله بأم كلثوم، والذي تبدى حين هاجم المؤلف والشاعر محمد عفيفي مطر كوكب الشرق، ونسبا إليها وإلى غنائها ما جرى في يونيو ١٩٦٧، باعتبار هذا الغناء نوعاً من التخدير لهمة الشعب، فإذا بنجيب محفوظ يصمت ولا يشارك في الحديث في ندوته التي اعتاد أن يقيمها في كازينو قصر النيل، ثم ينظر في ساعته وينهض، ومن على الرصيف المقابل ينادي المؤلف ويحذره، في مشهد يصفه المؤلف على هذا النحو:

قبض على ياقة قميصي وهزني بعنف وقال لي بصوت متهدج بالغضب: اسمع، إياك أنت وعفيفي مطر تشتموا أم كلثوم قدامي مرة ثانية، فاهم ياكفراوي، وجذب قميصي جذبة غاضبة وتركني ومضى.

يحكي المؤلف أيضاً عن بداياته الأولى، ولقائه بصاحب القنديل يحيى حقي، الذي كان وقتها رئيساً لتحرير مجلة «المجلة»، التي قدمت عشرات من المبدعين وكتاب القصة، كيف استقبله يحيى حقي وقد كان - المؤلف - لايزال بعد فتى ريفياً تتعثر خطواته تحت مصابيح العاصمة، فإذا بالكاتب الكبير يبعث الطمأنينة في نفسه ويطمئنه على أصالة موهبته.

وعبر مقالته عن مقهى ريش، نكتشف ما جرى في مصر منذ حقبة السبعينيات إلى اليوم، تحولات هائلة أطاحت بطموحات وقيم كبرى، وأفسحت مجالاً لزمن آخر سادت مفاهيمه وعربدت حتى طغت، يقول المؤلف: عاد المقهى ببريقه، ولكن زمنه لم يعد، هجره رواده واحتكره زمن الانفتاح البغيض فيما هجره كتابه وفنانوه، هؤلاء الذين صنعوا بهجته يوماً، وأطلقوا في تاريخ مصر علامة على زمن، وأحداث ربما لن تعود أبداً.

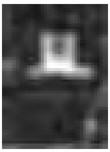
وفي فصل أم كلثوم، تاريخ من الغناء والفن الجميل، وسرد لعلاقة الفنانة الكبيرة بملحن أغنياتها وشعرائها الأثيرين، هكذا يرى المؤلف الوجوه التي أحبها، عنواناً لزمن وتلخيصاً لمرحلة.

*

الملك فاروق في الأدب المصري

مصطفى بيومي

القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠٧، ١٢٧ صفحة



عبر دراسة أعمال عدد من الأدباء المصريين ينتمون إلى أجيال مختلفة، يرصد المؤلف صورة الملك فاروق، يدرس المؤلف نماذج من أعمال نجيب محفوظ ويوسف إدريس وإحسان عبدالقدوس وفتحي غانم وسليمان فياض وصنع الله إبراهيم وبهاء طاهر وجميل عطية إبراهيم ويوسف السباعي وحسنين عبدالحليم وإبراهيم عبدالمجيد.

وتتفاوت صورة الملك فاروق في أعمال هؤلاء طبقاً للموقف الفكري والسياسي لكل منهم، وهو ما أشار إليه عمرو عبدالسميع في مقدمة الكتاب، ففاروق في أعمال يوسف إدريس مثلاً، قاتل ورئيس عصابة، كما أن «الأعمال الأولى ليوسف إدريس تعكس شدة الدرجة من العداء للملك، الذي يوصف بأنه طاغية ومتسلط، وهو عند فتحي غانم إنسان يمكن أن يدان دون المساس بوضعيته كملك ورمز سياسي، فهو ليس ملكاً فاسداً منحلاً متسلطاً، لكنه إنسان شرير فاسد الأخلاق، أي أن فتحي غانم ينتصر للصورة الإنسانية غير السوية لفاروق دون التورط في الإدانة الرخيصة التي تقدمه ملكاً بلا ملامح إنسانية.

أما نجيب محفوظ الذي كان وفدياً صميماً، فإن أبطال روايته يدافعون عن الزعامات الوفدية في مواجهة تعنت الملك وألاعيبه التي حرمت الوفد من الوصول إلى الحكم، وهو ما كان يستحقه بوصفه حزب الأغلبية الشعبية. لكن محفوظ لا يتردد في أن يورد على لسان كاتب وفدي يدعى السلهوبي جملة في رواية «السمان والخريف» هي بمثابة نبوءة، إذ اعتبر النائب الوفدي أن سقوط الملك على أيدي ضباط يوليو، كان سقوطاً لكل شيء، أي لكل ما مثله عصر الملك فاروق من تعددية وأحزاب بما فيها الوفد نفسه. وأما يوسف السباعي فقد كان عداؤه سافراً للملك، ورفضاً لما مثلته أحزاب ما قبل الثورة بما فيها حزب الوفد نفسه، وكانت روايته «رد قلبي» أبلغ تعبير عن هذا التوجه.

وقد انفرد إحسان عبدالقدوس، حسب ما يقول المؤلف، بكراهيته للملك والوفد والثورة جميعاً، وإن كان المؤلف يعيب على روايات عبدالقدوس التي تعاملت مع هذه المسألة، الإنشائية التي خلت من ملامح إبداعية حقيقية.

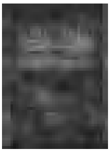
وبصفة عامة، فإن الاستنتاج الأبرز الذي يخرج به قارئ الكتاب، هو أننا بحاجة إلى نظرة أخرى لتاريخنا، فالملك فاروق لم يكن شراً مطلقاً، كما أن الذين أقصوه وطردوه، لم يكونوا من الأطهار الأنقياء.

*

رؤى إسرائيلية

رشاد عبدالله الشامي

القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠٧، ١٦٥ صفحة



شجع انفتاح آفاق الدراسات النقدية لأسفار العهد القديم في القرن التاسع عشر، العلماء من المسيحيين واليهود في دول غرب أوروبا، على إنجاز عدد كبير من الدراسات والأبحاث، التي اقتربت من قضايا إشكالية عديدة تحفل بها قصص التوراة، اعتباراً من قصة الخلق ثم الطوفان والبدايات الأولى لنشأة الشعب العبري، والتي يؤرخ لها بهجرة إبراهيم إلى أرض كنعان، ثم قصة إقامة بني إسرائيل في مصر وخروجهم منها إلى أرض سيناء والتيه فيها مدة أربعين عاماً، ثم دخولهم أرض كنعان وما واكب هذا الدخول من عمليات غزو وقتل وتدمير وإبادة للشعب الكنعاني.

هذه التفاصيل جميعها من أكثر النصوص إثارة وغموضاً في تاريخ بني إسرائيل في العصور القديمة، وهي ما

يناقشه المؤلف الذي يدخل في غمار هذه الإشكاليات على المستويين التاريخي والديني، ويناقش أطروحات العلماء والأكاديميين الإسرائيليين حولها.

في الجزء الأول من الكتاب والذي يحمل عنوان «قضايا إشكالية في التاريخ اليهودي القديم» يقدم المؤلف عدداً من الدراسات التي كتبها علماء يهود متخصصون في علوم العهد القديم والتاريخ اليهودي القديم، وتدور جميعها حول قصة خروج بني اسرائيل من مصر، إضافة إلى قضايا أخرى.

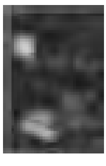
وفي الجزء الثاني الذي يحمل عنوان «قضايا إشكالية في الفكر الديني اليهودي» يناقش المؤلف عدداً من دراسات العلماء الإسرائيليين في الفكر الديني اليهودي، حيث يتناول حزمة من هذه القضايا، بدءاً من إشكالية تفضيل اليهود لحياة الشتات، والفروق عن الإقامة فيما يسمى أرض الميعاد، وإشكالية تدوين التوراة، ومدى صحة الوقائع الواردة عن غزو أرض كنعان في سفر يشوع، ثم التطرق للمقارنة بين تصور العلاقة بين الله والإنسان، من خلال الرؤية اليهودية المتجسدة في سفر أيوب، والرؤية اليونانية المتجسده في كتاب السياسة لأفلاطون، ثم الانتقال إلى رؤية تفسيرية معاصرة من خلال الفكر الوجودي لقصة «سدوم وعمورة»، ثم لسفر يونان (يونس)، كما يقدم سرداً وثائقياً لأسماء المستوطنات الصهيونية في القدس وفي الضفة الغربية وغزة، وفقاً لأسماء وفقرات وردت في أسفار العهد القديم.

*

من أمهات الكتب

نذير جزماتي

دمشق: نور للطباعة والنشر، ٢٠٠٧، ٢٧٠ صفحة



يقدم هذا الكتاب قراءات في الكتب العربية والمترجمة، لناعوم تشومسكي ودلال البزري ومنصف السليمي وعماد صباغ وعبدالعزيز حمودة وإمام عبدالفتاح إمام وعبدالستار إبراهيم وآخرين، ولا يحظى بعرض مسهب سوى كتاب ناعوم تشومسكي فقط. أما بقية الكتب، فيقدم لها المؤلف عروضاً مختصرة وأحياناً قراءة سريعة تستعرض المحتوى فقط، وبشكل عام، يغيب البعد النقدي عن هذه القراءات التي يمكن اعتبارها فحسب دليلاً إرشادياً للقارئ كي يختار بينها ما يهوى قراءته، وإن كانت العروض حتى بهذه الطريقة تفتح آفاقاً لحوارات حول أفكار أساسية مهمة تضمها هذه الكتب.

مثلاً تطرح دلال البزري في كتابها «جرامشي في الديوانية في محل من الإعراب» إشكاليات عدة فيما يتصل بموضوع التحديث منها قصور النظر العربي عن الإحاطة بموضوعاته محل النظر، وانهزام مثقفينا أمام إشكالية الدين والدولة، وهي تشير إلى أن مجتمعاتنا تحتاج إلى مقاربة مختلفة عن مقاربة التقليد/ التحديث، وأما كتاب عبدالعزيز حمودة «المرايا المحدبة» فقد تضمن نسفاً لعديد من الاتجاهات النقدية الحديثة، وعاب على النقاد والأكاديميين استخدام هذه المصطلحات دونما تريث، وبرأيه فإن البنيوية والتفكيكية، ابنتان شرعيتان للحضارة الغربية ومن الخطأ فرضهما على المجتمع العربي، لأن الحداثة الغربية هي نتاج واقع يختلف عن الحداثة العربية، ورأى أن فشل البنيوية الجوهري تمثل في قدرتها المكتسبة على تحقيق تحليل لغوي بنائي للنص مع فشل كامل في بنية النص، أما النقد التفكيكي فهو رقص على الأجناب، حيث يرقص الناقد والنص الأدبي في حركة مراوغة مستمرة، يهتز كل منهما على الجانب المعاكس من جانب رفيقه، والتفكيكية باعتبارها صيغة لنظرية النص والتحليل، تخرب كل شيء في التقاليد، وتشكك في الأفكار الموروثة عن اللغة والنص والسياق والمؤلف والقارئ والتاريخ وأشكال الكتابة النقدية، ويرتبط التفكيك سياسياً بتراجع اليسار وصعود نجم اليمين المحافظ في قلب أوروبا الثقافي وهو فرنسا.

بهذه الطريقة قرأ المؤلف عدداً من الكتب وقدم أفكارها الأساسية، في السياسة والثقافة والاجتماع والأدب.

*

الصيف الطويل

براين فاغان

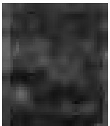
ترجمة: مصطفى فهمي

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٧، ٢٥٥صفحة



المعنى الذي يؤكده المؤلف هنا وهو في الأصل عالم إنسانيات وآثار، هو أن للمناخ تأثيراً حاسماً في صنع الحضارة، جرى ذلك منذ فجر التاريخ، مع العصور الجليدية الأولى، إذ كان الإنسان دائماً يتحرك، حيث اعتدال المناخ وتوفر الأمطار والظروف الملائمة للزراعة، وقد كانت هذه هي العوامل الأولية التي ساهمت في نشأة

رواية من الواقع العربي



لماذا فقد حورس عينه

ميرفت عبدالناصر

دار شرقيات، ٢٠٠٧

منذ أربعة آلاف عام كتب سنوحي تجربته عن الغربة، وعن هذه القصة كتب الروائي الفنلندي (ميكا والتاري) روايته (المصري) وتُرجمت إلى معظم لغات العالم، وعنها أيضاً أنتجت هوليوود فيلماً لم يرق إلى مستوى الرواية. ترى الباحثة أن قصة سنوحي الذي صاغها شعراً هي ملحمة عن تجربة شخصية، وأنها أول عمل أدبي في التاريخ يتناول الغربة والاغتراب، سنوحي يطرح معاني العودة للوطن، وعلاقة الإنسان بالمكان، والهروب من جغرافية ذاتية ليعيد اكتشافها. إنها رحلة الذات في بحثها الدائم عن الذات من أجل تحقيق الذات، إنها الذات القومية وليست الشخصية. ترى د. مرفت أن سنوحي طرح الصراع بين «الآسيوية والأفريقية» وأن مصر تنتمي إلى أفريقيا خاصة وأن كلمة (الآسيوية) تتكرر كثيراً «كناية عن الخطر لا سيما الشعور بالعدوانية والاضطهاد».

وعن فلسفة الوجود والعدم كتبت د. مرفت أن الـ(با) المصرية هي صورة طائر يحمل رأس إنسان قال المصري عنها إنها «الروح الطليقة» وأن فرويد استوحى بنيته الشهيرة للنفس البشرية من مصر، وكان مبهوراً بمصر القديمة، وكان يكتب وأمامه تمثال (بتاح) الذي تنص فلسفته في الخلق على الدور الإبداعي للفكرة وللكلمة، وعندما هرب من النازية وترك فيينا إلى لندن كتب لأحد أصدقائه «لقد وصل أصدقائي المصريون» وصلوا بسلام، وكان يقصد مجموعة التماثيل المصرية. هذا الإعجاب بمصر لم يحجب عن الباحثة الخطأ الذي وقع فيه فرويد، حيث إنه عندما صاغ نظريته عن الوعي واللاوعي... إلخ، فإنه رغم إدراكه لمعنى الـ(با) والـ(كا) المصريتين، فإنه نسب ذلك للإغريق وليس للمصريين، حيث استخدم لفظ الروح (سيكي) من عمل التنفس الإغريقية.

وعن إيمحوتب (أي الذي يأتي في سلام) قال عنه مايكل رايس إنه المؤسس الحقيقي للحضارة المصرية، وقال عنه لورد كلارك إنه أول من أدرك المعنى الحقيقي للخلود، وإذ يرتبط الخلود بالبناء، كان إيمحوتب أول من تعامل مع الحجر، فصنع منه أول بناء حجري في التاريخ (هرم سقارة) وبذلك كان أول المعماريين، ولذلك وصفه جون راي بأنه أول «ليوناردو دافنشي عرفه التاريخ فهو أول فنان يتبع أسلوباً علمياً في التجريب، وهو أول من فكر في قياس النيل، وهو أبوالطب، وارتبط اسمه بعدة آلهة كان أشهرهم تحوت الذي أعاد لحورس عينه، وهي نفس العين التي اتخذها الطبيب لتكون علامة البدء في كتابة روشتة العلاج والمستخدمة حتى الآن، واعترف فرويد بدور إيمحوتب في العلاج النفسي. وتشير د. مرفت إلى المبادئ الأخلاقية التي وضعها إيمحوتب لممارسة الطب، وبالتالي يكون هو، وليس أبوقراط، أول من سن القانون الأخلاقي لمهنة الطب، ومن حقه علينا أن يكون اسم (القسم) هو إيمحوتب وليس أبوقراط.

دخلت د. مرفت بيتها الريفي في إنجلترا، وجدت فوضى غير مفهومة، لا توجد سرقة، ولكن مقتنياتها المحببة إليها في غير مكانها، فمن هو الزائر الغريب؟! إنه عصفور ميت وجدته ملفوفاً بـ(إيشارب) يحمل الرموز التي استعان بها المصري في كتابة لغته، وأن هذه الرموز معظمها من عالم الطيور، هكذا تلضم الباحثة التاريخ بالواقع، الفكر بالعاطفة.

وعن فلسفة (سيا) كتبت أنها تعني البصيرة والمعرفة الكلية، ومن مكوناتها كلمة (ريخ) أي تقنية المعرفة ومنها تم اشتقاق كلمة تاريخ وتأريخ، ورغم ذلك فإن رع يحذر تحوت من مخاطر الكلمة المكتوبة وقال له أخشى أن يظن الناس أن المعرفة تأتي فقط من الكتب، وتوصل المصري إلى الـ(جيكا) أي ملكة الحدس، وأن فرويد وبروست اهتما بمفهوم (الجيكا المصري) وفي قراءة جديدة لأسطورة فقد حورس لعينه ثم استعادتها كتبت أن (ست) رمز المعرفة الأحادية المتآمرة، وأن حورس رمز المعرفة المثالية المتدفقة، وأنه من المنطقي ألا يحسم الصراع لصالح أحد الطرفين، فكان لابد من تدخل (تحوت) الذي وقف في جانب حورس وأعاد له عينه، والمغزى من تدخل تحوت أن تكون العين المستردة هي (المعرفة الحكيمة) ذات البصيرة قبل البصر.

* * *

هل أحلم إذا تمنيت أن يقرأ أحد المسئولين عن التعليم كتاب د. مرفت، فيقرره على طلبة المدارس والجامعات، ليعرفوا جذورهم، خاصة أن الباحثة غزلت الماضي والحاضر في جدلية واحدة؟

طلعت رضوان

الحضارات الأولى فى مصر وبلاد الرافدين على سبيل المثال، وما يهدد الحضارة والبشرية اليوم، هو ما بات يعرف بالاحتباس الحرارى.

لكن الضغط المناخى ليس شراً كله: فهو وإن لم يحقق انهياراً كاملاً، فانه يمثل حافزاً لتسيير الابتكار التكنولوجى والتنظيم الاجتماعى، إذ كانت أوروبا فى القرن الرابع عشر مجرد قرية ريفية بنيتها التحتية بدائية للغاية، ملوك وملكات يحكمون مدناً مزدحمة تعانى من نقص الطعام والخدمات الأساسية من مياه نظيفة ومساكن صحية.. إلخ، لكن المطالب الضرورية لعصر الجليد الصغير ساعدت على أن تأتى بثورة زراعية، بدأت فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر فى البلاد المنخفضة، ثم انتشرت إلى إنجلترا بعد ذلك بمائة سنة، وهكذا ظهرت مزارع كبرى وفرت محاصيل لم تكن معروفة قبلاً. كما انتشرت المراعى بصورة غير مسبوقة، ولم تأت نهايات القرن الثامن عشر، حتى كانت إنجلترا ودول أوروبا المنخفضة مكتفية زراعياً، وهو ما مثل دعماً كبيراً للثورة الصناعية، إذ صار ممكناً توفير الطعام للمدن فى هذه المرحلة من ازدهارها وتزايد سكانها، ولم يبق متخلفاً زراعياً فى غرب أوروبا سوى فرنسا، إذ لا يوفر المناخ السيئ قدرة على إنتاج محاصيل جيدة، وهو ما أدى إلى زيادة الجوع، وساهم فى إحداث قدر متزايد من التفسخ الاجتماعى وتهديد الحكومات.

ولم تنج آسيا من التغيرات المناخية التى ميزت عصر الجليد الصغير، إذ شهدت عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر فصول ربيع وخريف أدفأ، واستمرت التقلبات ذاتها فى أوروبا.

والآن فإن سبب الاحترار ليس فقط طبيعياً، بل هو من صنع الإنسان، وبحسب المؤلف فإننا نعيش داخل كبسولة من الاقتصاد الكوكبى، إذ صار بإمكان التغيرات المناخية أن تقتل عشرات الآلاف كل يوم، فضلاً عن تهديدها لملايين آخرين بالجوع والموت، بسبب التصحر وافتقاد الشروط الصحية للحياة، خصوصاً مع الانفجار السكانى الرهيب الذى شهده العالم، واكتظاظ المدن بصورة غير مسبوقة. ويشير المؤلف إلى أن المخاطر فى ازدياد، مع زيادة حرارة الأرض، ويشير كذلك إلى وفاة أكثر من ٢٠ مليون شخص فى أنحاء مختلفة من العالم بالجوع والأوبئة فى القرن التاسع عشر، وأن مئات الملايين اليوم مهددون بالمصير ذاته، مع غفلة العالم عن هذه المخاطر.

⁂

أيام محمد على

محمد حاكم

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٧،

٢١٠ صفحات



قدر علماء الحملة الفرنسية سكان مصر عام ١٨٠٠ بنحو ٢.٥ مليون نسمة، يعيش نحو ٣٧ ألفاً منهم فى البنادر والباقون فى القرى، ويعيش نحو ٧٢٪ من سكان الحضر فى القاهرة وحدها تليها دمياط، ثم ١٥ مدينة أخرى تراوح عدد سكانها بين ٥ آلاف إلى ١٠ آلاف نسمة، بما يعنى أن غالبية سكان مصر آنذاك كانوا يعيشون فى الأرياف، فيما تركزت غالبية سكان الحضر فى العاصمة.

ويعنى هذا الكتاب أساساً بالتمايز الاجتماعى بين سكان الريف والحضر، ويلاحظ المؤلف أنه بالنسبة للقرى فقد حدث قدر من التمايز فى توزيع الحيازات، على الفلاحين بمساحات تتراوح بين ثلاثة وخمسة أفدنة من أراضى الخراج، وقد تم توزيع هذه الأراضى على الفلاحين القادرين أى دون المعدمين، وتم تسجيل هذه الحيازات فى السجلات الرسمية، جرى ذلك فى الفترة من ١٨١٣ وحتى ١٨١٨، وهكذا نشأ تمايز طبقى فى الريف بين المعدمين والقادرين، وقد سهلت التحولات الرأسمالية فى الزراعة هذا التمايز، وصار كل فلاح يحاسب على حدة على أساس ضريبة ثابتة، واهتزت المسئولية التضامنية للقرية، حيث كان سكان القرية جميعاً ملزمين بتسديد ما على أرضها الزراعية من عوايد، وتحول شيخ القرية إلى موظف حكومى من الدرجة الدنيا. وتم تقسيم القرية إلى وحدات أصغر، وهو ما أدى إلى تفتت المشترك القروى المصرى (وحدة إنتاجية مشتركة الزمام، وحدة ضريبية باعتبار أهله متضامنين فى سداد الخراج، وحدة تسخير عند صيانة شبكات الرى، وفى ستينيات القرن التاسع عشر كان هذا المشترك القروى قد اختفى تماماً.

يشير المؤلف إلى تماثل الخطاب الاستشراقى مع الخطابين العلمى والحكومى فيما يتعلق بالتمايز الذى شهدته القرية استناداً إلى غياب مفهوم الملكية الخاصة إذ كانت الدولة هى مالك الأرض.

ويقترح المؤلف بديلاً عن هذه الفكرة مفهوم الحيازة الأثرية، كما يشير إلى أن بعض القرى وجد بها فلاحون لا يمتلكون أرضاً ويعملون أجراء عند أولئك الذين يمتلكون أرضاً، كما لاحظ أن بعض هؤلاء الملاك قد يتحولون إلى أجراء فى السنوات التى لا تصل إلى أراضيهم فيها مياه الرى، فيتجهون إلى القرى التى يمكن أن تتوفر لهم فيها فرص العمل.

ويرى المؤلف أن ثمة توزيعاً قانونياً لعملية الاستحواذ بين القرية والمدينة، إذ بقى للقرية حق الحيازة الأثرية، وللمدينة حق الملكية العامة من خلال الوالى، إضافة إلى حق الالتزام، ومثل حق الحيازة الأثرية ميداناً للصراع بين القرية والمدينة، ففى الوقت الذى رأت فيه القرية حقاً شرعياً، رأت فيه المدينة تكليفاً يجبر الفلاحين على الارتباط بالأرض، وساعدت عملية الحيازة الأثرية على ظهور طبقة جديدة ممن لديهم القدرة على فك رهن الأرض وما عليها من ضرائب. وبالتالى صارت حيازاتهم أكبر من قدراتهم أو حجم قوة عملهم العائلية.

من ناحية ثانية كان الصراع بين الملكية العامة وحق الالتزام ملمحاً للطبيعة الصراعية لظاهرة الاستحواذ على الأراضى الزراعية داخل المدينة ذاتها، إذ أعطى للملتزم حق التمتع بفوائد الالتزام طوال حياته، مقابل «حلوان» يدفعه يساوى ثلاثة أمثال الفائض النقدى الذى حددته السلطة، وكان الورثة يدفعون «الحلوان» بعد وفاة الملتزم، وهو ما أكد ملكية الوالى للأرض، وبشكل عام فقد انتهى الصراع بين حق الملكية العامة وحق الالتزام لصالح حق الملكية العامة.

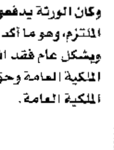
⁂

الإعلام والسلطة

فاروق أبوزيد

القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٧،

٢١٤صفحة



عبر ثمانية فصول، يبحث هذا الكتاب فى واحد من أهم الموضوعات ذات الصلة بالإعلام، وهو موضوع العلاقة بين الإعلام والسلطة. ويقدم رؤى لا يغيب عنها الطابع الأكاديمى والعلمى فى فصوله جميعها، قبل أن يتوقف عن قصة الإعلام والسلطة فى مصر، منذ بدايات عصر محمد على وحتى اليوم، ويلاحظ المؤلف أنه فى ظل السلطة الاستبدادية التى حكمت مصر فى معظم تاريخها، لم يكن أمام الإعلام إلا القيام بواحد من دورين:

إما أن يكون الأداة المعبرة عن السلطة والمبررة لشرعيتها والمحرضة ضد خصومها ومعارضيها، والمدافعة عن سياساتها وإنجازاتها، أو أداة مقاومة للسلطة والناقدة لسياساتها والمحرضة على الانقلاب عليها، والنموذج الثانى وإن كان ممثلوه أقل، إلا أنه برز أكثر فى الإعلام المهاجر، وقد شهد القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين هجرة الصحف والصحفيين.

يتابع المؤلف مسيرة عدد من أصحاب الصحافة المهاجرة، يعقوب صنوع وأديب اسحق وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعلى الغاياتى وإبراهيم المويلحى وعبدالعزيز جاويش، ومع إعلان تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وصدور دستور ١٩٢٣، بدأت الحياة النيابية المصرية وعادت الصحف للصدور، ولم يعد هناك مبرر لهجرة الصحفيين، وتمتعت الصحافة بهامش واسع من الحرية، حتى جاءت ثورة يوليو ١٩٥٢، وعادت ظاهرة هجرة الصحافة والصحفيين من جديد، وكان أحمد ومحمد أبوالفتح أبرز من هاجر من الصحفيين فى الخمسينيات، وكان على أمين أبرز صحفى مصرى هاجر فى الستينيات، وفى عهد السادات زادت هجرة الصحفيين المصريين.

وعلى صعيد التشريعات والقوانين، يتابع المؤلف ما صدر من قوانين المطبوعات وتأثيرها على الصحافة والصحفيين، إذ كان أول تشريع للمطبوعات فى مصر أثناء الحملة الفرنسية فى يناير ١٧٩٩، وتتالت القوانين والتشريعات بدءاً من قانون المطبوعات العثمانى ١٨٦٠ وحتى اليوم، وقد تفاوتت التشريعات من حيث التقييد والإباحة وفقاً للنظام السياسى السائد، فقد تمتع الإعلام المصرى فى مرحلة الديمقراطية الليبرالية (١٩٢٣، ١٩٥٢) بهامش أوسع من الحرية، فيما تقلصت هذه المساحة تماماً مع إعلان ثورة يوليو ١٩٥٢، وهو ما عكسته التشريعات التى صدرت فى تلك المرحلة وتطبيقاتها، ثم بدأ إلى التحول من النظام السلطوى إلى النظام الديمقراطى فى عهد السادات مع وجود سمات سلطوية، أى أنه كان نظاماً مختلطاً من هذه الزاوية، أما فى المرحلة الحالية فقد زادت السمات الديمقراطية، وإن كان المؤلف يعتقد أن الغالب على المرحلة الأخيرة أيضاً هو النظام الإعلامى المختلط.

⁂

ديوان توفيق الحكيم

إبراهيم عبدالعزيز
القاهرة: نفرو للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧،
١٦١صفحة



اختار توفيق الحكيم منذ البداية التمثيلية الأدبية والمسرحية والقصة، لتكون قوالبه التي يصب فيها إبداعه الأدبي، لأن أدبنا العربي كان يفتقر إلى هذه الأنواع، إلا أن علاقته بالشعر كانت قديمة، ليس فقط كمتذوق وإنما أيضاً كمبدع، وقد تأثر في كتابته بما كانت عليه المذاهب السريالية والرمزية التي كانت ذائعة الصيت في أوروبا حيث كان يقيم في أوائل القرن العشرين، لكنه أيضاً في كثير مما كتب بدا مسحوراً ببلاغة القرآن وشاعرية تصويره في العديد من الصور، حتى إنه كتب قصائد من الشعر المنثور، نشر بعضها في «زهرة العمر» وبعضها الآخر في «رحلة الربيع والخريف»، وقد طرح رأيه في الشعر الجديد في كتابه «فن الأدب» وقد رأى أن استلهام الشعر الجديد عندنا جاء صدى لما جرى في أوروبا، دون أن يلتفت إلى الأثر الذي ينبغي أن يتأسى به أكثر من أي شيء آخر.

ممالك الذهب

ماهر شفيق فريد
القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠٠٧،
١٢٧٥صفحة



ممالك الذهب التي جعل منها المؤلف وهو أستاذ الأدب الإنجليزي في جامعة القاهرة عنواناً لكتابه، هو كما يقول عوالم الأدب والفن، والتي تحدث عنها الشاعر الرومنتيكي الإنجليزي جون كيتس.

ويضم الكتاب عشرات الدراسات التي قام بها المؤلف أو ترجمها على مدى أربعين عاماً من عمله في حقل النقد أو في الجامعة، وقد قسمها إلى ثلاثة أقسام:

في القسم الأول أعمال أدبية مترجمة.

حيث يقدم ترجمة لقصة السندباد البحري، وثلاث مسرحيات.

منها ما يستوحي قصة يوحنا المعمدان في العهد الجديد.

ومنها ما يندرج في باب الملهاة الاجتماعية الخفيفة.

ومنها ما يمثل مسرح العبث في القرن العشرين، ثم أقصوصة من جواتيمالا وقصائد من قارتي أفريقيا وآسيا.

وفي القسم الثاني من الكتاب، دراسات في آداب عالمية، تبدأ بتجربة المؤلف نفسه في نقل قصائد تي. اس. إليوت إلى اللغة العربية، ثم موضوعات لا تندرج في باب الأدب بمعناه الدقيق وإن كانت تمت له بصلة ما.

منها فائدة المكتبات، التراث القبطي، مصر في عيون الرحالة الأجانب، مبادئ الفن، خواطر عن كارل بوبر ودريدا وبول ريكور وجابرييل مارسيل وسارتر ومقالات عن دانتي وشكسبير والشعراء الرومانتيكيين الإنجليز وأوسكار وايلد وتشيكوف وأوكتافيوباث وداريوفو وغيرهم، ومتابعات عشر للجديد في المشهد الأدبي شرقاً وغرباً، وتقديم لعدد من رسائل الماجستير والدكتوراة البريطانية.

أما القسم الثالث، فهو جولات في الصحافة الأدبية والبريطانية منذ عقد الستينيات وحتى اليوم.

وهي فترة كانت حافلة بالنشاط النقدي سواء في المجال الأكاديمي أو المنتديات أو على صفحات الجرائد والمجلات.

دوريـــــات

«حوار الطرشان» حول الحركة الإسلامية

أوراق اشتراكية
العدد ١٧ - صيف ٢٠٠٧

انقسم اليسار المصري والعربي في فهم ما تم في غزة في شهر يونيو الماضي، وهو كان قد انجر قبلها إلى فهم رومانسي للتجربة الديمقراطية الموريتانية، بينما لا يزال الغموض يلف رؤيته للتطورات الهائلة الجارية في أمريكا اللاتينية، بالتحديد في فنزويلا وبوليفيا، هذا طبعاً ناهيك عن استمرار «حوار الطرشان» حول الحركة الإسلامية والموقف منها.

في عدد صيف ٢٠٠٧ تحاول «أوراق اشتراكية»، وهي مطبوعة فصلية تصدر عن مركز الدراسات الاشتراكية في مصر، معالجة كل هذه الموضوعات فتتناول الصراع في غزة والتطورات في فنزويلا وموريتانيا، فضلاً عن قراءة في قانون الجودة في التعليم المصري، ومراجعة لأسباب العنف الطائفي المتصاعد ضد الأقباط.

يضم العدد دراسة جادة للكاتب الماركسي مصطفى مجدي الجمال حول اليسار ومواقفه من الإسلاميين، تطرح أكثر الأسئلة جوهرية في الموضوع الملتبس لدى معظم تيارات اليسار المصري.

يفرد هذا العدد أيضاً مساحة للاحتفال بمئويتين: مئوية السينما المصرية ومئوية نظرية الثورة الدائمة لصاحبها الماركسي الثوري الروسي ليون تروتسكي. في المئوية الأولى يقدم لنا خالد الصاوي نظرة بانورامية على تاريخ السينما المصرية مستنتجاً «أن أصل علتها هو الطبقة البرجوازية القائمة عليها». وفي الثانية يحاول جون مولينو، الاشتراكي البريطاني، التدليل على «أن نظرية الثورة الدائمة مازال لديها ما تقدمه لنا كمرشد للنضال حتى يومنا هذا».



وفي إطار المناسبات تحتفي المجلة أيضاً بالذكرى الخامسة والخمسين لثورة يوليو بدراسة لسامر منصور حول علاقة الثورة بالديمقراطية من خلال قراءة للمرحلة الحاسمة من ٥٢ إلى ٥٤ تكشف عن أصل الصراع وحقيقة أطرافه. هذا بالإضافة إلى دراسة تاريخية هامة أخرى بقلم عمر الشافعي عن تجربة الحزب الشيوعي المصري الأول في مطلع العشرينيات.

تضم قائمة كتاب هذا العدد: عاصم الدسوقي وأحمد الخميسي وأمينة رشيد وإسلام عبد المعطي وصفاء الليثي، الذين يقدمون مراجعات متنوعة لإبداعات جديدة، ففيما يقدم عاصم الدسوقي قراءته لإشكاليات التأريخ في الحركة الشيوعية المصرية في ضوء صدور المجلد الهام لوثائق الحركة من منشورات مركز البحوث العربية والأفريقية، تقدم أمينة رشيد وأحمد الخميسي قراءات نقدية لروايتي «نبيذ أحمر» لأمينة زيدان و«رائحة النعناع» لحسين عبد العليم. أما فيلم «تيمور وشفيقة» فقد وجد له مجالاً في المطبوعة الرصينة بعد أن كتبت عنه صفاء الليثي بوصفه من أفلام الصيف «الخفيفة».

ملف المجلة تم تخصيصه «حوارات حول الحركة العمالية المصرية، وتطوراتها الأخيرة» تضمن لقاءات مع إيهاب شلبي المهندس والعامل بغزل شبين الكوم والهامي الميرغني الباحث والكاتب الاشتراكي ومصطفى بسيوني الصحفي وعضو مركز الدراسات الاشتراكية، بالإضافة إلى قراءة تحليلية لتامر وجيه حول ظروف المرحلة الراهنة من الصراع الطبقي في مصر والإشكاليات الاستراتيجية والتكتيكية التي تطرحها تلك الظروف.


أحدث إصدارات
دار الشروق
الأعمال الكاملة
نجيب محفوظ
في عشرة مجلدات ذهبية فاخرة

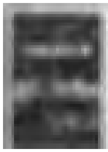
מול הכפר שחרב
חגי רוגני
פרדס
256 עמודים

أمام القرية المدمرة

حجاي روغاني

دار النشر: برديس

٢٥٦ صفحة



يتطرق المؤلف للشعر العبري من العام ١٩٢٩ وحتى العام ١٩٦٧، وتحديداً النصوص الشعرية التي تطرقت للصراع اليهودي العربي. ويشير الكتاب إلى أنه خلال هذه الفترة كانت هناك ثلاثة أجيال من الشعراء، الجيل الأول يمثله الشاعر اليميني المتطرف اوري تسفي غرينبرغ وافوت يشورون وناتان الترمان، والثاني يمثله حاييم غوري ويهودا عميحاي وابا كوبنر، والثالث يمثله تتان زاخ وليه غولدبرج. الكتاب مكون من ثمانية فصول تتطرق لنصوص شعرية نظمها الشعراء المنتمون للأجيال الثلاثة. يعتبر المؤلف أن غرينبرغ هو أكثر الشعراء الصهاينة تطرفاً حيث اشتهر بمواقفه المعادية للعرب والمطالبة بطردهم من أرض فلسطين، في حين يقف الشاعر يشورون في الطرف الآخر، حيث كتب العديد من القصائد التي تطالب بالتعايش والتعامل الحضاري مع فلسطين وشعبها. وقد اشتهر الشعراء الشيوعيون من امثال مردخاي ابي شاؤول والكسندرين. ويصف الكتاب الترمان بأنه «شاعر الأمة»، في حين وصف كلاً من غوري وكوبنر بأنهما من الشعراء الجنود لأنهما وصفا حرب العام ١٩٤٨.

※

הרב קוק
אבינועם רוזנק
מרכז שזר
287 עמודים

الحاخام كوك

افينوعم روزنيك

دار النشر: مركز شازار، ٢٨٧



يعتبر الحاخام ابراهام كوك، من أهم الشخصيات التي صنعت الحدث اليهودي في القرن العشرين. فكوك هو مؤسس تيار الصهيونية الدينية؛ وهو التيار الذي يلعب دوراً مركزياً في السياسة والمجتمع الإسرائيلي. وقد صدر عن دار النشر شازار كتاب للكاتب والمؤرخ افينوعم رزنيك يتحدث عن السيرة الذاتية للحاخام كوك. وللوقوف على مدى مساهمة كوك في التفاف أكبر قطاعات اليهود المتدينين حول المشروع الصهيوني، تجدر الإشارة إلى أنه حتى نهاية القرن التاسع عشر كان التيار الأرثوذكسي الاشكنازي بشقيه الليتاني والحسيدي يمثل المتدينين اليهود في شرق أوروبا وروسيا، وكان هذا التيار يرى أنه يتوجب عدم التدخل من أجل إقامة دولة لليهود التي تقوم بعد مجيء «المسيح المخلص». فجاء الحاخام كوك لكي يصدر فتوى جسدت في الحقيقة انقسام التيار الأرثوذكسي ومولد التيار الديني الصهيوني، حيث أفتى كوك أنه من أجل عودة المسيح المخلص، فيتوجب العمل على إقامة الدولة اليهودية. وأخذ كوك فتوى لأحد كبار الحاخامات اليهود في القرن الثاني عشر الذي أفتى أن استيطان «أرض إسرائيل» يعدل جميع فرائض التوراة الثلاثمائة وستين. وولد كوك عام ١٨٦٥ في لاتفيا، المتاخمة لروسيا، وتوفي في العام ١٩٣٥. أسس كوك العديد من الحركات الصهيونية الدينية الاستيطانية مثل حركة «بني عكيفا» للشبيبة اليهودية المتدينة، وأقام الحاخامية الكبرى، وكان الحاخام الإشكنازي الأول. إلى جانب ذلك كان غزير الإنتاج. حيث لم تقتصر كتاباته على تفسير النصوص الدينية؛ بل تعداها إلى الفكر والفلسفة. ويتبنى أفكار الحاخام كوك معظم المستوطنين اليهود في الصفة الغربية والجولان.

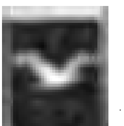
※

היונה שכשלה
יוחנן קץ
יארון גולן
155 עמודים

اليمامة التي سقطت

يوحنان كاتس

دار النشر: يارون غولان، ١٥٥ صفحة



يتعرض هذا الكتاب للمبادرات السياسية التي طرحت بين عامي ١٩٦٧ و١٩٧٣، أي بين الحربين. ويشير المؤلف إلى أن هذه الفترة شهدت طفرة في العمل السياسي لمحاولة وضع حد للصراع بين إسرائيل والعالم العربي، حيث تمثلت بشكل خاص في مساعي الأمم المتحدة عبر مبعوثها غورنار يارينغ الذي سعى ليكون وسيطاً لحل الصراع. ومع هذا فإن هذه الجهود فشلت في منع اندلاع حرب العام ١٩٧٣. ويشير الكتاب إلى مبادرة روجرز، حيث قامت إسرائيل برفض مبادرتي كل من يارينغ وروجرز. ويحمل المؤلف إسرائيل المسئولية عن الفشل في التوصل لتسوية سياسية كان من الممكن أن تمنع نشوب حرب العام ٧٣. حيث كانت إسرائيل ترفض من حيث المبدأ التوصل لتسوية سياسية تقوم على أساس الانسحاب من الأراضي العربية التي احتلت عن طريق القوة. يتناول الكتاب الموقف الإسرائيلي من المناطق التي احتلت في العام ٦٧ منذ الأيام الأولى من الحرب وحتى بداية مهمة يارينغ في كانون الأول من العام ١٩٦٧. وبعد ذلك يتطرق الكتاب إلى المساعي التي قام بها المبعوث الدولي وحرب الاستنزاف على قناة السويس وحتى طرح مشروع روجرز في كانون الثاني ١٩٦٩. وفي الفصل الأخير من الكتاب يتطرق الكاتب إلى الوضع الدولي ورفض مشروع روجرز من قبل إسرائيل وتفجر حرب العام ٧٣.

※

בעלי חיים בשירות הבטחון וההגנה
דן יהב
מבט
280 עמודים

الحيوانات في خدمة الأمن والدفاع

دان ياهف

دار النشر: مباط

عدد الصفحات ٢٨٠



في كتابه هذا يوثق الدكتور دان ياهف آليات تجنيد العصابات الصهيونية قبل العام ٤٨، والكيان الصهيوني بعد ذلك للحيوانات في الحرب ضد الشعب الفلسطيني. الكتاب يتطرق إلى اعتماد الصهاينة على الحيوانات في أداء الخدمات الأمنية منذ أن شرع الصهاينة في التمهيد لبناء مشروعهم العنصري في العام ١٨٧٠ وحتى العام ٢٠٠٦. في البداية يتطرق ياهف إلى وسائل تسخير الإنسان للحيوان من ناحية تاريخية، وتسخيره لها في الحروب. وينتقل بعد ذلك للحديث عن وسائل استخدام الصهاينة للحيوانات قبل العام ٤٨ وبعد الإعلان عن تأسيس دولتهم على أرض فلسطين. فمنذ أواخر القرن التاسع عشر كان المستوطنون الصهاينة يستخدمون الحصان في حراسة مستوطناتهم، وكانت فرق الحراسة تعتمد بشكل أساسي على الحصان. في نفس الوقت استخدمت عناصر العصابات الصهيونية الذين كانوا يعملون في الأفرع الاستخبارية التابعة للحركات الصهيونية الجمال للتمويه على القبائل البدوية التي كانت تعيش في صحراء النقب لكي يتم التعامل معهم كما لو كان بدوا فلسطينيين؛ وذلك لكي يتسنى لهم الحصول على المعلومات الاستخبارية التي ساعدتهم بعد ذلك في مهاجمة هذه القبائل وطرد أفرادها من الأراضي الشاسعة التي كانوا ينتشرون عليها. وأقام المستوطنون الأوائل فرقة «راكبي البغال» العسكرية لحراسة خطوط التماس بين المستوطنات والتجمعات الفلسطينية. ويضيف ياهف أن العصابات الصهيونية استخدمت الحمام في عمليات التجسس، والكلاب في اقتفاء الأثر، وأن كان الجيش الإسرائيلي قد أنشأ بعد ذلك وحدة خاصة من قصاصي الأثر يخدم بها بشكل خاص عدد من البدو الذين خانوا شعبهم، ومازالت تعمل حتى الآن، حيث يلعب افرادها دوراً أساسياً في حماية حدود الكيان الصهيوني، وقد سقط العشرات من عناصر هذه الوحدة.

※

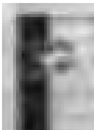
מבט אחר
דן בן חורין
רימונים
106 עמודים

وجهة نظر أخرى

دان بن حورين

دار النشر: ريمونيم

عدد الصفحات ١٠٦ صفحات



يتطرق هذا الكتاب إلى شخصية موشيه شاريت ثاني رئيس وزراء لإسرائيل والذي كان يعد الرجل الثاني في هرم القيادة للكيان الإسرائيلي. الكتاب ينسف الانطباع الذي تولد عن شاريت بأنه كان معتدلاً وأقل تشدداً من بقية القيادات الصهيونية. ويؤكد المؤلف أن شاريت كان يشارك رئيس وزراء إسرائيل الأول دفيد بن غوريون كل أفكاره المتطرفة والعنصرية إزاء الوجود الفلسطيني في فلسطين، مع أنه كان من المعروف عنه أنه من مؤيدي العمل الدبلوماسي في حل القضية السياسية مع القادة العرب، حيث أجرى لقاءات معهم في الفترة الممتدة بين العامين ١٩٣١ و١٩٣٦، حاول فيها إقناعهم بقبول إقامة دولة لليهود على أرض فلسطين. يستعرض الكتاب أيضا لسيرة شاريت الذاتية وبداية ظهوره القيادي على ساحة العمل

الصهيوني. ففي العام ١٩٣٩ عين سكرتيراً للدائرة السياسية في الوكالة اليهودية.

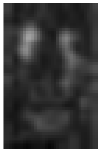
*

לנצח את הטלר
אברהם בורג
ידיעות ספרים
220 עמודים

أن تنتصر على هتلر

ابراهام بورغ

دار النشر: يديعوت سفريم



بالنسبة لكل من يتابع الإنتاج الفكري في إسرائيل، فإنه لا جدال عنده على حقيقة أن الكتاب الذي ألفه رئيس الكنيست الإسرائيلي الأسبق ابراهام بورغ بعنوان «أن تنتصر على هتلر» والصادر عن دار النشر «يديعوت سفريم» في تل أبيب، يهز بقوة كل الأسس التي استندت إليها الفكرة الصهيونية. ففي هذا الكتاب يعلن بورغ «طلاقه» للصهيونية، بعد أن يطالب بإلغاء الطابع اليهودي لدولة إسرائيل. ولا تنبع أهمية وتاريخية ما جاء في كتاب بورغ لأن مؤلفه هو رئيس سابق للكنيست ومن قادة حزب العمل سابقاً، بل إن بورغ المتدين شغل في الماضي الوكالة اليهودية التي تعتبر أهم وأكبر مؤسسة تجسد الفكرة الصهيونية لمسئوليتها عن تهجير يهود العالم لإسرائيل، ولأنه أيضا نجل الدكتور يوسيف بورغ من مؤسسي حزب «المفدال» الديني، والذي ينظر إليه كرمز «وطني» لأنه ظل وزيرا في حكومات إسرائيل من العام ٤٨ حتى العام ١٩٨٣.

يسخر بورغ في كتابه من زعم إسرائيل بأنها دولة ديموقراطية، معتبراً أنه لا يمكن الجمع بين اليهودية والديموقراطية. ويسدد بورغ سهامه لعدد من «البقرات الصهيونية المقدسة»، ويطالب بالتنازل عن الطابع اليهودي، قائلاً أن الدولة هي «وسيلة علمانية لا تهتم تماما بالشحنة الروحانية أو الصوفية أو الدينية. إن تعريف إسرائيل انها دولة يهودية يصبح شيئاً قابلاً للانفجار». ويشير إلى أن مفتاح نهاية إسرائيل هو الطابع اليهودي للدولة. ويسخر بورغ من ادعاء الحركة الصهيونية بأن إسرائيل هي دولة يهودية وديموقراطية، معتبراً أنه لا يمكن الجمع بين اليهودية والديموقراطية. ويسدد بورغ سهامه إلى العديد من «البقرات المقدسة» مثل قانون العودة الذي يضمن لكل يهودي في أي بقعة من العالم الحق بالهجرة إلى إسرائيل وان يصبح «مواطناً» فيها، مطالباً بإلغائه. وأضاف «قانون العودة قانون اعتذاري. هذه صورة مرآة لهتلر. لا أريد أن يحدد لي هتلر هويتي. أنا كديموقراطي وكإنساني يعرض القانون على تناقضا. قانون العودة يفصل بيننا وبين يهود الشتات وبيننا وبين العرب». وهاجم بورغ بشدة استلاب المجتمع الإسرائيلي لمفهوم القوة، قائلاً: «أحب أن تعرفوا أن الإسرائيلي يفهم القوة فقط. لو كان شخص ما كتب أن العربي يفهم القوة فقط أو أن التركماني يفهم القوة فقط لكان اتهم فورا بأنه عنصري. وبحق». وأضاف: «أرى مجتمعي يذوي أمام ناظري. أردت أن يدرك التيار المركزي أنه عندما تدع الجيش ينتصر (بحسب الشعار الإسرائيلي الذي يرفعه اليمين الإسرائيلي)، فإنه غير قادر على ذلك (غير قادر على) إن يعي أن القوة ليست هي الحل. إن الحديث عن محو غزة يدل على أننا لم نستوعب الدرس». ويعتبر بورغ أن المجتمع الإسرائيلي هو مجتمع «مذعور»، ويضيف «إننا معوقون نفسياً. إسرائيل تعاني صدمة نفسية مستديمة.. صدمة النازية أفقدتنا توازننا. إننا نعيش بشعور أن كل العالم ينفر منا. التشدد يسيطر على هويتنا.. إننا مجتمع يعيش على سيفه، وهذا الشعور ورثناه من ألمانيا. وكأن ما سلبوه منا خلال ١٢ عاماً يحتم أن يكون سيفنا كبيراً جداً.. أليس جدار الفصل الذي نقيمه في الأراضي الفلسطينية خير دليل على انفصام الشخصية الذي تعانيه؟». ويعتبر بورغ أن إصرار إسرائيل على احتلال الأراضي العربية «جزء صغير جداً من المشكلة»، ويضيف: «إسرائيل مجتمع خائف. من اجل البحث عن مصدر وسواس القوة واقتلاعه يجب علاج المخاوف. والخوف الأعلى، الخوف السابق هو ستة ملايين يهودي قتلوا في الكارثة». ويحذر من أن مصدر قوة اليمين في إسرائيل يكمن في حرصه على نشر البارانويا: أنا أقبل وجود صعاب. ولكن هل هي مطلقة؟ هل كل عدو هو أوشفيتس؟ هل كل حماس طاغية؟».

*

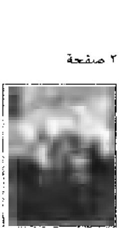
זהויות במשחק
תמיר שורק
מגנז
246 עמודים

هويات في اللعب

تمير شورك

دار النشر: ماغنس

عدد الصفحات: ٢٤٦ صفحة



تمير شورك هو عالم اجتماع إسرائيلي معروف، يحاول في كتابه هذا رصد تأثير الرياضة على الانتماء القومي لفلسطينيي العام ٤٨ الذين لم تستطع العصابات الصهيونية اجتثاثهم عندما قامت إسرائيل في العام ١٩٤٨. الكتاب يتعرض لمعضلة الازدواجية التي يواجهها الرياضيون من فلسطينيي ٤٨، حيث انهم يشاركون في الحياة الرياضية الإسرائيلية على الرغم من تواصل الصراع العربي الإسرائيلي. وتبرز هذه المعضلة بشكل خاص عندما يشترك فريق عربي إسرائيلي في مباريات دولية كما حدث مؤخراً مع فريق سخنين، أو عندما يشارك لاعب عربي في المنتخب الإسرائيلي في المباريات التي تمهد للتنافس على كأس العالم وكأس أوروبا. الكتاب يتطرق إلى تاريخ الحركة الرياضية لفلسطينيي ٤٨، منوهاً إلى أن هذه الحركة بدأت في العام ١٩٠٨، أما أول اتحاد رياضي فقد أقيم في العام ١٩٣٤، وظل حتى العام ١٩٤٨ حيث تم تدميره على أيدي الحركات الصهيونية. وحتى ذلك التاريخ، نجح الاتحاد في تنظيم مباريات وبطولات في العديد من المجالات الرياضية مثل كرة القدم والطائرة والتنس والسباحة ورفع الأثقال والملاكمة. لكن بعد إقامة إسرائيل، فإن ظهور الرياضيين الفلسطينيين لم يظهر بشكل جدي إلا في الثمانينيات من القرن الماضي، حيث برز منهم زاهي ارملي ورفعت تورك.

*

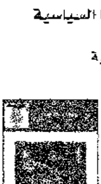
סוגיות בגיאופוליטיקה
ארנון סופר
משרד הבטחון
152 עמודים

قضايا في الجغرافيا السياسية

ارنون سوفير

وزارة الدفاع الإسرائيلية

١٥٢ صفحة



هل هناك ثمة إمكانية للتوصل لتسوية سياسية للصراع بين إسرائيل والعالم العربي؟. في إسرائيل صدر مؤخراً كتاب جديد للإجابة عن هذا السؤال، وقد أثار هذا الكتاب اهتماماً كبيراً في الأوساط السياسية والأمنية ولدى النخب بشكل عام في تل أبيب. وعلى الرغم من أن كتاب «قضايا في الجغرافيا السياسية للشرق الأوسط» لمؤلفه خبير الديموجرافيا الإسرائيلي البروفيسور أرنون سوفير حاول إضفاء مسحة من المعالجة المهنية الأكاديمية في إجابته عن هذا السؤال، فإن الإطار العام والجوهري لهذه المعالجة عنصري بامتياز. وعلى الرغم من أن عنوان الكتاب يوحي لأول وهلة أنه يتناول الجغرافيا السياسية للمنطقة من خلال عرض أكاديمي خالص ومحايد، إلا أنه يحاول من مقدمته إلى آخر صفحة فيه أن يقدم مسوغات لدعم أيديولوجيا اليمين الصهيوني المتطرف التي تؤكد أن البون الحضاري الشاسع بين العالم العربي الذي يمثل التخلف والدونية وإسرائيل التي تمثل الحضارة الغربية، لا يسمح ابتداء بالتوصل لمثل هذه التسوية. وأهمية الكتاب على الرغم من حججه الواهية والمتداعية، تتمثل ليس فقط في تبني وزارة الدفاع الإسرائيلية إصداره، بل إن هذا الكتاب أعد بعد الاتفاق بين سوفير ووزارة الدفاع ليكون مرشداً لقيادة الأجهزة الأمنية والاستخبارية والمراكز المسئولة عن تقديم التقديرات الاستراتيجية في المؤسسة العسكرية الإسرائيلية حول العالم العربي.

في البداية حرص المؤلف على التأكيد على أن السمات العامة لمنطقة «الشرق الأوسط» تتمثل في أنه «منطقة صحراوية، موطن للقومية العربية، والإسلام، والنفط، وأنه يقع على مفترق طرق»، وهذه السمات كما يرى سوفير مقومات أساسية للتخلف.

ويفطن سوفير فجأة إلى المشكلة التي وقع فيها من خلال ربط سمات «الشرق الأوسط» بالتخلف، لأنه يدرك أن ثمة مناطق كثيرة تتقاطع مع هذه المنطقة في كثير من السمات التي أشار إليها. فحاول أن يوجد فروقاً بين المسلمين العرب في العالم العربي، الذي يطلق عليه «الشرق الأوسط»، والمسلمين في مناطق أخرى تتشابه في ظروفها الجغرافية والمناخية مع العالم العربي مثل إيران وأفغانستان وباكستان. وحسب منطق سوفير، فإنه نظراً لأن الإسلام تعرض لتأثير ديانات أخرى في هذه البلدان، فإن المسلمين هناك هم أقل خطورة من المسلمين في «الشرق الأوسط». ويجزم سوفير في كتابه أن الشرق الأوسط «الإسلامي والعربي» يرفض الاندماج في تيارات العولمة لأنه ليس لديه ما يضيفه بالنسبة لها، فهذا الشرق بالنسبة للمؤلف هو مركز للتطرف والإرهاب، وتخلو أجندته من الجدل حول قضايا المجتمع المدني وقضايا المرأة وغيرها.

كل ذلك ليصل المؤلف في النتيجة إلى استنتاج هام وأساسي وهو أنه في ظل أوضاع الشرق الأوسط (العالم العربي)، وسماته العامة، فإنه لا يوجد لإسرائيل شريك ممكن في عملية التسوية السياسية للصراع مع العالم العربي، وبالتالي فهو يرى أنه يتوجب على إسرائيل مواصلة امتشاق سيفها للذود عن بقائها.

*

﴿ ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقاً على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات، وتحرص على نشرها، مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها ﴾

مساءلة منهج لا شعار

فى مزيج من الأدلة الشرعية، والأسانيد القانونية، والإحالات التاريخية، جاء رد د. محمد سليم العوا فى العدد الماضى على مساءلة د. جابر عصفور لشعار «الإسلام دين ودولة».. «كاشفاً» لحقائق عدة، كثيراً ما ينالها التشويه والتلبيس ممن يتابعون الشأن الإسلامى، نقداً وتحليلاً.

ومرد هذا التشويه والتلبيس يرجع فى الأساس إلى أنهم ينظرون إلى الشأن الإسلامى من خلال عيون المستشرقين، ودوائر البحث الغربية، وما يثيرونه من شبهات حول أصول الإسلام وتاريخه، وممارسات المسلمين ومدى ارتباطها بتلك الأصول.. حتى إننا لا نبالغ إذا أسميناهم بالمستشرقين العرب!

وبالإضافة إلى ما ذكره د. العوا فى رده، فإن لى عدة ملاحظات أوجزها فيما يلى:

أولاً: إذا أخذنا فى الاعتبار ما قرره علم المنطق من أنه «لا مشاحة فى الاصطلاح»، لكان الأجدر بالدكتور عصفور أن يناقش ويسائل برنامجاً لا شعاراً!: لأن العبرة بالمسميات لا الأسماء، وبالمضامين لا العناوين، ثم إن الشعار قد يأتى فضفاضاً وغير منضبط بمقاييس اللغة، وحينئذ فليس من الحكمة أن نقف عنده بالتحليل والتدقيق، ولعل هذا الأمر هو ما جعل د. عصفور يجهد نفسه ليشرح لنا أن واو العطف التى بين (الدين والدولة) «لا تقيم اتحاداً بين طرفيها، كى يغدو كل منهما غيره، وإنما تفصل بين المعطوفين بما يؤكد تمايزهما، ومن ثم تمايز الإسلام من حيث هو دين عن الدولة التى يغدو الإسلام مصدراً من مصادرها التشريعية، دون أن يكون هو إياها بالضرورة».

ومن ناحية أخرى، فقد غاب عن د. عصفور أن شعار «الإسلام دين ودولة» لم يرد فى القرآن الكريم والسنة النبوية، إنما هو صياغة اجتهادية، جاءت لتعبر عن فكر يستمد أصوله من القرآن والسنة والخبرة التاريخية، بما يعنى أنه لا قداسة لهذا الشعار ولا لغيره من الشعارات التى يعبر من خلالها عن الطرح الإسلامى، ومن ثم فالأولى أن تتوجه الجهود لمناقشة المضامين بدلاً من العناوين.

كما لا يفوتنا أن مهمة الشعار تظل محصورة فى حشد التأييد، وجمع الطاقات، وتحريك الهمم، وتلخيص المضمون، دون تفصيل أو شرح، وخير مثال لذلك: حركة «كفاية»، فهى قد اختصرت مهمتها فى مقاومة التوريث والاستبداد والظلم الاجتماعى و.. فى كلمة واحدة: «كفاية»!!

الإسلام دين ودولة ﴿﴾

مساءلة شعار

ثانياً: نحن نعلم أن شعار «الإسلام دين ودولة» ترفعه جماعات إسلامية متنوعة، تشمل الإخوان المسلمين، والجماعات الجهادية وغيرها، لكن الأمر الذى ينبغى ألا يغيب عن أذهاننا فى هذا المقام، أن هذه الجماعات فيما بينها تقف على طرفى نقيض عند الدخول فى تفاصيل هذا الشعار!

فبينما ينطلق الإخوان المسلمون من إسلامية المجتمع، ولا يكفرون أحداً نطق بالشهادتين، ويؤكدون على «بشرية» الداعين للحل الإسلامى، وأنهم غير معصومين، ودعاة لا قضاة، ويؤمنون بالتعددية الفكرية والحزبية، وبتداول السلطة، والاحتكام إلى الجماهير.. تجد الجماعات الإسلامية الأخرى تختلف قليلاً أو كثيراً - ليس هذا مقام تفصيل - فى ذلك.

وكان الأولى بالدكتور «الجامعى» أن يبين لنا الشرائح المختلفة للإسلاميين، وموقفهم من الشعار محل البحث، وموقفهم أيضاً من القضايا التى ذكرناها قبل قليل.

ثالثاً: يحرص كثير من العلمانيين على إظهار رموزنا الثقافية والفكرية وكأنهم دعاة للعلمانية، ومعادون لمحاولات وصل حاضر الأمة بأصولها ومنابعها الإسلامية، وهم فى سبيل تحقيق ذلك لا يتورعون عن تزييف التاريخ، وإظهار بعض صفحاته التى قد تشهد لهم وكتمان صفحات أخرى تدمغ حججهم وباطلهم! وهذا يأتى فى محاولة منهم لإثبات أن لأفكارهم جذوراً، وأنهم ليسوا شاذين ولا متغربين!!

فهم يتكلمون عن الشيخ على عبدالرازق وكتابه «الإسلام وأصول الحكم»، ولا يذكرون تراجعه عما ورد فى هذا الكتاب حين نشر فى مجلة «رسالة الإسلام» فى مايو سنة ١٩٥١ مقالاً نقد فيه ما ذكره فى كتابه فقال: «فقد زعم الطاعنون أنى فى ذلك البحث قد جعلت الشريعة الإسلامية شريعة روحانية محضة، ورتبوا على ذلك ما طوعت لهم أنفسهم أن يفعلوا، أما أنا فقد رددت بأنى لم أقل ذلك مطلقاً، لا فى هذا الكتاب ولا فى غيره».

ثم يقول: «وما أدرى كيف تسربت كلمة روحانية الإسلام إلى لسانى يومئذ ولم أرد معناها، ولم يكن يخطر لى ببال، بل لعله الشيطان ألقى فى حديثى (أى: حديثه مع د. أحمد أمين) بتلك الكلمة ليعيدها جذعة تلك الملحمة التى كانت حول كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، والتى أشرت إليها آنفاً. وللشيطان أحياناً كلمات يلقيها على ألسنة بعض الناس (انظر: الإسلام والسياسة د. محمد عمارة ص ١٢٠ - ١٢٢، طبعة دار السلام، ط١، ٢٠٠٤م).

وهم أيضاً يتحدثون عن الشيخ خالد محمد خالد وكتابه «من هنا نبدأ» ويتعامون عن كتابه بعد ذلك «دين ودولة»، ويكفى أن أشير فى هذا إلى المقال الضافى الذى كتبه د. محمد رجب البيومى فى مجلة «الهلال» فى يوليو سنة ٢٠٠٤م، وقد ذكر فيه أمثلة كثيرة لتحولات المفكرين وفيئهم إلى رحاب الإسلام، أمثال: طه حسين، ومنصور فهمى، ومحمد حسين هيكل، ومصطفى محمود وغيرهم.

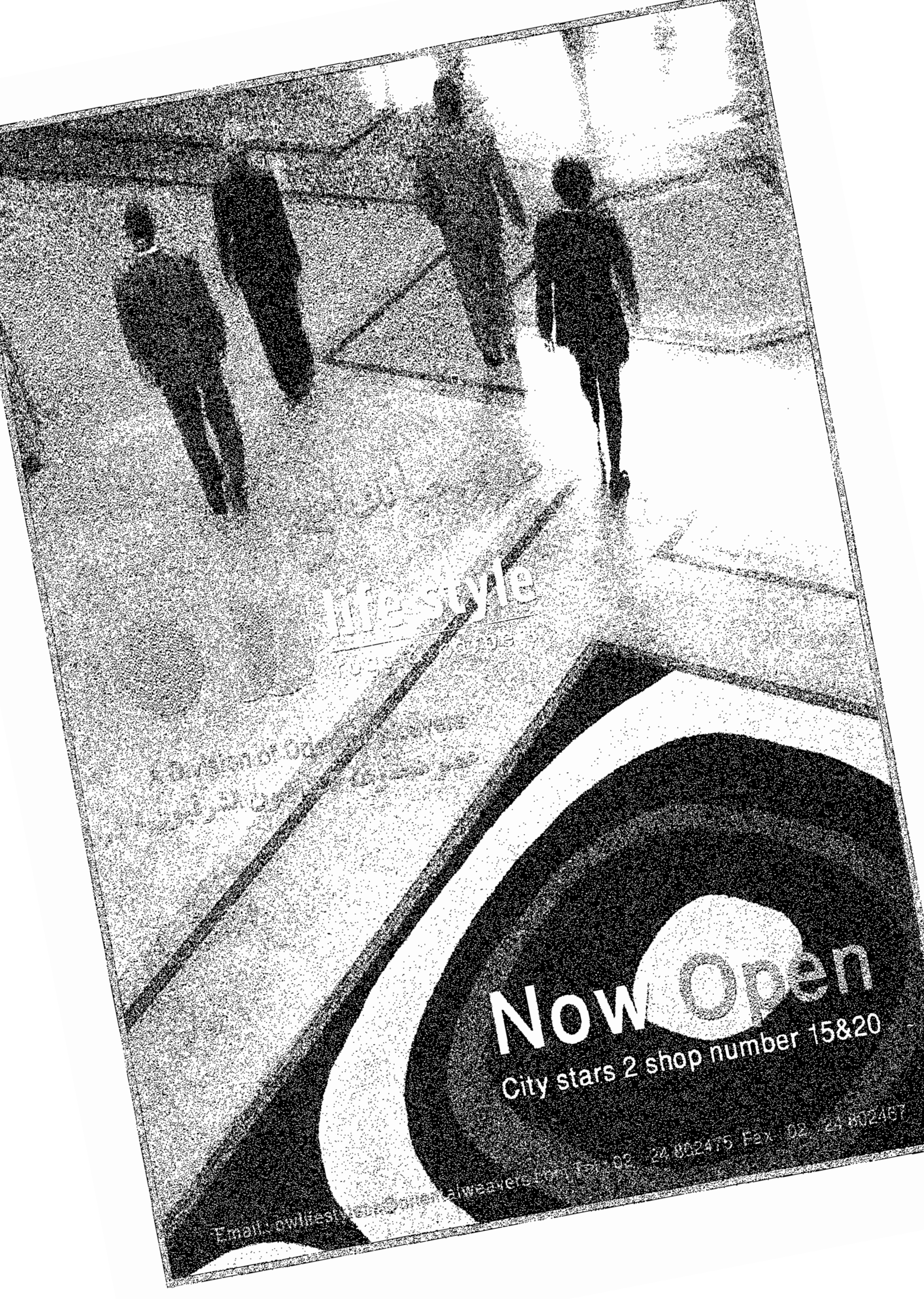
وقد سار د. عصفور على ذات المنهج حين ذكر حديث الإمام محمد عبده عن أن «الإسلام هدم بناء السلطة الدينية، ولم يدع لأحد بعد الله سلطاناً على عقائد الناس»، وتغافل فى الوقت نفسه عن كلام الإمام محمد عبده الذى يدعو فيه إلى تحكيم الإسلام فى دنيا الناس، لأن فيه مصلحتهم العاجلة والآجلة، يقول الإمام محمد عبده: «إن سبيل الدين لمريد الإصلاح فى المسلمين سبيل لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شىء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً».

رابعاً: أكد د. عصفور فى مساءلته عدم تمايز الإسلام عن غيره من الأديان، لأنها حسب رأيه «كلها تقوم على الهدايات العامة والأحكام الكلية التى لا يمكن التفريط فيها.. ولا تتناقض فيما بينها، بل تتآزر وتتداعم، فتغدو مصدراً لا غنى عن استلهامه فى التشريعات المدنية».

وهذا الذى يطرحه د. عصفور عن علاقة الإسلام بغيره من الأديان، خاصة فى ناحية التشريع والأحكام، أراد يأتى فى إطار أوسع وهو مغازلة الأقباط، واللعب بورقة الأقليات، والتلويح بفزاعة الإخوان والإسلاميين، لأنه كلام فى السياسة أكثر منه فى الدين أو القانون! وهو لا يقف أمام التمحيص العلمى، والمعرفة العميقة بحقيقة الأديان، ومنزلتها بعضها من بعض.

الإسلام.. قد جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتب والرسالات، وجاء أيضاً - وهذا هو الذى يتجاهل ويتغافل - مهيمناً عليها، وناسخاً لأحكامها إلا فيما دلت النصوص على بقاء حكمه، ووجوب العمل به. قال الله تعالى مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم: «وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه..» (المائدة: ٤٨).

السنوسى محمد السنوسى
باحث إسلامى


Life style
Now Open
City stars 2 shop number 15&20